الإمارات العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

كتابُ النّصوصِ

الصّف الحادي عشر

الطّبعة الثّانية 1438-1439هـ / 2017-2018م

حقوق الطبع محفوظة لوزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة

إدارة مناهج الصّفوف العليا

صاحب السّمو الشّيخ خليفة بن زايد آل نهيان
رئيس دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، حفظه الله

"يجب التزوُّد بالعلوم الحديثة والمعارفِ الواسعة، والإقبال عليها
بروح عالية ورغبة صادقة؛ حتى تتمكّن دولة الإمارات خلال
الألفيّة الثّالثة من تحقيق نقلة حضاريّة واسعة."

من أقوال صاحب السّمو الشّيخ خليفة بن زايد آل نهيان

دلالات ألوان علم
دولة الإمارات العربيّة المتّحدة

استلهمت ألوان العلم من البيت الشهير للشاعر صفيّ الدّين الحلّي:

بيضٌ صَنائِعُنا خُضْرٌ مَرابعُنا
سودٌ وَقائِعُنا حُمْرٌ مَواضينا

- يرمز إلى عمل الخير والعطاء، ومنهج الدّولة لدعم الأمن والسّلام في العالم.
- يرمز إلى النّماء والازدهار والبيئة الخضراء، والنّهضة الحضارية في الدّولة.
- يرمز إلى قوّة أبناء الدّولة ومنعتهم، وشدّتهم، ورفض الظّلم والتّطرّف.
- يرمز إلى تضحيات الجيل السّابق لتأسيس الاتّحاد، وتضحيات شهداء الوطن لحماية منجزاته ومكتسباته.

رؤية دولة الإمارات العربية المتحدة 2021

1. متحدون في المسؤولية
- الإماراتيّ الواثق المسؤول.
- الأسر المتماسكة المزدهرة.
- الصّلات الاجتماعيّة القويّة والحيويّة.
- ثقافة غنيّة ونابضة.

2. متحدون في المصير
- المضيّ على خطى الآباء المؤسّسين.
- أمن وسلامة الوطن.
- تعزيز مكانة الإمارات في السّاحة الدّولية.

3. متحدون في المعرفة
- الطّاقات الكامنة لرأس المال البشريّ المواطن.
- اقتصاد متنوّع مستدام.
- اقتصاد معرفيّ عالي الإنتاجيّة.

4. متحدون في الرخاء
- حياة صحيّة مديدة.
- نظام تعليميّ من الطّراز الأوّل.
- أسلوب حياة متكامل.
- حماية البيئة.

تطبيق الديوان
عزيزي الطالب
للحصول على النسخة الرقمية من الكتاب قم بزيارة الرابط أدناه
www.elib.moe.gov.ae/MoElib/getting-started
Get it from Microsoft
Download on the App Store
GET IT ON Google Play

رسالةٌ إلى الطالب

«يجبُ أنْ يكونَ الكتابُ فأسًا للبحرِ المتَجَمِّدِ فينا»
(كافكا)

عزيزي الطالب،

هـذا كِتـابٌ صُمِّـمَ ليكـون رفيقًـا لـك وصديقًـا؛ سـتجد فيـه النصـوص المقـرَّرة فـي كتـاب الأنشـطة اللغويّـة، ونصوصًـا أخـرى رديفـة، فـي كُلِّ فـنّ مـن فنـون القـول: القُـرآن الكريـم، والحديـث الشـريف، والنّصـوص الأدبيّة، ونصـوص الـرّأي، والنّصـوص المعلوماتيّـة. وهـو دعـوةٌ منّـا لتكـون القـراءةُ طَقسًـا مـن طقـوس حياتـك اليوميّـة، تجـد لهـا متّسـعًا مـن الوقـت، فتخلـو فيـه بكتـابٍ تقرؤه بحريّـة، وتبحـر فـي عوالمـه بهـدوء وسـلام.

إنّ التّحـرّر مـن نمـطِ الحيـاةِ المقيّـدةِ بالـدروسِ المقـرّرة والاختبـاراتِ إلـى الحيـاة المنفتحـة علـى الثقافـة والمعرفـة بـكلِّ أشـكالِها وألوانِهـا هـو الّـذي سـيمنحُك أدواتِ نجـاح راسِـخةً وممتـدّة ومتناميـةً وهـو الّـذي سـينير بصيرتَـك لتـرى الحيـاةَ أكبَـرَ بكثيـر مـن مجـرّد مدرسـة وصـفٍّ ودرس. إنّنـا نحثّـك علـى أن تجعـل للقـراءة فـي هـذا الكتـاب وكتـبٍ أخـرى وقتًـا تقتطعـه مـن يومـك، ولـو كان قصيـرًا، ونشـجّعك علـى أنْ تجعـلَ لقراءاتـك فـي هـذا الكتـاب والكتـب الأخـرى صـدى فـي حياتِـك، فتتحـدّث عنهـا مـع أصدقائـك وعائلتـك، وتكتـبُ عنهـا علـى صفحاتـك الشـخصيةِ فـي مواقِـع التواصـل الاجتماعـيّ؛ فـكلُّ هـذا سيُسـهمُ إسـهامًا ملموسًـا فـي بنـاءِ شـخصيّتك، وتعزيـز ثقتِـك بنفسِـك، وتزويـدك بمفاتيـح النجـاح الدائـم المسـتمر.

عزيزي الطالب،

إنّ القراءة، وقراءة الأدب على وجه الخصوص، تساعد المرء على أن يكونَ أكثر فهمًا للحياة والناس، وأوسع أفقًا، وإنّ هذا النوع من القراءة هو الّذي يجعل الإنسان أكثر تواضعًا وتسامحًا وذكاءً. إنّ كلّ قصة أو رواية تقرؤها هي بمثابة بوابة تُفتح لك لتُبْصِرَ الحياة بتفاصيلها الصغيرة، تلك الّتي قد لا ننتبه لها ونحن نمارس واجباتنا اليوميّة، ونغدو ونروح مع الغادين والرائحين. إنّ هذه البوّابة هي الّتي تجعلك تستقرّ في قلوب الكثيرين من الناس، أولئك الذين تُكتبُ عنهم القصصُ، وتحكي حكاياتِهم الرواياتُ، فتعرف ما لم تكن تعرف، وتدرك ما لم يكن خطر لك على بال.

عزيزي الطالب،

إنّ قراءة الأدب تشبه الدخول في مرآة سحريّة كبيرة، تكشف لك وجوهًا لا نهاية لها للحياة، لفعل الزمان في الإنسان، وللإنسان في ضعفه وقوّته، في صدقه وكذبه، في عزّه وذلّه، في أنانيّته وظلمه، في رقّته وقسوته في أحزانه وأفراحه، وآلامه وأحلامه. وكلما انفتح كتابٌ بين يديْ قارئٍ في مكانٍ ما، في زمانٍ ما، استطالت مرآةٌ سحريةٌ أمامه ليرى ما لم يكن يرُى، ويكشِفَ ما كان سيبقى محجوبًا للأبد لولا لحظة تبصُّرٍ قادته إلى أن يُمسِك بين يديه قصة أو روايةً ستجعلُه بعد أن يقلبَ الصّفْحة الأخيرة فيها يزداد يقينًا أنّ الخلود لا يكون إلا للخير والحق والجمال.

نرجو لك رحلةً ممتعةً ومفيدةً مع اللغةِ العربية.

الفهرس

❋ القُرآنُ الكريمُ والحديثُ الشّريفُ 13

» القُرآنُ الكريمُ 15

» أحاديثُ شريفةٌ 17

❋ النّصوصُ الأدبيّةُ 19

– الشِّعرُ 21

» الشِّعرُ الجاهليُّ 23

◊ قال المثقب العبديّ 29

◊ قال امرؤ القيس 30

◊ قال زُهيرُ بنُ أبي سُلمى 31

◊ قال المُهَلْهل يرثي أخاه كُلَيْبًا 32

» الشِّعرُ في عصرِ صدرِ الإسلامِ والعَصرِ الأمويِّ 33

◊ قال مالكُ بنُ الرَّيبِ التَّميميُّ 38

◊ قال عبدالله بن الدُمَيْنة 39

◊ قال كُثَيِّر عزّة 40

» الشِّعر في العصرِ العبّاسي 41

◊ أَراكَ عَصيَّ الدَّمْعِ – أَبو فِراسٍ الحَمْدانيُّ 45

◊ قال المتنبّي 46

◊ قال صالح بن عبدالقُدّوس 47

ملاحظة:

النّصوص المعالجة في كتاب (التطبيقات اللّغويّة) تجد عناوينها مظلّلة باللّون الرّمادي.

» الشّعرُ العربيُّ الحديثُ 51
◊ الطّينُ – إيليا أبو ماضي 55
◊ سامِحيني هَديل – غازي القُصيبيِّ 56
◊ خمسُ رسائلَ إلى أُمّي – نزار قبّاني 57
◊ جبَل – عمر أبي ريشة 61
◊ فكّرْ بغيْرِكَ – محمود درويش 62
» الحركةُ الشِّعريّةُ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتّحدة 63
◊ إلى أُمّتي – صاحبُ السُّمُوِّ الشَّيخُ محمَّدُ بنُ راشدٍ آلِ مَكتومٍ 67
◊ سيرة وطن – شيخة المطيري 69
» شِعرٌ عالميٌّ 70
– القِصَّةُ القصيرةُ 73
» القِصَّةُ القصيرةُ 75
◊ حادثةٌ – نجيب محفوظ 79
◊ نظّارةٌ طبيّةٌ لسائقٍ باكستانيٍّ عجوزٍ – مريم السّاعدي 86
◊ حتّى آخِرِ رَمَقٍ – عائشة الزّعابي 92
◊ غِطاءُ الفِراشِ – للكاتبِ الإنجليزيِّ / جورج بِرْنارد شو 99
◊ صُوَرٌ خارِجَ الإِطارِ – ابتسامُ المُعلّا 105
◊ ورقة من الرملة – غسان كنفاني 109
◊ لؤلؤ في الطريق – غسان كنفاني 113
◊ الصغيرُ يذهبُ إلى المخيّم – غسان كنفاني 119
◊ الزوار – يوسف إدريس 126
◊ الحرب والجوع – الشَّيخ عبداللّه العلايلي 131
◊ نامي ليستيقظ الدمع ويحكي – عبد العزيز الفارسي 132
◊ الناسك الحكيم – للكاتب الرّوسي (ليو تولستوي) 137
◊ المغفلة – للكاتب الرّوسي (أنطوان تشيخوف) 142

◊ ضيوف في الليل – (توماس هاردي) 145
– أدبُ السّيرِ والرّحلاتِ 149
» السّيرةُ الأدبيّةُ 151
◊ يومُ العيدِ – سَردُ الذّاتِ، سُلطانُ بْنُ محمّدٍ القاسميُّ 154
◊ دارُنا الدِّمَشقيَّةُ – نِزار قَبّانيّ 156
◊ قلم زينب – أمير تاج السر 159
◊ ألسنة النار تتكلم – محمد عبيد غباش 164
◊ لُغاتُ العالَمِ نُجومٌ تَتَلَألَأُ – (رسول حمزاتوف) 167
◊ أُمّي – (مارك توين) 170
◊ الدراسة في الجامعة – (هيلين كيلر) 172
* نصوصُ الرّأي 179
– المَقالاتُ 181
» المقالةُ 183
◊ الاستِهتارُ بُرهانُ السَّأَمِ – سلامة موسى 186
◊ نريدُها عادةً لا صرعةً – عوضُ بنُ حاسومٍ الدَّرمكيُّ 188
◊ الحلّاقُ المُثقَّفُ – ياسر حارب 191
◊ لماذا نُثقِّفُ أنفُسَنا؟ – سلامة موسى 193
◊ الاقتِدارُ الإنسانيُّ وَبناؤهُ 195
◊ أيُّ النّاسِ أسعَدُ؟ وكَيفَ تَحصُلُ على السَّعادةِ؟ 198
◊ المعنى السياسي في العيد – مصطفى صادق الرافعي 200
– الأعمدةُ الصّحفيّةُ 203
» العَمودُ الصّحفيُّ 205
◊ صَديقي الهاتِف! – عائشة سلطان 207
◊ الشّبابُ سُفَراءُ الإماراتِ – ميساء غدير 209

◊ يوجِعُني نِصفُ الإنسانِ – صالِحَة عُبيد 211
◊ المَسؤوليَّةُ المُجتمعيَّةُ – سامي قرقاش 213
◊ قـلْ (لا) واستَمتِع – شَهد العبدولي 216

* النّصوصُ المعلوماتيّةُ 219

» النّصوصُ المعلوماتيّةُ 221
◊ لغاتُ العالَمِ مرايا النّاسِ 224
◊ حُضنُ الطَّبيعةِ 227
◊ كيفَ نحيا بِلا بلاستيكَ؟ 233
◊ المشيُ .. آثارٌ إيجابيَّةٌ على الحالةِ الصِّحيَّةِ – الدُّكتور أكمل عبد الحكيم 236
◊ أتريدون تحسين مزاجكم؟ البستنة قد تكون الحل الأنسب والأوفر – باميلا كسرواني 239
◊ الروبوتات.. هل تجعل الحياة أسهل – مدى خالد 243
◊ صناعة المستقبل – حازم البلاوي 246

القُرآنُ الكريمُ والحديثُ الشّريفُ

القُرآنُ الكريمُ

قالَ اللّهُ تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾

(سورة النور)

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣﴾

(سورة النور)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧ ﴾

(سورة إبراهيم)

أحاديثُ شريفةٌ

حديث "مَثَلُ هذهِ الأمَّةِ مَثلُ أَربَعةِ نَفَرٍ"

قالَ رسولُ اللّهِﷺ:

* «مَثَلُ هذهِ الأمَّةِ مَثلُ أَربَعةِ نَفَرٍ: رَجلٌ آتاهُ اللّهُ مالًا وعِلمًا، فهُوَ يَعمَلُ بِهِ في مالِهِ يُنفِقُهُ في حَقِّهِ، ورَجُلٌ آتاهُ اللّهُ عِلمًا ولَمْ يُؤتِه مالًا فهوَ يقولُ: لو كانَ لي مثلُ هذا عَمِلتُ فيهِ مِثلَ الَّذي يَعمَلُ، قالَ ﷺ: فهُما في الأجرِ سواءٌ، ورجلٌ آتاهُ اللّهُ مالًا ولَمْ يُؤتِهِ عِلمًا، فهوَ يَخبِطُ فيه؛ يُنفِقُهُ في غَيرِ حَقِّهِ، ورَجلٌ لم يُؤتِهِ اللّهُ مالًا ولا عِلمًا، فهوَ يقولُ: لو كانَ لي مِثلُ مالِ هذا عَمِلتُ فيه مِثلَ الَّذي يَعمَلُ، قالَ ﷺ: فهما في الوِزرِ سواءٌ».

(الترمذي وابن ماجه)

* «مَنْ سَلكَ طريقًا يبتغي فيه علمًا، سَلكَ اللّهُ بهِ طريقًا إلى الجنّةِ، وإنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجنحتَها رضاءً لطالبِ العِلمِ، وإنَّ العالِمَ لَيَستغفرُ لهُ مَنْ في السّماواتِ، ومَنْ في الأرضِ حتّى الحيتانُ في الماءِ، وفضلُ العالِمِ على العابدِ، كفضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ، إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يورّثوا دينارًا، ولا درهمًا، إنّما ورّثوا العلمَ، فمَنْ أخذَ بهِ فقدْ أخذَ بحظٍّ وافرٍ».

(صحيح الترمذي)

* «اللّهمّ انْفَعني بما علّمْتَني، وعَلِّمْني ما ينفَعُني، وزِدني علما، والحمدُ للّهِ ربِّ العالَمينَ».

النّصوصُ الأدبيّةُ

الشِّعرُ

الشِّعرُ الجاهليُّ

الشِّعر الجاهلي هو الشِّعر العربي الذى قيل قبل الإسلام، وقد تميز العرب عن سواهم من الأمم الأخرى بصفاء القريحة وملاءمتهم بين بيئتهم وخيالهم وتأملهم، فكانوا أشعر الأمم. فالبادية بيئة الشِّعر الجاهلي، ولذلك كان الشِّعر مرآة لهذه الحياة البدوية القاسية الخشنة، يصف الأطلال والديار والانتجاع والظعن والفلاة والحيوان والمعارك وآبار المياه.

لقد كان الشِّعر ديوان حِكَمِ العرب وعلومهم، وَسِجلّ وقائعهم وسيرهم، ومادة حوارهم، يرتجلونه؛ ليعبّروا عما يختلج في صدورهم من عواطف وهموم. والشِّعر الجاهلي شعر غنائي ذاتي يصور نفسية الشّاعر وأحاسيسه، سواء أكان يتغزل أم يفخر أم يمدح أم يهجو أم يرثي أم يعاتب أم يعتذر أم يصف. لقد كان الشِّعر يُنشد إنشادًا أو يُغَنّى غناءً، فالغناء كان أساس تعلم الشعر ومن أساليب التّعبير عنه. يقول الشاعر حسان بن ثابت:

تغَنَّ بالشعر إمّا كنتَ قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وتظهر موسيقى الغناء في وزن القصيدة وحرف رويّها (قافيتها) الموحد؛ فإن كان حرف الرّوي (القافية) في القصيدة (الباء) تسمّى القصيدة (بائية)، وإن كان حرف الرّوي في القصيدة (الدّال) تسمّى القصيدة (دالية)، وإن كان حرف الرّوي في القصيدة (نونًا) تسمّى القصيدة (نونية)، كما تظهر الموسيقا في التصريع في مطلع القصيدة، والتصريع هو اتفاق آخر جزء من صدر البيت وآخر جزء من عجزه في الوزن والتقفية، كقول علقمة بن عبدة التميمي:

طحابك قلبٌ في الحسان طروبُ بُعيدَ الشّبابِ عَصْرَ حان مشيب

وتظهر الموسيقا أيضًا في التقطيع الصوتي للأبيات، كقول امرئ القيس في معلقته يصف فرسه:

مِكَرٍّ، مِفَرٍّ، مُقبلٍ، مُدْبِرٍ، معًا كَجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وقد تبوأ الشّاعر الجاهلي مكانة مرموقة في عصره فكان لسان قبيلته، كما لعبت الأسواق الموسمية الكبرى دورًا مهمًا في التعريف بالشعراء ونقل أشعارهم بين القبائل الأخرى. فالأسواق لم تكن للبيع والشراء فحسب، بل كانت -أيضًا- للخطابة والشِّعر، ومن أهم هذه الأسواق: سوق عكاظ، وهي سوق في صحراء بين نخلة والطائف شرق مكة، وكانت تستمر عشرين يومًا، وسوق ذي المجاز قرب يَنْبُعٍ، ويَنْبُعُ ثَغْرُ مدينة الرّسولﷺ، وسوق ذي المجنة قرب مكة.

ويذهب المؤرّخون إلى أن النّابغة الذُّبياني كان من المُحَكِّمين، تقام له في هذه الأسوق قُبّةٌ، يذهب إليها الشّعراء؛ ليعرضوا شعرهم عليه، فمن أشاد به ذاع صيتُهُ وتناقلت شِعره الرُّكبان.

والشِّعر الجاهلي شعر مرويّ، لم يُدوّن إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة، وهذا ما يفسر ضياع أغلبه. فالكثير من رواته ذهبت بهم حروب الفتح، وأوفر هذه القصائد حظًّا من الحفظ هي المعلّقات أو المذهّبات، وقدُ عدّت المُعلّقات من أفضل ما وصلنا من العصر الجاهلي. ويزعم أغلب المؤرخين أنها سبع قصائد اختارتها العرب فكتبتها بماء الذهب، ثُمَّ علّقتها على الكعبة إعجابًا بها، وأصحابها هُمْ: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سُلمى، وطرفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة.

وتتناول القصيدة الجاهليّة مجموعة من الموضوعات والعواطف المختلفة في بناءٍ ينقسم إلى ثلاثة أقسام، إذ يستهل الشّاعر القسم الأول بالبكاء على الديار القديمة (الوقوف على الأطلال) الّتي رحل عنها، وترك فيها ذكرياته، وهو بكاء يُرَدُّ إلى شاعر سبق امرئ القيس هو ابن خذام، كان أول من بكى على الأطلال، كما جاء في ديوان امرئ القيس:

عوجا على الطّلل المُحيل لَعَلَّنا نبكي الديار كما بكى ابنُ خِذامِ

والتّغزّل بالمحبوبة، أي التّشْبيب، وهوَ ينقسم إلى قسمين: غزل عفيف، يدور حول بثّ الشوق واللوعة، وغزل حسّي، يصف جمال المرأة: شعرها وعنقها وجبينها وعينها وأسنانها وطولها.. كما يصف ثيابها وزينتها وعفّتها، ومن الغزل العفيف يمكن أن نستشهد بما قاله عنترة بن شداد في ابنة عمه عبلة:

سأُضْمِرُ وَجدي في فؤَادي وأَكْتُمُ وأَسْهرُ ليلي والعواذلُ نوَّمُ

وأطْمعُ من دَهري بما لا أنالهُ ... وألزمُ منه ذلَّ من ليسَ يرحمْ
وأرجو التداني منكِ يا ابنة مالكٍ ... ودونَ التَّداني نارُ حَرْبٍ تُضَرَّمُ
فمني بطيفِ من خيالكِ واسألي ... إذا عادَ عني كيفَ باتَ المتيَّمُ
ولا تَجْزَعي إنْ لَجَّ قوْمُكِ في دَمي ... فما لي بعْدَ الهجرِ لَحمٌ ولا دَمُ
ألم تسمعي نوحَ الحمائمِ في الدجى ... فمنْ بعض أشجاني ونوحي تعلّموا
ولم يبْقَ لي يا عبلَ شخْصٌ معَرَّفٌ ... سوى كبدٍ حَرَّى تذوبُ فأَسقمُ
وتلكَ عِظامٌ باليَاتٌ وأَضْلعٌ ... على جلدِها جيْشُ الصُّدودِ مخيِّمُ
وإنْ عشْتُ منْ بَعد الفراقِ فما أنا ... كما أدَّعي أني بعبلةَ مُغْرَمُ
وإنْ نامَ جفني كانَ نومي علالةً ... أقولُ لعلَّ الطَّيف يأتي يسلّمُ
أَحِنُّ إلى تلكَ المنازلِ كلّما ... غدَا طائرٌ في أيكَةٍ يترَنَّمُ
بكيتُ من البيْنِ المُشِتِّ وإنني ... صبورٌ على طعن القنا لو علمتُم

ثُمَّ ينتقل الشّاعر إلى وصف ظُعنِها، أي ترحالها مع قبيلتها إلى مكان آخر بحثًا عن الماء والكلأ، كقول المثقّب العبدي في قصيدته:

أفاطمُ! قبلَ بينكِ متِّعيني ... ومنعكِ ما سألتكِ أنْ تبيني
فَلا تَعِدي مَواعِدَ كاذِباتٍ ... تمر بها رياحُ الصيفِ دوني
فإنِّي لوْ تخالفني شمالي ... خلافكِ ما وصلتُ بها يميني
إذاً لَقَطَعتُها ولقُلتُ: بِيني ... كذلكَ أجتوى منْ يجتويني
لِمَن ظُعُنٌ تَطَلَّعَ مِن ضُبَيبٍ ... فَما خَرَجَت مِنَ الوادي لِحينِ
يُشبِّهْنَ السَّفينَ وهنَّ بختُ ... عُراضاتُ الأباهِرِ والشُّؤونِ
وهُنَّ على الرَّجائزِ واكِناتٌ ... قَواتِلُ كُلِّ أَشجَعَ مُستكينِ
كغزلانٍ خذلنَ بذاتِ ضالٍ ... تنوشُ الدَّانياتِ منَ الغصونِ

والقسم الثاني هو الرحلة، يصف فيه الشّاعر رحلته ووسيلة تنقله، وكل ما تقع عليه عيناه في الصحراء من حيوان وزواحف وطير، والمصاعب الّتي تعترضه، والفلاة الّتي يقطعها ليبيّن شجاعته وبأسه. يقول طرفة بن العبد واصفًا ناقته وسرعتها:

وَإِنِّي لأُمْضِي الهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ ... بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِي
أَمُونٍ كَأَلْوَاحِ الإِرَانِ نَصَأْتُهَا ... عَلَى لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ
تُبَارِي عِتَاقاً نَاجِيَاتٍ وأَتْبَعَتْ ... وَظِيْفاً وَظِيْفاً فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبَّدِ
لَهَا فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فِيْهِمَا ... كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيْفٍ مُمَرَّدِ
وطَيُّ مَحَالٍ كَالحَنِيِّ خُلُوفُهُ ... وأَجْرِنَةٌ لُزَّتْ بِدَأْيٍ مُنَضَّدِ
كَأَنَّ كِنَاسَيْ ضَالَةٍ يَكْنِفَانِهَا ... وَأَطْرَ قِسِيٍّ تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ
لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلانِ كَأَنَّهَا ... تَمُرُّ بِسَلْمَيْ دَالِجٍ مُتَشَدِّدِ
كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا ... لَتُكْتَنِفَنْ حَتَى تُشَادَ بِقَرْمَدِ

والقسم الثالث هو الغرض الرئيس في القصيدة، وهو إمّا فخر أو مدح أو رثاء أو هجاء أو عتاب أو اعتذار أو حكمة.

فالفخر فخر بالقبيلة وبالنفس، وهو من مُقوّمات الحياة القبليّة، يفخر فيه الشّاعر بالنّسَبِ والشجاعة والكرم والإسراع إلى معونة الآخرين، كقول عنترة بن شداد:

لا تَضْحكي مني عُبيلةُ واعْجَبي ... مِنّي إذا التفَّتْ عليّ جيوشُ
ورأيتِ رمحي في القلوبِ محكّمًا ... وعليهِ مِنْ فَيْضِ الدِّماءِ نقوشُ
ألقى صدورَ الخيل وهي عوابسٌ ... وأنا ضَحوكٌ نحْوها وبَشُوشُ
إني أنا لَيثُ العرين ومَنْ له ... قلْبُ الجبانِ مُحيَّرٌ مدْهوش
إني لأعجبُ كيفَ ينظرُ صورتي ... يوم القتال مبارزٌ ويعيشُ

والمدح هو ثناء على الممدوح وفضائله ومآثره، ويغلب على أهل البادية كما نرى ذلك عند امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى، ومدح للتكسّب يغلب على أهل الحضر كما نرى

عند النابغة الذبياني والأعشى. يقول امرؤ القيس مادحًا بني تميم لمّا أجاروه:

كَأَنّي إِذْ نَزَلتُ عَلى المُعَلّى نَزَلتُ عَلى البَواذِخِ مِنْ شَمامِ
فَما مَلِكُ العِراقِ عَلى المُعَلّى بِمُقتَدِرٍ وَلا مَلِكُ الشَآمِ
أَقَرَّ حَشا اِمرِئِ القَيسِ بنِ حُجرٍ بَنو تَيمٍ مَصابيحُ الظَلامِ

والرثاء هو مديح الميت، يصف فيه الشّاعر الجاهلي المرثي بجميع الصفات الّتي يصف بها الممدوح، ومثال ذلك رثاء الخنساء لأخيها صخر:

بَكَتْ عَيْني، وعاوَدَها قَذاها بِعَوَّارٍ فما تقضي كراها
على صَخْرٍ، وأيّ فتًى كصَخْرٍ إذا ما النّابُ لم تَرْأمْ طِلاها
فَتى الفِتْيانِ ما بَلَغوا مَداهُ ولا يَكْدَى إذا بلغَتْ كُداها
حلفتُ بربِّ صهبٍ معيلاتٍ إلى البيتِ المحرَّمِ منتهاها
لئنْ جزعتْ بنو عمرٍو عليهِ لقدْ رزئتْ بنو عمرٍو فتاها
لهُ كفٌّ يشدُّ بها وكفٌّ تَحَلَّبُ ما يجِفّ ثرَى نَداها
تَرَى الشُّمّ الجَحاجِحَ من سُلَيْمٍ يَبُلّ نَدَى مَدامِعها لِحاها
على رجلٍ كريمِ الخيمِ أضحى ببطنِ حفيرةٍ صخبٍ صداها

والهجاء عكس المدح يوصف فيه المهجوّ وقبيلته بِضعة النّسب والجُبن والبخل.

يقول النابغة الذبياني هاجيًا عامر بن الطفيل:

فإن يك عامرٌ قد قال جهلا فإن مَطِيَّةَ الجهل السِّبابُ
فكن كأبيك أو كأبي براءٍ تصادفك الحكومة و الصوابُ
ولا تذهب بحِلْمِكَ طامياتٌ من الخُيلاء ليس لهنّ بابُ
وإنك سوف تَحلُم أو تناهي إذا ما شبت أو شاب الغرابُ

والحكمة، فهي قول موجز مشهور، يتضمن معنًى مسلمًا به، ويعبّر عن خُلاصة تجارب صاحبها في الحياة. يقول شاعر الحكمة زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ لا يُصانِعْ في أُمورٍ كَثيرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنيابٍ وَيوطَأْ بِمَنسِمِ
وَمَن يَكُ ذا فَضلٍ فَيَبخَل بِفَضلِهِ عَلى قَومِهِ يُستَغنَ عَنهُ وَيُذمَمِ
وَمَن يَجعَلِ المَعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ يَفِرهُ وَمَن لا يَتَّقِ الشَتمَ يُشتَمِ

قال المثقب العبديّ

لاَ تَـقُـولَـنَّ إِذا مـا لـم تُـرِدْ ... أَن تُتِمَّ الـوَعْـدَ في شَـيءٍ: نَعَمْ
حَسَـنٌ قَـوْلُ نَـعَـمْ مِـنْ بَـعْـدِ لا ... وقَـبـيـحٌ قـوْلُ لاَ بَـعـدَ نَـعَـمْ
إِنَّ لاَ بَـعْـدَ نَـعَـمْ فـاحِـشَـةٌ ... فَـ«بِـلا» فابْدَأ إِذا خِفْتَ النَّدَمْ
فـإِذا قُـلْـتَ نَـعَـمْ فـاصبـرْ لَها ... بِنَجاحِ القَولِ؛ إِنَّ الخُلْفَ ذَمّْ
واعْـلَـمَ انَّ الـذَّمَّ نَقْـصٌ للفَتى ... ومَـتـى لاَ يَـتَّـقِ الـــذَّمَّ يُـــذَمّْ

قال امرؤ القيس

أفاطِمُ، مهلًا، بعضَ هذا التدلُّلِ ... وإنْ كنتِ قد أزْمَعْتِ صرْمي فأَجْمِلي
أغرَّكِ مني أنّ حُبَّكِ قاتلي، ... وأنّكِ مهما تأمُري القلبَ يفعَلِ ؟
وليلٍ كموْجِ البحْرِ أرخى سُدولَه ... عليّ بأنواعِ الهُمومِ ليَبتَلي
فقُلتُ له لمّا تمَطّى بصُلْبِهِ ... وأردَفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انْجلي ... بصُبْحٍ، وما الإصْباحُ منك بأمثَلِ
فيا لَكَ من ليلٍ كأنّ نجومَه ... بكُلّ مُغارِ الفتلِ شُدَّت بيَذْبُلِ
كأنَّ الثُريّا عُلّقَتْ في مَصامها ... بأمراس كَتّان إلى صُمٍّ جَندَلِ
وقد أغتَدي، والطيْرُ في وُكُناتِها ... بمُنجَرِدٍ قيْد الأوابِدِ هيكل
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدبِرٍ معًا ... كَجَلمودِ صخْرٍ حطّهُ السيْلُ من علِ

قال زُهيرُ بنُ أبي سُلمى

فلا تَكْتُمَنَّ اللّـهَ ما في نفوسِكم ... لِيَخْفى، ومهما يُكْتَمِ اللّهُ يَعْلَمِ
يُؤخَّرْ فيوضعْ في كتابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيومِ الحسابِ أو يُعجَّلْ فَيُنْقَمِ
وما الحربُ إلاّ ما علمْتُمْ وذقْتُمُ ... وما هو عنها بِالحديثِ المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وَتَضْرَ إذا ضرَّيْتُموها فَتضَرمِ
وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قبلَهُ ... ولكنّني عنْ علمِ ما في غدٍ عمي
رأيتُ المنايا خبْطَ عشواءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ ومَنْ تُخطِئْ يُعَمَّر فيهرم
وَمَنْ لم يُصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ ... يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بمنسمِ
وَمَنْ يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتم
وَمَنْ يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلهِ ... على قومهِ يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمِمِ
وَمَنْ يوفِ لا يُذْمَمْ، ومن يُهْدَ قلبُهُ ... إلى مطمئِنِّ البِرِّ لا يَتَجْمجمِ
وَمَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... وإنْ يَرْقَ أسبابَ السّماءِ بِسُلَّمِ
وَمَنْ يجعلِ المعروفَ في غيرِ أهلِه ... يكنْ حَمْدُهُ ذمًّا عليهِ ويندمِ
وَمَنْ لم يّذُدْ عن حوضِه بسلاحِهِ ... يُهدَّمْ ومنْ لا يظلمِ الناسَ يُظلمِ
وَمَنْ يغتربْ يحسبْ عدوًّا صديقَه ... ومن لا يُكَرِّم نفسَه لا يكُرَّمِ
ومهما تكنْ عندَ امْرئٍ مِنْ خليقةٍ ... وإنْ خالَها تخفى على الناسِ تُعْلمِ
وكائِنْ ترى مِنْ صامتٍ لكَ معجبٍ ... زيادتُه أو نقصُه في التّكلّمِ
لِسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللّحمِ والدّمِ
وإنَّ سفاهَ الشّيخِ لا حُلْمَ بَعدَهُ ... وإنَّ الفَتى بعدَ السفاهةِ يحلمِ

قال المُهَلْهل يرثي أخاه كُلَيْبًا

أهــاجَ قــذاءَ الـعيْـنِ الادّكــارُ ... هــدوءًا، فـالـدّمـوعُ لها انحدارُ
وصــارَ الـلـيـلُ مشتَمِلا علينا ... كــأنّ الـلـيـلَ لـيـسَ لــهُ نـهـارُ
وبِــتُّ أراقِــبُ الـجـوْزاءَ حتى ... تـقـارَبَ مـن أوائِـلِـهـا انـحِـدارُ
أُقَـلِّــبُ مُـقْـلَـتي فـي إِثْــرِ قـومٍ ... تـبـايَـنَـتِ الـبـلادُ بـهـم فـغـاروا
دعَوْتُكَ، يا كُلَيْبُ، فلم تُجِبني ... وكيفَ يُجيبُني البلَدُ القِفارُ؟
أَجِبـني، يـا كُـلَـيْـبُ، خـلاك ذمٌّ ... لقد فُـجِـعَـتْ بـفـارِسِـهـا نِـزارُ
وإنـك كنتَ تحلُمُ عن رجـالٍ ... وتـعـفـو عـنـهُـمُ ولـك اقـتِـدارُ
فـلا تَـبْـعَـدْ فـكـلٌّ سـوف يَلقىَ ... شَـعـوبًـا يـسـتـديرُ بـهـا الـمـدار
يـعـيـشُ الـمـرءُ عـنـدَ بـني أبيه ... ويوشِكُ أن يصيرَ بحيثُ صاروا
كـأنّـي إذْ نعى الـنـاعـي كُـليبًا ... تـطـايَـرَ بـيـن جـنْـبَـيَّ الـشَّـرار

الشِّعرُ في عصرِ صدرِ الإسلامِ والعَصرِ الأمويِّ

ظَلّ الشِّعر في عهد الرّسول ﷺ جاهليًا في شكله[1]، فشعر طبقة المُخضرمين الّتي عاشت في الجاهلية، وأدركت الإسلام ككعب بن زهير، والحطيئة، ومعن بن أوس، والنابغة الجعدي استمرارٌ للمذهب الجاهلي، ولم يتأثر شعرها بالإسلام إلا في بعض موضوعاته. وبعد أن دانت قريش وسائر العرب للدّين الجديد قَلَّ الهجاء المقذع والمدح المبالغ فيه والغزل الصريح والفخر بالخمر وبالثأر؛ لأن الرّسول ﷺ نهى عن الشِّعر الّذي يثير الأحقاد والعصبيات، أو يشجّعُ على ارتكاب الفاحشة.

وقد انتهج الخُلفاء الرّاشدون نهج الرّسول ﷺ؛ فقد روي أن الخليفة عمر بن الخطاب –رضي اللّه عنه– حبس الشّاعر الحطيئة حين أقذع في هجائه للزّبرقان بن بدر، ولما طلب منه الحطيئة العفو؛ لأن حَبْسَه حال دون الاهتمام بأولاده، عفا عنه، وَخَلّى سبيلهُ على ألّا يهجو أحدًا من المسلمين. يقول الحطيئة:

مَاذَا تقول لأفْراخٍ بذي مَرَخٍ ... زُغْبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ

غَيَّبْتَ كَاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ... فاغْفِرْ عَلَيْكَ سلامُ اللّه ياعُمَرُ

أنتَ الأمِينُ الذي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ ... أَلْقَتْ إليْكَ مَقَالِيدَ النُّهَى البَشَرُ

وكثر الرثاء للشهداء، والتمدح بالإسلام، فظهر فن شعري جديد، يسمّى البديعيات، وهي قصائد نظمت في مديح الرّسول الكريم ﷺ. ومن روّاد هذا الفن الشّاعر حسّان بن ثابت الملقب بشاعر الرّسول ﷺ، كان يمدحه، ويردّ عنه هجاء المشركين، من أمثال: عبد اللّه بن الزِبَعْري، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب، وقد كثرت في شعره التعابير الإسلامية والاقتباس من القُرآن الكريم، يقول حسان بن ثابت في إحدى بديعياته:

أغَــرُّ، عَـلَـيْـهِ لِـلـنُّـبُـوَّةِ خَـاتَـمٌ ... مِـنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَـلُـوحُ، ويُشْهَدُ

1) – راجع عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ط 4، (بيروت: دار العلم للملايين، 1981)
– راجع أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط 8 (بيروت: دار المعرفة، 2004)

وضـمَّ الإلـهُ اسـمَ النبيّ إلى اسمهِ ... إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَـــقَّ لـــهُ مـــنِ اســمـهِ لـيـجـلّـهُ ... فذو العرشِ محمودٌ، وهذا مُحَمَّدُ
نَـبـيٌّ أتَـانَـا بَـعْـدَ يَـأسٍ وَفَـتْـرَةٍ ... مِنَ الرُّسْلِ، والأوثانُ في الأرضِ تعبدُ
فَأمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنيرًا وَهَـادِيًا ... يَـلُـوحُ كما لاحَ الصّقِيلُ المُهَنَّدُ
وأنـــذرنـــا نـــارًا، وبـشـرَ جـنـةً ... وعلّمنا الإســلامَ، فـالـلَّـهَ نحمدُ

كما اشتهر كعب بن زهير بلاميته «بانت سعاد» الّتي أعلن فيها إسلامه، وطلب فيها رضا الرّسولﷺ وعفوه، فعفا عنه الرّسولﷺ وأهداهُ بردتَهُ، فما زالَتْ في أهلِهِ حتّى اشتراها مُعاويةُ منهم، وتوارثَها الخلفاءُ الأمويّون فالعبّاسيّون حتّى آلَتْ معَ الخلافةِ إلى بَني عُثمانَ.
يقول كعب بن زهير:

وَقـالَ كُـلُّ خَليلٍ كُـنْـتُ آمُـلُـهُ ... لا أُلْهِيَنَّكَ إنّي عَنكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمُ ... فَكُلُّ مَا قَـدَّرَ الرَحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ ... يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَهِ أَوْعَدَنِي ... وَالعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ ... قُـرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذَنّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ ... أُذْنِبْ وإنْ كَثُرَتْ فِيّ الْأَقَاوِيلُ

أمّا في العصر الأمويّ فقد عادتْ بعضُ أغراضِ الشِّعرِ الّتي نهى عنها الرّسولُﷺ -كالنقائضِ- وهيَ قصيدةٌ «يردُّ بها شاعرٌ على قصيدةٍ لخصمٍ له فينقضُ معانيها عليه، يقلبُ فَخْرَ خصمِهِ هجاءً، وينسبُ الفخرَ الصّحيحَ إلى نفسِهِ هوَ. وتكونُ النقيضةُ عادةً منْ بَحْرِ قصيدةِ الخصمِ، وعلى رَويّها»، وقد ارتبطتْ هذهِ النقائضُ بالصّراعاتِ السّياسيّةِ بينَ الأحزابِ المُتنازعةِ على الخلافةِ ومُناصريها، فكانتْ وقودَ العصبيّاتِ، ولسانَ هذهِ الأحزابِ، يفتخرُ الشّاعرُ فيها بنفسهِ وبقومهِ وبفضائلِهم، كالكرمِ والشّجاعةِ والوفاءِ بالعهدِ، والانتصارِ في الحروبِ الّتي خاضوها، والدّفاعِ عنِ العِرْضِ، ثُمَّ ينقّبُ عنْ مثالبِ خصمهِ وقومهِ منْ بُخْلٍ وجُبْنٍ وفسقٍ وبَغْيٍ وطُغيانٍ، ومنْ أشهرِ شعراءِ هذا الفنِّ جريرٌ، والأخطلُ، والفرزدقُ،

وقد وقف كل من الأخطل والفرزدق وغيرهم ضد جرير لكن جرير تمكن من التصدي لهم وإكمام أفواه بعضهم.

يقول الفرزدق في جريرٍ وفي والده عطية البائس الهاجع في حظائر الأغنام، كما يصفه:

قال ابنُ صَانِعَةِ الزُّرُوبِ لقَوْمِهِ: لا أَسْتَطِيعُ رَوَاسِيَ الأعْلامِ
وَوَجدْتَ قَوْمَكَ فَقَّأُوا من لؤمِهِمْ عَيْنَيْكَ، عِنْدَ مَكَارِمِ الأقْوَامِ
صَغُرَتْ دِلاؤهُمُ، فَما ملأوا بهَا حَوْضًا، ولا شَهِدوا عِرَاكَ زِحَامِ
وَحَسِبْتَ بَحرَ بني كُلَيبٍ مُصْدِرًا فغَرِقْتَ حِينَ وقَعْتَ في القَمْقامِ
في حَوْمَةٍ غَمَرَتْ أباكَ بُحُورُها في الجَاهلِيّةِ كَانَ، والإسْلامِ
إني وَجَدْتُ أبي بَنى لي بَيْتَهُ في دَوْحَةِ الرّؤسَاءِ وَالحُكّامِ
وأبي ابنُ صَعْصَعَةَ بن لَيْلى غالِبٌ غَلَبَ المُلُوكَ، وَرَهْطُهُ أعْمامي
وَتَرَى عَطِيّةَ ضَارِبًا بِفِنَائِهِ رِبْقَينِ بَينَ حَظَائِرِ الأغْنَامِ

فيردّ جرير ناقضًا قصيدة الفرزدق بأخرى:

خلقَ الفرزدقُ سوءةً في مالكٍ ولخلفِ ضبّةَ كان شرَّ غلامِ
مَهْلًا فَرَزْدَقُ! إنّ قَوْمَكَ فيهمُ خورُ القلوبِ وخفّةُ الأحلامِ
كانَ العنانُ على أبيكَ محرّمًا والكيرُ كانَ عليهِ غيرَ حرامِ
عَمْدًا أُعَرِّفُ بالهَوَانِ مُجَاشِعًا إنَّ اللئامَ عليَّ غيرُ كرامِ
ما زِلْتَ تَسْعَى في خَبالِكَ سادِرًا حَتى التَبَسْتَ بِعُرّتي وَعُرَامي

بالإضافةِ إلى النّقائضِ، ازدهرَ الغزلُ في العصرِ الأمويِّ بعدَ أنْ هُذِّبَ في عصرِ صدرِ الإسلامِ الأوّلِ، وبعدَ أنْ كانَ تشبيبًا بالدّيار، وبُكاءً على الأطلالِ، أصبحَ فنًّا مستقلاً بذاتهِ، يُصوّرُ مشاعرَ الحُبِّ الّتي سكبَها المجتمعُ الجديدُ في نفوسِ الشّعراءِ. فبعدَ أنْ تحضرّتْ مَكّةُ والمدينةُ، وغرِقَتا في البَذْخِ والتّرفِ نتيجةِ الفُتوحاتِ الإسلاميّةِ، وجلبِ الرّقيقِ الأجنبيِّ، وتعليمهِ الغناءَ والموسيقى، رقيت الأذواق، فَلانَ الغَزَلُ، ورَقَّ.

وانقسمَ الغَزَلُ إلى: غَزَلٍ عُذريٍّ، وغَزَلٍ صريحٍ. والغَزَلُ العُذريُّ نِسْبةً إلى رائدهِ جميلِ بنِ مَعمر العُذري (مجنون بثينة)، وهوَ غَزَلٌ عفيفٌ طاهرٌ نقيٌّ، من روادهِ: قيس بن الملوح (مجنون ليلى)، وقيس بن ذريح (مجنون لبنى)، وكُثَيِّر عزة (مجنون عزّة)، وذو الرمة (مجنون ميّة)، وعروة بن حزام (مجنون عفراء)، وتوبة بن الحميّر (مجنون ليلى الأخيلية). فالشاعر العذري يقصر حبه وشعره على معشوقة واحدة، يرى فيها سعادته وشقاءه، لا يني يتغنى بها مُتذلّلًا مُتضرّعًا يصوّرُ فيها كَلَفَهُ وعَذابهُ وحُبّهُ الّذي لا يتغير مع مرور الزمن. يقول جميل في بثينة:

لا تحسبي أني هجرتُكِ طائعًا ... حَدَثٌ، لَعَمْرُكِ، رائعٌ أَنْ تُهجري
ولتبكينّي الباكياتُ، وإنْ أَبُحْ ... يومًا، بسرِّكِ مُعلنًا، لم أُعذَر
يهواكِ -ما عشتُ- الفؤادُ، فإن أمُتْ ... يتبعْ صدايَ صداكِ بين الأقبرِ
إني إليكِ، بما وعدتِ، لناظرٌ ... نظرَ الفقيرِ إلى الغنيِّ المكثرِ

ويقول قيس بن ذريح في لبنى:

وإنّي لأهوى النَّوْمَ في غَيْرِ حِينِهِ ... لَعَلَّ لِقَاءً في المَنَامِ يَكُونُ
تُحَدِّثُني الأحلامُ أنِّي أراكُمُ ... فيا لَيْتَ أحْلاَمَ المَنَامِ يَقِينُ
وأنَّ فؤادي لا يلين إلى هوًى ... سواكِ، وإنْ قالوا بَلى سيلينُ

ومن رواد الغزلِ الصّريحِ (الإباحيِّ الحسيِّ) عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، والعرجيّ، ولا يلتزم فيه الشّاعر بحب امرأة واحدة، بل يتّبع الجمال أينما كان، فيتغزل بأكثر من امرأة، ويصف مفاتنها ومغامراته معها، وقد يصف مجموعة من النساء. وقد رُوِي أن عمر بن ربيعة كان يتعرض للحواجّ، فيشبب بالحرائر الجميلات، ويصفهن طائفات محرمات، فزهدت الأسر في أداء الفريضة خشية منه، مما جعل الخليفة عمر بن عبد العزيز ينفيه إلى (دهْلك) إحدى جزر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة، ولم يعد إلا بعد أن أقسم أن يتوب. يقول في إحدى قصائده:

يقصدُ النّاسُ للطّوافِ احتسابًا وذنوبي مجموعةٌ في الطّوافِ

وفي قصيدة اشتُهرت له يصور انشغال ثلاث أخوات به، فيقول:

بَينَما يَـذكُـرنَـني أَبصَرنَني دونَ قَيدِ المَيلِ يَعدو بي الأَغَر
قـالَـتِ الكُبرى أَتَـعـرِفـنَ الفَتى قالَتِ الوُسطى نَعَم هَـذا عُمَر
قالَتِ الصُغرى وَقَد تَـــيَّمتُها قَد عَرَفناهُ، وَهَـل يَخفى القَمَر

فهو يُجري على لسان محبوباته قصصًا يبتكرها، فتغلب لغة الحوار القصصي على قصائده.

قال مالكُ بنُ الرَّيبِ التَّميميُّ

أَلا لَيْتَ شِعْري هَلْ أَبيْتَنَّ لَيْلَةً ... بِجَنْبِ الغَضى أُزْجي القِلاصَ النَّواجيا

فَلَيْتَ الغَضى لَمْ يَقْطَعِ الرَّكْبُ عَرْضَهُ ... وَلَيْتَ الغَضى ماشى الرِّكابَ لَياليا

لَقَدْ كانَ فيْ أَهْلِ الغَضى لَوْ دَنا الغَضى ... مَزارٌ وَلَكِنَّ الغَضى لَيسَ دانيا

أَلَمْ تَرَني بِعْتُ الضَّلالَةَ بِالهُدى ... وَأَصْبَحْتُ فيْ جَيْشِ ابْنِ عَفّانَ غازيا

لَعَمْري لَئِنْ غالَتْ خُراسانُ هامَتي ... لَقَدْ كُنْتُ عَنْ بابَي خُراسانَ نائيا

فَإِنْ أَنْجُ مِنْ بابَي خُراسانَ لا أَعُدْ ... إِلَيْها، وَإِنْ مَنَّيْتُمُوني الأَمانيا

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ ... سِوى السَّيفِ والرُّمْحِ الرُّدَينيِّ باكيا

وَلَمّا تَراءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنيَّتي ... وَحَلَّ بِها جِسْميْ وَحانَتْ وَفاتيا

أَقُولُ لِأَصْحابيْ ارْفَعُوْني فَإِنَّني ... يَقِرُّ بِعَيْني أَنْ سُهَيْلٌ بَدا ليا

فَيا صاحِبَيْ رَحْلي دَنا المَوتُ فانْزِلا ... بِرابِيَةٍ إِنّي مُقيمٌ لَياليا

أَقيْما عَلَيَّ اليَومَ أَوْ بَعْضَ لَيلَةٍ ... وَلا تُعْجِلاني قَدْ تَبَيَّنَ مابيا

وَقوما إِذا ما اسْتُلَّ رُوحي فَهَيِّئا ... لِيَ القَبْرَ والأَكْفانَ ثُمَّ ابْكيا ليا

وَخُطّا بِأَطْرافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعي ... وَرُدّا عَلى عَينَيَّ فَضْلَ رِدائيا

وَلا تَحْسُداني بارَكَ اللّهُ فيكُما ... مِنَ الأَرْضِ ذاتِ العَرْضِ أَنْ تُوسِعا ليا

خُذاني فَجُرّاني بِبُرْدي إِلَيْكُما ... فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَومِ صَعْبًا قياديا

يَقُولُونَ لا تُبْعِدْ وَهُمْ يَدْفِنُوْنَني ... وَأَيْنَ مَكانُ البُعْدِ إِلّا مَكانيا

فَيا راكِبًا إِمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... بَني مالِكٍ والرَّيبِ: أَنْ لا تَلاقيا

وَبَلِّغْ أَخي عِمْرانَ بُرْدي وَمِئْزَري ... وَبَلِّغْ عَجُوزَ اليَومِ أَنْ لا تَدانيا

وَسَلِّمْ عَلى شَيْخَيَّ مِنّي كِلَيهِما ... وَبَلِّغْ كَثيرًا وابْنَ عَمّي وَخاليا

وَعَطِّلْ قَلُوصي في الرِّكابِ فَإِنَّها ... سَتُفْلِقُ أَكْبادًا وَتُبْكي بَواكيا

قال عبدالله بن الدُمَيْنة

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد؟ لقد زادني مسراك وجدا على وجد

أَإِنْ هتفت ورقاء في رونق الضحى على فنن غضّ النبات من الرند

بكيت كما يبكي الوليد ولم أَزَلْ جليدًا، وأبديت الذي لم تكن تبدي

وقد زعموا أنّ المحبّ إذا دنا يملّ، وأنّ النأي يشفي من الوجد

بكلّ تداوينا، فلم يشف ما بنا على أنّ قرب الدار خير من البعد

على أنّ قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

قال كُثَيّر عزّة

وما كُنتُ أدري قبلَ عزّةَ ما البُكا ... ولا موجِعاتُ القلبِ حتى تولَّتِ

وكانت لقَطْعِ الحبِّ بيني وبيْنَها ... كـنـاذِرَةٍ نـذرًا فـأوْفَـتْ وحلَّتِ

فقُلتُ لها: يا عَـزُّ، كُـلُّ مُصيبَةٍ ... إذا وُطِّنَتْ -يومًا- لها النفسُ ذَلَّتِ

كَأنِّي أُنادي صخرَةً حين أعرضَتْ ... من الصُّمِّ لو تمشي بها العُصْمُ زلَّتِ

فما أنْصَفَتْ، أمَّا النساءُ فبَغَّضَتْ ... إلـيّ، وأمّـا بـالـنـوالِ فضَنَّتِ

أسيئي بنا أو أحْسِني، لا ملومةٌ ... لـديـنـا، ولا مَـقـلِـيّـةٌ إن تقَلَّتِ

فما أنا بالدّاعي لعزّةَ بالجوى ... ولا شامِتٍ إن نعلُ عـزّةَ زلَّتِ

فلا يحسبِ الواشونَ أنّ صَبابتي ... بـعـزّةَ كـانـت غـمْـرَةً فتجَلَّتِ

فـوالـلّـهِ ثـمّ الـلّـهِ مـا حـلّ قبلَها ... ولا بعدَها من خُلّةٍ حيث حلَّتِ

وإنّـــي وتَـهـيـامـي بـعـزّةَ بعدما ... تـخَـلَّـيْـتُ مـمّـا بيننا وتخلّتِ

لَكَالمُرتَجي ظِلَّ الغمامةِ، كلَّما ... تـبـوّأَ منها للمقيل اضْمَحَلَّتِ

فإنْ سألَ الواشونَ: فيمَ هجرْتَها؟ ... فقُلْ: نفسُ حُرٍّ سُلّيَتْ فتسَلَّتِ

الشِّعر في العصرِ العبّاسي

يبدأ العصر العباسي بسقوط الدولة الأموية في الشام سنة 132 هـ/ 749 م، وقيام دولة بني العباس في الكوفة (العراق)، وينتهي سياسيًا بسقوط بغداد في يد (هولاكو) التتري سنة 656 هـ/ 1258 م. [1]

ويعد عصر الدولة العباسية عصر الإسلام الذهبي الّذي بلغت فيه الدولة الإسلامية أوج ازدهارها الفكري، فنُقلت العلوم الأجنبية، وتنوعت الآداب العربية وتطورت. وخلافًا للدولة الأموية الّتي كانت عربية خالصة متعصبة للعرب لغةً وأدبًا، قاعدتها دمشق على حدود بادية العرب، اصطبغت الدولة العباسية بصبغة فارسية؛ لأن الفُرْسَ هُم الذين أيدوها، فجعلت قاعدتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم. فتأثر العرب بعادات الفرس وتقاليدهم ولغتهم، وتمازجوا معهم بالتزاوج والتناسل، وأشرك الخلفاء الموالي (المسلمين من غير العرب) في سياسة الدولة من فُرْسٍ وأتراك وسريان وروم وبربر فضعفت العصبية، وتعددت الفِرَقُ، وتكاثر الجواري والغلمان، والتأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والتشييد، كل هذا كان له أثر بيّن في اللغة العربية وآدابها.

وكثر التّعرّب (التشبّه بالعرب) بين الموالي، وبلغ من إعجابهم بالعرب أنهم كانوا يلفقون لأنفسهم أنسابًا عربية، فأبو تمام الرومي أصبح حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس... وأصبح الشعراء المسلمون من الفرس والترك والروم ينظمون الشعر بالعربية وفي المقابل تطبع العرب بطباع غير عربية فانغمسوا في الترف والبذخ ومساوئ المدنية كاللّهو. كما كان للمدنية محاسن أيضًا من استبحار في العلم واتساع للعمران وانفتاح على ثقافات أخرى.

ونتيجة اتساع رقعة الخلافة الجغرافية والاحتكاك بثقافات أخرى عُرّبت الكثير من الكلمات الأجنبية التي لم يجد العرب لها في لغتهم ألفاظًا تؤديها فأصبحت «أنذزاه» الفارسية «هندسة» و «كليما» اليونانية «إقليم» وأوجدت ألفاظ عربية لكلمات نحو «أباذميا» و «اسطقس» و«أسطرونوميا» هي «الوباء، والعنصر، والهيئة أو الفلك». وبقيت الكثير من

1) – راجع أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط 8 (بيروت: دار المعرفة، 2004)
– راجع عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي: العصور العباسية حتى القرن الرابع هجري، ط 4 (بيروت)، دار العلم للملايين، (1981)

الكلمات على لفظها الأجنبي مثل «قانون» و «استرلاب» و «كاغد» و «جغرافية» و «موسيقى»، وتسمى ألفاظًا دخيلة لأن العجمة ظلت ظاهرة عليها.

وسمّي الشعر العباسي شعرًا مُوَلَّدًا لأن أكثر الشعراء مولّدين (من أَبَوَيْن أحدهما عربي والآخر غير عربي) ولأن الشعر لم يكن عربيًا خالصًا في معانيه وأسلوبه كما سمّي شعرًا مُحْدَثًا لأن الشعراء كانوا جُددًا أو متأخرين.

تأثر الشعر بالحياة الحضرية الجديدة مبنًى ومعنًى وغرضًا ووزنًا. فعلى مستوى المبنى، هُجِرت الكلمات الغريبة فأصبحت التراكيب واضحة سهلة، وكثر استخدام البديع وتُرك الابتداء بذكر الأطلال إلى وصف القصور والرياض والخمور والغزل والإغراق في المدح والهجاء. يقول البحتري واصفًا قصر الخليفة المتوكل:

وكأنّ حيطان الزجاج بجوّه	لُججٌ يمجن على جنوب سواحل
فتَرَى العُيُونَ يَجُلنَ في ذي رَوْنَقٍ	مُتَلَهِّبِ العَالي أنِيقِ السّافِلِ
لبست من الذهب الصقيل سقوفُهُ	نورًا يضيء على الظلام الحافل

أمّا على مستوى المعنى، فقد تولدت المعاني الحضرية، واقتبست الأفكار الفلسفية؛ إذ أكْثَر شعراء هذا العصر من المُوَلَّدين، وهذا يعلّل وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار بن برد وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي. وكان لنقل العرب علوم اليونان وغيرهم تأثير في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء المعري وغيرهم بما دخله من آراء علمية وأفكار فلسفية وسياسية.

أمّا أغراض الشِّعر فقد بقيت، واستمرت؛ فالفخر والمديح والغزل والرثاء والحكمة والوصف والزهد أغراضٌ قديمةٌ منذ العصر الجاهلي، إلا أن الفخر القبلي القديم تضاءل، وَحَلَّ محله الفخر بالنفس.

يقول أبو الطيب المتنبي:

لا بقومي شرَفتُ بلْ شرَفوا بي	وبنفسي فخَرْتُ لا بجدودي
وبهمْ فَخْرُ كلّ مَنْ نَطَقَ الضّا	دَ وَعَوْذُ الجاني وَغَوْثُ الطّرِيدِ

إنْ أكُنْ مُعجَبًا فعُجبُ عَجيبٍ ... لـمْ يَجدْ فَـوقَ نَفْسِهِ من مَزيدِ
أنَا تِـرْبُ النّدَى وَرَبُّ القَوَافي ... وَسِمَامُ العِدَى وغَيظُ الحَسودِ
أنَـا فـي أُمّـةٍ تَـدارَكَـهَـا اللّـهُ ... غَـريـبٌ كـصَـالِـحٍ فـي ثَـمـودِ

كمـا انتشـرت فـي المديـح معانـي الشـجاعة والكـرم وشـرف الأصـل، وأضيفـت إليـه المقـدرة فـي لعـب الشـطرنج مثـلًا، كمـا نـرى ذلـك عنـد ابـن الرومـي عندمـا يخاطـب صاحبـه أبـا القاسـم التـوزيّ الشـطرنجي الـذي نبـغ فـي لعـب الشـطرنج:

وَأَرَى أَنَّ رُقْعَةَ الْأَدَمِ الْأَحـْ ... مَـرِ أَرْضٌ عَـلَـلْـتـهَـا بِـدِمَـاءِ
غَلِطَ النَّاسُ لَسْتَ تَلْعَبَ بِالشِّطْـ ... ـرَنْـجِ لَـكِـنْ بَـأَنْـفَـسِ اللُّعَبَاءِ
أَنْـتَ جديهَا وَغَـيْـرُكَ مَـنْ يَلْـ ... عَـبُ إِنَّ الـرِّجَـالَ غَـيْرَ النِّسَاءِ
لَكَ مَكْرٌ يَدِبُّ فِي الْقَوْمِ أَخْفَى ... مِنْ دَبِيبِ الْغِذَاءِ فِي الْأَعْضَاءِ
أَوْ دَبِيبِ الْمَلَالِ فِي مُسْتَهَامِيـ ... نَ إِلَـى غَـايَـةٍ مِـنَ الْـبَـغْـضَـاءِ

ورقّ الاعتـذار، واتّسـع فيـه العتـاب الرقيـق الـذي نـراه عنـد البحتـرى فـي عتابـه للوزيـر الفتـح بـن خاقـان:

فَـدَيْـنـاكَ مِـن أيّ خَـطْـبٍ عَـرَا ... وَنَـائِـبَـةٍ أوْشَـكَـتْ أنْ تَـنُـوبَـا
وإنْ كَـانَ رَأيُـكَ قَـد حَـالَ فيّ ... فَـلَـقّـيـتَـنـي بَـعـدَ بِـشْـرِ قُـطُـوبـا
أُكَـــذّبُ ظَـنّـي بـأنْ قـدْ سَخِطْ ... تَ، وَمَا كنتُ أعهَدُ ظَنّي كَذُوبا
وَلَـوْ لم تكُنْ ساخِطًا لـمْ أكُـنْ ... أذُمُّ الـزّمـانَ، وأشكُو الخُطُوبا

وكثـر الزهـد والحكمـة، وأصبحـا فنّيـن يعالجهمـا مجموعـة مـن الشّـعراء فـي قصائـد أو مُقَطّعـات. يقـول أبـو العتاهيـة:

يا أيُّهـا الـحَـيُّ الَّـذي هُـوَ مَيِّتٌ ... أَفنَيتُ عُمرَكَ بِالتَعَلُّلِ وَالمُنى

أَمّا المَشيبُ فَقَد كَساكَ رِداؤُهُ وَابتَزَّ عَن كَفَّيكَ أَثوابَ الصِّبا
خالِفْ هَواكَ إِذا دَعاكَ لِرَيبَةٍ فَلَرُبَّ خَيرٍ في مُخالَفَةِ الهَوى
عَلَمُ المَحَجَّةِ بَيِّنٌ لِمُريدِهِ وَأَرى القُلوبَ عَنِ المَحَجَّةِ في عَمى
وَلَقَد عَجِبتُ لِهالِكٍ وَنجاتُهُ مَوجودَةٌ وَلَقَد عَجِبتُ لِمَن نَجا

وأصبح الطَّرْدُ (وصف الصيد) بابًا مستقلًا بذاته، ولم يقتصر على الصيد فقط، بل تناول كل ما يتعلق بالحيوان، حتّى وصف «قتال الدِيَكة»، يقول أبو نواس واصفًا كلب صيد له اسمه (سرياح):

ما البَرقُ في ذي عارِضٍ لَمّاحِ وَلا اِنقِضاضُ الكَوكَبِ المُتضاحِ
وَلا اِنبِتاتُ الدلو بالمتّاح ولا انسيابُ الحَوأَبِ المُنداحِ
حينَ دَنا مِن راحَةِ المِشاحِ أَجَدُّ في السُرعَةِ مِن سِرياحِ
يَكادُ عِندَ ثَمَلِ المِراحِ يَطيرُ في الجَوِّ بِلا جِناحِ
إِذا سَما الخايِلُ لِلأَشباحِ يَفتَرُّ عَن مِثلِ شَبا الرِماحِ

وأمّا على مستوى الوزن، فقد ابتدعت أوزان أخرى، كالمستطيل والممتد، وهما عكس الطويل والمديد، والموشّح والزّجل، والدوبيت والمواليا، ونُظمت المُقطّعات (أبيات معدودة في أغراض محدودة).

ولما انفرط عقد الخلافة، وكثرت الدويلات العربية وغير العربية، باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب، وجد الشِّعر في غير بغداد تشجيعًا، فازداد ابتكارًا وانتشارًا، فالأمراء مثل الخلفاء يُقَرِّبون الشّعراء، ويعضدونهم.

وما إن انتهى القرن الخامس للهجرة حتّى ذهب جمال الشعر، وفقد تأثيره في النفوس لذهاب المعضدين له من البويهيين والسلاجقة وكثرة الفتن والصراعات، فغاب التوليد والإبداع، وكثر تقليد معاني الأقدمين واستخدام المحسنات البديعية والمبالغة في المدح للتكسب واستدرارًا للأكف حتى قيل: «أعذب الشعر أكذبه».

أَراكَ عَصيَّ الدَّمْعِ

أَبو فِراسٍ الحَمْدانيُّ

أَراكَ[1] عَصيَّ الدَّمْعِ شيمَتُكَ الصَّبْرُ
أَما لِلهَوى نَهْيٌ عليكَ وَلا أَمْرُ؟

بَلى، أنا مُشتاقٌ، وَعِنْدِيَ لَوعَةٌ
وَلكِنَّ مِثْلي لا يُذاعُ لَهُ سِرُّ!

إذا اللَّيلُ أَضْواني بَسَطْتُ يَدَ الهَوى
وَأَذْلَلْتُ دَمْعًا مِنْ خَلائِقِهُ الكِبْرُ[2]

تَكادُ تُضيءُ النّارُ بينَ جَوانِحي
إذا هيَ أَذْكَتْها الصَّبابَة ُوالفِكْرُ

مُعَلِّلَتي[3] بالوَصْلِ، والمَوْتُ دونَهُ[4]،
إذا مِتُّ ظَمْآنًا فَلا نَزَلَ القَطْرُ!

حَفِظْتُ وَضَيَّعْتِ المَوَدَّةَ بَيْنَنا
وَأَحْسَنُ، مِنْ بَعْضِ الوفاءِ لكِ، العُذْرُ

وَما هذهِ الأيّامُ إلّا صَحائفٌ
لِأَحْرُفِها، مِنْ كَفِّ كاتِبِها بِشْرُ

بِنَفْسي مِنَ الغادينَ في الحَيِّ غادَةٌ
هَوايَ لها ذَنْبٌ، وَبَهْجَتُها عُذْرُ

وَفَيْتُ، وَفي بَعْضِ الوَفاءِ مَذَلَّةٌ
لِآنِسَةٍ في الحَيِّ شيمَتُها[5] الغَدْرُ

تُسائِلُني: «مَنْ أَنْتَ؟»، وَهْيَ عَليمَةٌ،
وَهَلْ بِفَتًى مِثْلي عَلى حالِهِ نُكْرُ؟

فَقُلْتُ، كما شاءَتْ، وَشاءَ لها الهَوى:
«قَتيلُكِ»! قالَتْ: «أَيُّهُمْ؟ فَهُمُ كُثْرُ»

فَقُلْتُ لها: «لَوْ شِئْتِ لَمْ تَتَعَنَّتي،
وَلَمْ تَسْأَلي عَنّي وَعِنْدَكِ بي خُبْرُ»

فَقالَتْ: «لَقَدْ أَزْرى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنا»
فَقُلْتُ: «مَعاذَ اللّهِ! بَلْ أَنْتِ لا الدَّهْرُ»

1) ما معنى أراكَ هنا؟ هلْ هيَ رُؤيةُ العَينِ؟ أَمْ رُؤيةُ القلْبِ بمعنى أَظنُّكَ؟

2) بِمَ وَصَفَ الشّاعرُ دَمْعَهُ؟ هلْ تَقَعُ الصِّفَةُ جُملةً؟

3) ما نوعُ المشتقِّ "مُعلِّلتي"؟ وكيفَ يُؤثِّرُ هذا على المعنى؟

4) الهاءُ في "دونَهُ" تعودُ على ماذا؟

5) بِمَ وَصَفَ الآنسةَ؟ ما نوعُ الصِّفةِ؟

قال المتنبّي

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا ... وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا

تَمَنّيْتَهَا لمّا تَمَنّيْتَ أنْ تَرَى ... صَديقًا فأعْيَا أوْ عَدُوًا مُداجِيَا

إذا كنتَ تَرْضَى أنْ تَعيشَ بذِلّةٍ ... فَلا تَسْتَعِدّنّ الحُسامَ اليَمَانِيَا

وَلا تَستَطيلَنّ الرّماحَ لِغَارَةٍ ... ولا تَستَجيدَنّ العِتاقَ المَذاكِيَا

فما يَنفَعُ الأُسْدَ الحَياءُ من الطَّوَى ... وَلا تُتّقَى حتى تكونَ ضَوَارِيَا

حَبَبْتُكَ، قَلْبي، قَبلَ حُبّكَ من نأى ... وَقد كانَ غَدّارًا فكُنْ أنتَ وَافِيَا

وَأعْلَمُ أنّ البَينَ يُشكيكَ بَعْدَهُ ... فلَسْتَ فُؤادي إنْ رَأيْتُكَ شَاكِيَا

فإنّ دُمُوعَ العَينِ غُدْرٌ بِرَبّهَا ... إذا كُنّ إثْرَ الغَادِرِين جَوَارِيَا

إذاالجُودُلمْيُرْزَقْخَلاصًامنالأذَى ... فَلا الحَمدُ مكسوبًا وَلا المالُ باقِيَا

وَللنّفْسِ أخْلاقٌ تَدُلّ على الفَتى ... أكَانَ سَخاءً ما أتَى أمْ تَسَاخِيَا

أقِلَّ اشتِياقًا أيّهَا القَلْبُ رُبّمَا ... رَأيْتُكَ تُصْفي الوُدّ من ليسَ صافيَا

خُلِقْتُ أَلُوفًا لَوْ رَجعتُ إلى الصّبَى ... لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا

قال صالح بن عبدالقُدّوس

ذهــبَ الـشـبـابُ فـمـا لـه مـنْ عـودة ... وأتَـى المشيبُ فـأيـنَ منـهُ المَهربُ

دَعْ عنكَ ما قد كـانَ في زمـنِ الصِّبا ... واذكُـر ذنـوبَـكَ وابِـكـهـا يـا مُذنـبُ

واذكــرْ مـنـاقـشـةَ الـحـسـابِ فـإنـه ... لابَــدَّ يُـحـصـي مـا جـنـيـتَ ويَـكـتُـبُ

لـم ينسَـهُ الـمـلَـكـانِ حـيـنَ نسيتَهُ ... بــل أثـبـتــاهُ وأنــتَ لاهٍ تلعبُ

والــرُّوحُ فـيـكَ وديـعــةٌ أودعـتَـهـا ... سـتَـردُّهـا بـالـرغـمِ مـنـكَ وتُـسـلَـبُ

وغــرورُ دنـيــاكَ الـتـي تـسـعـى لها ... دارٌ حـقـيـقـتُـهـا مـتــاعٌ يـذهــبُ

والـلـيـلُ فاعلـمْ والـنـهــارُ كلاهما ... أنـفـاسُـنــا فـيـهـا تُـعــدُّ وتُـحـسـبُ

وجـمـيـعُ مــا خـلَّـفـتَــهُ وجـمـعـتَــهُ ... حـقًـا يَـقـيـنًـا بـعــدَ مـوتِــكَ يُـنـهـبُ

تَـبًّــا لــــدارٍ لا يــــدومُ نعيمُها ... ومَـشـيـدُهـا عـمّـا قـلـيـلٍ يَـخـربُ

فـاسـمـعْ هُـديــتَ نصيحةً أولاكَـهـا ... بَــرٌّ نَـصــوحٌ لـلأنــامِ مُـجــرِّبُ

صَـحِـبَ الـزَّمـانَ وأهـلَـه مُستبصرًا ... ورأى الأمـورَ بما تـؤوبُ وتَـعـقُـبُ

لا تـأمَـنِ الـدَّهــرَ الـخـؤونَ فإنــهُ ... مـا زالَ قِـدْمـًا لـلـرِّجـالِ يُـؤدِّبُ

وعــواقِــبُ الأيــامِ فـي غَـصَّـاتِـهـا ... مَـضَـضٌ يُــذَلُّ لـهُ الأعــزُّ الأنْـجَـبْ

فعليكَ تـقـوى الـلّـهِ فالزمْها تفزْ ... إنّ الـتَّـقــيَّ هــوَ الـبَـهــيُّ الأهـيَــبُ

واعـمـلْ بطاعتِهِ تـنـلْ منهُ الرِّضا ... إن الـمـطـيــعَ لــهُ لـديــهِ مُـقــرَّبُ

واقـنـعْ ففي بـعـضِ الـقـنـاعـةِ راحـةٌ ... والـيـأسُ مـمّـا فـاتَ فـهـوَ المَطْلبُ

فـإذا طَـمِـعـتَ كُـسـيـتَ ثـوبَ مـذلَّـةٍ ... فلقدْ كُـسـيَ ثـوبَ الـمَـذلَّـةِ أشعبُ

وابــدأْ عَــدوَّكَ بالتحيّةِ ولتَكُنْ ... مـنــهُ زمـانَــكَ خـائـفـًا تـتـرقَّــبُ

واحــــذرهُ إن لاقـيـتَــهُ مُـتَـبَـسِّـمـًا ... فـالـلـيـثُ يـبـدو نـابُــهُ إذْ يغْضَبُ

إنَّ الـعـدوُّ وإنْ تـقـادَمَ عـهـدُهُ ... فالحقدُ بـاقٍ فـي الـصُّـدورِ مُغَيَّبُ

وإذا الـصَّـديـقُ لقيتَـهُ مُتملِّقا ... فـهـوَ الـعـدوُّ وحـقُّـهُ يُتجنَّبُ

لا خيرَ فـي ودِّ امـريءٍ مُتملِّقٍ ... حُـلـوِ الـلـسـانِ وقلبـهُ يتلهَّبُ

يـلـقـاكَ يحلفُ أنـه بـكَ واثـقٌ ... وإذا تـوارَى عـنكَ فـهوَ الـعقرَبُ

يُعطيكَ من طَرَفِ اللِّسانِ حلاوةً ... ويَـروغُ منكَ كما يـروغُ الثّعلبُ

وَصِـلِ الـكـرامَ وإنْ رمـوكَ بجفوةٍ ... فالصفحُ عنهمْ بالتَّجاوزِ أصـوَبُ

واختـرْ قـرينَكَ واصطنعهُ تفاخرًا ... إنَّ الـقـريـنَ إلـى الـمُـقـارنِ يُنسبُ

واخـفـضْ جناحَكَ لـلأقـاربِ كُلِّهـمْ ... بـتـذلُّـلٍ واسـمـحْ لـهـمْ إن أذنـبـوا

ودعِ الـكَـذوبَ فلا يكُنْ لـكَ صاحبًا ... إنَّ الـكـذوبَ يشينُ حُـرًا يَصحبُ

وزنِ الـكـلامَ إذا نطقتَ ولا تكنْ ... ثـرثـارةً فـي كـلِّ نـادٍ تخطُبُ

واحـفـظْ لسانَكَ واحـتـرزْ من لفظِهِ ... فـالـمرءُ يَسلَـمُ بـاللسانِ ويُعطَبُ

والـسِّـرُّ فـاكـتـمهُ ولا تـنـطُـقْ بـهِ ... إنَّ الـزجـاجـةَ كـسرُهـا لا يُـشعَبُ

وكـذاكَ سـرُّ الـمـرءِ إنْ لـمْ يُطوه ... نـشـرتْـهُ ألسنـةٌ تـزيـدُ وتـكـذِبُ

لاتحرِصَنْ فالحِرصُ ليسَ بزائدٍ في الرِّزق ... بـل يـشـقـى الـحـريـصُ ويـتـعـبُ

ويـظـلُّ مـلـهـوفـًا يـرومُ تـحـيّـلًا ... والـرِّزقُ لـيـسَ بحيلةٍ يُستجلَبُ

كـم عـاجـزٍ فـي الـنـاسِ يـأتي رزقُـهُ ... رغَـدًا ويُـحـرَمُ كَـيِّـسٌ ويُـخيَّـبُ

وارعَ الأمـانـةَ والـخـيـانـةَ فاجتنبْ ... واعـدِلْ ولاتظلمْ يَطبْ لـكَ مكسبُ

وإذا أصـابـكَ نـكبـةٌ فـاصبـرْ لها ... مـن ذا رأيـتَ مسلَّمًا لا يُـنْـكـبُ

وإذا رُمـيـتَ مـن الـزمـانِ بريبـةٍ ... أو نـالـكَ الأمـرُ الأشـقُّ الأصعـبُ

فـاضـرعْ لـربّـك إنـه أدنـى لـمـنْ ... يـدعـوهُ مـن حبلِ الـوريـدِ وأقـربُ

كُـنْ ما استطعتَ عن الأنـامِ بمعزِلٍ ... إنَّ الكثيرَ مـن الـوَرَى لا يُصحبُ

واحـذرْ مُـصـاحـبـةَ الـلئيـم فـإنّـهُ ... يُعدي كما يُعدي الصحيحَ الأجربُ

واحـذرْ مـن المظلومِ سَهمًا صائبًا ... واعلـمْ بـأنَّ دعـاءَهُ لا يُحجَبُ
وإذا رأيـتَ الـرِّزقَ عَـزَّ ببلـدةٍ ... وخشيتَ فيها أن يضيقَ المذهبُ
فارحلْ فأرضُ اللّهِ واسعةَ الفَضَا ... طولًا وعَرضًا شرقُها والمغرِبُ
فلقدْ نصحتُكَ إنْ قبلتَ نصيحتي ... فالنُّصحُ أغلى ما يُباعُ ويُوهَبُ

الشّعرُ العربيُّ الحديثُ

الأدب العربي الحديث[1] هو الأدب الّذي ظهر تاريخيًّا فيما يُطْلَقُ عليه العصر الحديث، هذا العصر الّذي يصعب تحديده حسب الحقب أو الحوادث التاريخية، فالعصر العثماني انتهى في بعض الأقطار العربية بعد الحرب العالمية الأولى عام 1918م، ولم يكن له وجود في أقطار عربية قبل ذلك بقرون. وقد أَوْلى بعض الدارسين أهمية للحملة الفرنسية عام 1798–1801 على مصر وبلاد الشام، وهي حملة استعمارية جلبت معها بعض العناصر الثقافية من مثل المطبعة والصحيفة والمرصد والمكتبة والمسرح والعلماء، وهو ما نبّه الناس في مصر إلى تخلف الواقع وضرورة الانفتاح على العصر، وبناء جيش قوي، شرع في تأسيسه محمد علي، بعد أن سيطر على الحكم بعد جلاء الحملة الفرنسية.

ومن أجل بناء جيش قوي أرسل محمد علي البعثات إلى إيطاليا وفرنسا، وكان رفاعة الطهطاوي مرشدًا دينيًا لطلاب البعثة الرابعة إلى فرنسا، أفاد من هذه الرحلة في ترجمة المعارف المختلفة، وتعرف الفرق بين واقع المصريين وواقع الغربيين. وقد اهتم الخديوي إسماعيل بالحركة العلمية، فأنشأ مدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب، واستأنف إرسال البعثات إلى أوروبا، وأسس نظارة المدارس، وعهد إليها أمر التعليم، وأنشأ المكتبة الخديوية، وبنى مدرسة المعلمين، وبسط يد المؤلفين، فنزح إليها الأجانب من أدباء وعلماء، فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين سببًا في نهوض اللغة والأدب.

ومهما يكن من أمر فإن الحياة الثقافية والأدبيّة أفادت على نحو غير مباشر من هذه الحركة العلمية الّتي صاحبت إنشاء المدارس المختلفة العامة والمتخصصة لخدمة الجيش، فكان أن ظهرت تيارات فكرية وثقافية مختلفة كان أهمها تيار إحياء التراث لمواجهة النماذج الأدبيّة والفكرية الغربية، وبدا ذلك واضحًا في الشعر؛ إذ مال الشّعراء إلى إحياء النماذج التراثية في العصرين الأموي والعباسي، وبرز من الشّعراء الإحيائيين نخبة في أقطار الوطن العربي على رأسهم محمود سامي البارودي، وضمت هذه النخبة أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وإبراهيم اليازجي، والزهاوي، والرصافي في العراق، والأمير عبد القادر الجزائري،

1) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط 8 (بيروت: دار المعرفة، 2004)

وأبو مسلم البهلاني في عُمان.

وتلا ذلك جيل ظلَّ متعلقًا بأهداب الكلاسيكية، ممن سموا بالكلاسيكيين الجدد، من مثل الجواهري، وعمر أبو ريشة، وعزيز أباظة، وإبراهيم طوقان، ومصطفى وهبي التل، وبدوي الجبل، إلى جانب شعراء العصبة الأندلسية، وهم شعراء المهجر الجنوبي.

وقد بدت ملامح الحركة الرومانتيكية في شعر خليل مطران الذي بدأ يضيق بالتقليد مع أن كثيرًا من شعره لا يفارق بناء القصيدة الإحيائية، فقد ظهرت هذه الملامح الرومانتيكية في قصيدته «المساء» التي يربط فيها بين حالته النفسية وهو مريض وغروب الشمس إذ يقول:

متفردٌ بصبابتي، متفرّدٌ ... بكآبتي، متفردٌ بعنائي
شاكٍ إلى البحر اضطراب خواطري ... فيجيبني برياحه الهوجاءِ
ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي ... قلبًا كهذي الصخرة الصمّاءِ
ينتابها موج كموج مكارهي ... ويفتها كالسقم في أعضائي
تغشى البرية كدرةٌ وكأنها ... صعدت إلى عينيّ من أحشائي
والأفق معتكر قريح جفنه ... يغضي على الغمرات والأقذاءِ

ويقول فيها أيضًا:

يا للغروب وما به من عبرة ... للمستهام! وعبرة للرائي!!
أو ليس نزعًا للنهار وصرعة ... للشمس بين مآتم الأضواءِ؟
أو ليس طمسًا لليقين ومبعثًا ... للشك بين غلائل الظلماءِ؟
أو ليس محوًا للوجود إلى مَدًى ... وإبادةً لمعالم الأشياءِ؟

وقد نزعت جماعة الديوان المؤلفة من عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعبد الرحمن شكري منزعًا (رومنطيقيًا) وأعجبت باللون الغنائي الذاتي واللغة العصرية البسيطة، وقد دعت في «الديوان» الّذي صدر منه جزءان، شارك فيهما العقّاد والمازني سنة 1921 إلى الصدق في الإحساس، والصدق في التعبير، ونقدوا المدرسة الكلاسيكية

الجديدة، وخاصة أحمد شوقي، وحافظ ابراهيم نقدًا لاذعًا. يقول عباس محمود العقاد في تقديمه لديوان عبد القادر المازني: «فمن كان يعيش بفكره ونفسه في غير هذا العصر، فما هو من أبنائه، وليست خواطر نفسه من خواطره.» يقول ابراهيم عبد القادر المازني في احدى قصائده واصفًا نموذج الرجل العصري:

يتلقاك بالطلاقة والبشر ... وفي قلبه قطوب العداء
كالسراب الرقراق يحسبه الظمآ ... ن ماء وما به من ماء
عاجز الرأي والمروءة والنفـ ... ـس، ضئيل الآمال والأهواء
ألف الذل فاستنام إليه ... وتباهى به على الشرفاء

وقد التقت جماعة الديوان مع الرابطة القلمية في مبادئها وفي مفهومها للشعر، وبدا الجانب الرومانتيكي واضحًا في خصائص الشِّعر لديها، على نحو ما ظهر في العلاقة بين العقاد وميخائيل نعيمة. ومن أعلام الرابطة القلمية: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة، وإيليا أبو ماضي، وأمين الريحاني، وقد تأسّست الرابطة القلمية سنة 1920 واتّخذت من نيويورك مقرًّا لها، فثارت على الصور الشعرية القديمة، واستخدمت صورًا رومنطيقية جديدة، ومضامين حديثة، وتأثرت بالطبيعة والحريّة. يقول جبران خليل جبران في قصيدته «المواكب» داعيًا إلى حبّ الطبيعة والعودة إلى الغاب:

ليسَ في الغابات موت، لا ولا فيها القبورْ ... فإذا نيسان ولّى لم يمت معه السرور
إن هول الموت وهمٌ ينثني طيّ الصدور ... فالذي عاش ربيعًا كالذي عاش الدهور

هيمنت (الرومانتيكية) على الساحة الأدبيّة في الأقطار العربية خلال الثلاثينات والأربعينات، وقد ظهرت ملامح الحركة (الرومانتيكية) بوضوح شديد في «جماعة أبولو» الّتي أسّسها أحمد زكي أبو شادي، وانضم إليها أعلام (الرومانتيكية) في الوطن العربي من مثل: علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، وأبو القاسم الشابي، وأنور العطار. وكانت مجلة أبولو(1932–1934) قد أحدثت نهضة شعرية على مستوى الشكل والمضمون، وظهرت فيها ملامح التحول في تعدد القوافي، وفي التجديد في المعجم والصورة والإيقاع. على

نحو ما نرى في قصيدة علي محمود طه «الجندول»: على نحو ما نرى في قصيدة علي محمود طه «الجندول»:

آه لو كنت معي نختال عبرَهْ بشراع تسبح الأنجم إثرَهْ
حيث يروي الموج في أرخم نبرَهْ حلمَ ليل من ليالي كليوبتره

وكان من الطبيعي أن يفجّر الشّعراء الشباب عواطفهم (الرومانتيكية) في شكل جديد هو شكل الشِّعر الجديد، أو قصيدة التفعيلة؛ لأسباب فنية واجتماعية واقتصادية وسياسية ونفسية بعد الحرب العالمية الثانية متأثرين بمنجزات (الرومانتيكية) والرمزية اللتين شاعتا في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، مما مهّد الطريق لحركة الشِّعر الجديد أو شعر التفعيلة الّذي بدأ شكليًا في اختيار التفعيلة بدل البيت الشعري، ثُمَّ اتجه وجهة واقعية، قبل أن تتعدد أشكاله وصوره. ومن روّاد هذه المدرسة: نازك الملائكة، وبدر شاكر السيّاب، وعبد الوهاب البياتي، ونزار قباني، وصلاح عبد الصبور، وقد غلب على الشِّعر الحديث قصيدة التفعيلة الّتي أصبح لها أعلامها الكبار في وقتنا الراهن.

الطّينُ

إيليا أبو ماضي

نَسيَ الْطّيْنُ ساعَةً أَنَّهُ طيْ
نٌ حَقيرٌ[1] فَصالَ تيْهًا وعَرْبَدْ

وكَسى الْخَزُّ جِسْمَهُ فَتَباهى
وَحَوى الْمالَ كيْسُهُ فَتَمَرَّدْ

يا أَخي! لا تَمِلْ بِوَجْهِكَ عَنّي
ما أَنا فَحْمَةٌ ولا أَنْتَ فَرْقَدْ[2]

أَنْتَ لَم تَصْنَعِ الْحَريْرَ الَّذي تَلْ
بِسُ والْلُّؤْلُؤَ الَّذي تَتَقَلَّدْ

أَنْتَ لا تَأْكُلُ النُّضارَ إِذا جُعْ
تَ ولا تَشْرَبُ الْجُمانَ الْمُنَضَّدْ

أَنْتَ في الْبُرْدَةِ الْمُوَشّاةِ مِثْلي
في كِسائي الْرَّديْمِ تَشْقى وتَسْعَدْ[3]

لَكَ في عالَمِ الْنَّهارِ أَمانيْ
وَرُؤًى والْظَّلامُ فَوْقَكَ مُمْتَدّْ

ولِقَلْبي كَما لِقَلْبِكَ أَحْلا
مٌ حِسانٌ فَإِنَّهُ غَيْرُ جَلْمَدْ

أَأَمانيَّ كُلُّها مِنْ تُرابٍ
وأَمانيْكَ كُلُّها مِنْ عَسْجَدْ؟

وأَمانيَّ كُلُّها لِلْتَّلاشي
وأَمانيْكَ لِلْخُلُوْدِ الْمُؤَكَّدْ؟

لا، فَهذي وتِلْكَ تَأْتي وتَمْضي
كَذَويها، وأَيُّ شَيْءٍ يُؤَبَّدْ

أَيُّها الْمُزْدَهي! إِذا مَسَّكَ الْسُّقْ
مُ أَلا تَشْتَكي؟ أَلا تَتَنَهَّدْ؟[4]

أَنْتَ مِثْلي يَبَشُّ وَجْهُكَ لِلْنُّعْمى
وفي حالَةِ الْمُصيْبَةِ يَكْمَدْ[5]

الْنُّجُوْمُ الَّتي تَراها أَراها
حيْنَ تَخْفى وعِنْدَما تَتَوَقَّدْ

لَسْتَ أَدْنى عَلى غِناكَ إِلَيْها
وأَنا مَع خَصاصَتي لَسْتُ أَبْعَدْ

أَنْتَ مِثْلي مِنَ الْثَّرى وَإِلَيْهِ
فَلِماذا يا صاحِبي التَّيْهُ والْصَّدْ؟[6]

3) ما العَلاقةُ بينَ (تَشْقى) و(تَسْعَدُ) وبينَ (النّهارِ) و(الظّلامِ)؟

4) استخدمَ الشّاعرُ الجملَ الاستفهاميّةَ أيضًا لتأكيدِ الفكرةِ: اقرأِ الأبياتَ المتضمّنةَ جملًا استفهاميّةً، وسجّلِ التّفاصيلَ الّتي ساقَها الشّاعرُ لتأكيدِ فكرَتِهِ.

1) ما الّذي يرمي إليْهِ الشّاعرُ حينَ يقولُ: نَسيَ الطّينُ أَنَّهُ طينٌ؟

2) المعنى المُعجميُّ (الحَرْفِيُّ) للكلمتينِ: فَحْمَةٌ، وفَرقَدٌ، يختلفُ عنِ المعنى المُرادِ في سياقِ الأبياتِ، ما المعنى المرادُ في سياقِ القصيدةِ؟

5) ما العَلاقةُ بينَ (يَبَشُّ) و(يَكْمَدُ) وبينَ (غِنًى) و(خَصاصَةٍ)؟ و(أَدْنى) و(أَبْعَد)؟

6) قارنْ بينَ البيتِ الأوّلِ والأخيرِ، وحاولْ أنْ تعبّرَ عنْ فِكَرِ القصيدةِ بأسلوبِكَ.

سامِحيني هَديل

غازي القُصيبيِّ

أغالب الليل الحزين الطويل ... أغالب الداء المقيم الوبيل

أغالب الآلام مهما طغت ... بحسبي اللّه ونعم الوكيل

فحسبي اللّه قبيل الشروق ... وحسبي اللّه بُعيد الأصيل

وحسبي اللّه إذا رضنّي ... بصدره المشؤوم همي الثقيل

وحسبي اللّه إذا أسبلت ... دموعها عين الفقير العليل

يا رب أنت المرتجي سيدي ... أنر لخطوتي سواء السبيل

قضيت عمري تائهاً ، ها أنا ... أعود إذ لم يبق إلا القليل

اللّه يدري أنني مؤمن ... في عمق قلبي رهبة للجليل

مهما طغى القبح يظل الهدى ... كالطود يختال بوجه جميل

أنا الشريد اليوم يا سيدي ... فأغفر أيا رب لعبد ذليل

ذرفت أمس دمعتي توبة ... ولم تزل على خدودي تسيل

يا ليتني ما زلت طفلاً وفي ... عيني ما زال جمال النخيل

أرتل القرآن يا ليتني ... مازلت طفلاً..في الإهاب النحيل

على جبين الحب في مخدعي ... يؤزني في الليل صوت الخليل

هديل بنتي مثل نور الضحى ... أسمع فيها هدهدات العويل

تقول يا بابا تريث فلا ... أقول إلا سامحيني .. هديل

خمسُ رسائلَ إلى أُمّي

نزار قبّاني

(1)

صَباحُ الخَيرِ .. يا حُلْوَهْ..
صَباحُ الخَيرِ .. يا قِدّيسَتي الحُلْوَهْ
مَضى عامانِ يا أُمّي،
عَلى الْوَلَدِ الَّذيْ أَبْحَرْ
وَخَبَّأَ في حَقائِبِهِ..
صَباحَ بِلادِهِ الأَخْضَرْ
وأَنْجُمَها، وأَنْهُرَها، وَكُلَّ شَقيقِها الأَحْمَرْ.
وَخَبَّأَ في مَلابِسِهِ
طَرابينًا مِنَ النَّعْناعِ والزَّعْتَرْ..
وَليلَكَةً دِمَشْقِيَّهْ..

(2)

أَنا وَحْدي..
وَمِنّي مِقْعَدي يَضْجُرْ
وَأَحْزاني عَصافيرٌ، تُفَتِشُ بَعْدُ عَنْ بَيدَرْ
عَرَفْتُ أُورُوبّا..
عَرَفْتُ عَواطِفَ الإِسْمَنْتِ والخَشَبِ
عَرَفْتُ حَضارَةَ التَّعَبِ
وَطُفْتُ الهِنْدَ، طُفْتُ السِّنْدَ،
طُفْتُ العَالَمَ الأَصْفَرْ
وَلَمْ أَعْثَرْ
عَلى امْرَأَةٍ تُمَشِّطُ شَعْرِيَ الأَشْقَرْ
وَتَحْمِلُ فِي حَقيبَتِها إِلَيَّ عَرائِسَ السُّكَّرْ
وَتَكْسونِي إِذا أَعْرى

وَتَنْشُلُنِي إذا أَعْثَرْ
أَيا أُمِّي.. أَنا الوَلَدُ الَّذِي أَبْحَرْ
وَلا زالَتْ بِخاطِرِهِ
تَعيشُ عَرُوسَةُ السُّكَّرْ
فَكَيفَ .. فَكيفَ.. يا أُمِّي
غَدَوتُ أَبًا.. وَلَمْ أَكْبَرْ؟

(3)

صَباحُ الخَيرِ مِنْ مَدْرِيدْ..
ما أَخْبارُها الفُلَّهْ؟
بِها أُوْصِيكِ يا أُمَّاهُ
تِلْكَ الطِّفْلَةُ الطِّفْلَهْ
فَقَدْ كانَتْ أَحَبَّ حَبِيبَةٍ لِأَبي
يُدَلِّلُها كَطِفْلَتِهِ..
وَيَدْعُوها إلى فِنْجانِ قَهْوَتِهِ..
وَيَسْقِيْها، وَيُطْعِمُها
وَيَغْمُرُها بِرَحْمَتِه..
وَماتَ أَبي..
وَلا زالَتْ تَعِيشُ بِحُلْمِ عَوْدَتِه
وَتَبْحَثُ عَنْهُ فِيْ أَرْجاءِ غُرْفَتِه..
وَتَسْأَلُ عَنْ عَباءَتِهِ..
وَتَسْأَلُ عَنْ جَريدتِهِ..
وَتَسْأَلُ حِيْنَ يَأْتِي الصَّيفُ عَنْ فَيْرُوزِ عَيْنَيهِ
لِتَنْثُرَ فَوْقَ كَفَيْهِ
دَنانِيْرًا مِنَ الذَّهَبِ

(4)

سَلاماتٌ سَلاماتٌ

إلى بَيْتٍ سَقانا الحُبَّ والرَّحْمَهْ
إلى أَزْهارِكِ البَيْضاءِ..
فَرْحَةِ (ساحَةِ النَّجْمَهْ)
إلى تَخْتِيْ، إلى كُتُبِيْ
إلى أَطْفالِ حارَتِنا..
وَحِيْطانٍ مَلَأناها بِفَوضى مِنْ كِتابَتِنا
إلى قِطَطٍ كَسُوْلاتٍ
تَنامُ عَلى مَشارِقِنا..
وَلَيْلَكَةٍ مُعَرِّشَةٍ عَلى شُبّاكِ جارَتِنا..
مَضى عامانِ .. يا أُمّي
وَوَجْهُ دِمَشْقَ
عُصْفُورٌ يُخَرْبِشُ فِي جَوانِحِنا..
يَعَضُّ عَلى سَتائِرِنا..
ويَنْقِرُنا..
بِرِفْقٍ، مِنْ أَصابِعِنا..
مَضى عامانِ يا أُمِّي
وَلَيلُ دِمَشْقَ.. فُلُّ دِمَشْقَ
دُوْرُ دِمَشْقَ..
تَسْكُنُ فِيْ خَواطِرِنا..
مآذِنُها.. تُضِيءُ عَلى مَراكِبِنا
كَأَنَّ مآذِنَ الأُمَوِيِّ قَدْ زُرِعَتْ بِداخِلِنا
كَأَنَّ مَشاتِلَ التُّفاحِ تَعْبِقُ فِيْ ضَمائِرِنا
كَأَنَّ الضَّوْءَ والأَحْجارَ
جاءَتْ كُلُّها مَعَنا..

(5)

أَتى أَيْلُوْلُ يا أُمَّاهُ

وَجاءَ الحُزْنُ يَحْمِلُ لِي هَداياهُ
وَيَتْرُكُ عِنْدَ نافِذَتِي
مَدامِعَهُ وَشَكْواهُ
أَتى أَيْلُوْلُ أَيْنَ دِمَشْقُ؟
أَيْنَ أَبِي وَعَيْناهُ؟
وَأَيْنَ حَرِيرُ نَظْرَتِهِ، وَأَيْنَ عَبِيْرُ قَهْوَتِهِ؟
سَقى الرَّحْمَنُ مَثْواهُ..
وَأَيْنَ رِحابُ مَنْزِلِنا الكَبيرِ.. وَأَيْنَ نُعْماهُ؟
وَأَيْنَ مَدارِجُ الشَّمْشِيرِ.. تَضْحَكُ فِيْ زَواياهُ؟
وَأَيْنَ طُفُولَتِي فِيْهِ
أُجَرْجِرُ ذَيلَ قِطَّتِهِ
وآكُلُ مِنْ عَريشَتِهِ
وَأَقْطُفُ مِنْ (بَنَفْشاهُ)
دِمَشْقُ.. دِمَشْقُ
يا شِعْرًا
عَلى حَدَقاتِ أَعْيُنِنا كَتَبْناهُ
وَيا طِفْلًا جَميْلًا
مِنْ ضَفائِرِهِ صَلَبْناهُ
جَثَوْنا عِنْدَ رُكْبَتِهِ
وَذُبْنا فِيْ مَحَبَّتِهِ
إِلى أَنْ فِيْ مَحَبَّتِنا قَتَلْناهُ.

جبَل

عمر أبي ريشة

معاذَ خلال الكبرِ ما كنتُ حاقدًا ... ولا غاضِبًا إن عابَ مسرايَ عائبُ

فكم جبلٍ يغْفو على النَّجمِ خدُّهُ ... وأذْيـالُـهُ للسائماتِ ملاعبُ

نظَرْتُ إلى الدُّنيا فلم ألفَ عندَها ... كبيرًا أُداري أو صغيرًا أعاتِبُ

وما هانَ لي في موْقِفِ العِزِّ موقِفٌ ... ولا لانَ لي في جانِبِ الحقِّ جانِبُ

فيا غُرْبَةَ الأحرارِ ما أطولَ السُّرى ... وملءُ غياباتِ الدروبِ غياهِبُ

فكّرْ بغيْرِكَ

محمود درويش

وأنــتَ تُـعِـدُّ فـطـورَكَ، فـكّـرْ بـغَـيْـرِكَ ... لا تـنسَ قُـوتَ الحمامْ

وأنــتَ تـخـوضُ حـروبَـك، فـكّـرْ بغيركَ ... لا تنسَ من يطلبونَ السلامْ

وأنتَ تُسَدّدُ فاتورة الكهرباء، فكّرْ بغيركَ ... مـن يـرضَـعـون الـغـمـامْ

وأنتَ تعود إلى البيتِ، بيتِك، فكّرْ بغيركَ ... لا تنسَ شـعْـبَ الخيامْ

وأنتَ تنامُ وتُحصي الكواكبَ، فكّرْ بغيركَ ... ثَمّةَ مَن لم يَجِدْ حيّزًا للمنامْ

وأنتَ تحرّرُ نفسَك بالاستعارات، فكّرْ بغيْركَ ... مَن فقدوا حقَّهم في الكلامْ

وأنتَ تُفَكّرُ بالآخَرين البعيدين، فكّرْ بنَفسِك ... قلْ: ليْتَني شمْعَةٌ في الظلامْ

الحركةُ الشِّعريّةُ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتّحدة

إذا أردنا أنْ نؤرِّخَ للشِّعرِ الحديثِ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتّحدةِ، فإنّنا نجدُ صعوبةً في تحديدِ بواكيرِهِ، أو بداياتِهِ؛ ذلكَ أنّ ما وَصلَنا من الشِّعرِ الحديثِ –حتّى الآن– لا يكادُ يتجاوزُ مرحلةَ العشرينيّاتِ، وما بعدَها، أمّا ما قبلَ ذلكَ فلا نكادُ نعثرُ على نصوصٍ شعريّةٍ نستطيعُ أنْ نتّخذَها مُنطَلَقًا لتأريخِ الشِّعرِ الحديثِ في هذِهِ المنطقةِ، ولذلكَ فإنّ الدِّراساتِ الّتي تناولَتْ روّادَ الشِّعرِ الحديثِ في الإماراتِ تنطلقُ –عادةً– من الشّاعرِ «سالم بن علي العويس» الّذي عاشَ في الفترةِ المُمتدّةِ ما بينَ نهايةِ القَرنِ التّاسِعَ عشرَ، ونهايةِ القَرنِ العشرينَ بوصفِهِ الرّائدَ الأوّلَ لهذا الشِّعرِ الحديثِ، وبوصفِهِ الشّاعرَ الإحيائيَّ الّذي كانَ يكتبُ بطريقةٍ مُتميّزةٍ تنأى عن مُجاراةِ الأساليبِ الّتي كانَتْ مُغرِقَةً في المُحَسِّناتِ البديعيّةِ، والتي كانت تركز على الإخوانيّاتِ، والمُناسباتِ، والألغازِ.

وكلُّ الشُّعراءِ والأُدباءِ الّذينَ يُذكَرونَ معَ الشّاعرِ «سالم بن علي العويس»، من أمثالِ: محمدِ بنِ ثاني بنِ قطامي، وخلفانَ بنِ مصبحٍ، وَمُباركِ بنِ حمدِ العقيلي، وأحمدَ بنِ سلطانَ بنِ سليمٍ، وَمُباركِ بنِ سيفِ النّاخي، وسعيدِ الهاملي، وأحمدَ بنِ خصيفةَ، وعليِّ بنِ قمبرٍ، يُعَدّونَ من مُعاصريهِ، أوْ ممّن عاشوا في فترةٍ قريبةٍ من عصرِهِ...

أمّا الشّعراءُ الّذينَ عاشوا قبلَ هؤلاءِ فإنّنا لا نعرفُ عنهم شيئًا، وإذا لم نجدْ نصوصًا شعريّةً تؤكِّدُ هذا التّواصلَ والاستمرارَ، فإنّ ذلكَ يرجعُ أساسًا إلى غيابِ وسائلِ الطِّباعةِ الّتي لمْ تدخلْ إلى منطقةِ الخليجِ إلّا في فترةٍ مُتأخّرةٍ[1].

وقد عُرِفَ أوائلُ شُعراءِ الإماراتِ باسمِ «جماعةِ الحيرةِ» نسبةً إلى منطقةِ «الحيرةِ» في مدينةِ الشّارقةِ، وهم: صقرُ بنُ سلطانَ القاسمي، وخلفانُ بنُ مصبّح، وسالمُ بنُ عليّ العويسِ، وأخوهُ سُلطانُ بنُ عليّ العويسِ.

وكانَت القصائدُ الشِّعريّةُ لهؤلاءِ الشُّعراءِ تحتفظُ بانحيازِها الكاملِ في الالتزامِ بالشّكلِ العموديِّ، معَ محاولةِ التّجديدِ في المعنى، كما تشهدُ لهم بمستوًى مُتقدِّمٍ من الوعي

1) أ. د. الرّشيد بوشعير: ر، أدب الخليج العربي الحديث والمعاصر، منشورات دار العالم العربي، دبي، ط1، 142هـ/ 2011م.

والقُدرةِ على الإبداعِ، وتعدُّدِ محاورِ الخطابِ الشِّعريِّ واتّجاهاتِه وجوانبِه وجدانيًّا، ووطنيًّا، وقوميًّا.

وجيلُ الشُّعراءِ الأوائلِ في الإماراتِ اعتمدَ على تثقيفِ ذاتِهِ بوسائلَ مُختلفةٍ، وذلكَ من خلالِ مُتابعةِ الصُّحفِ والمجلّاتِ الّتي كانَت تصلُ إلى المنطقةِ بطريقةٍ غيرِ مُنتظَمَةٍ، ومن خلالِ الإذاعاتِ، أوْ من خلالِ الكتبِ في المكتباتِ الخاصّةِ لدى الميسورينَ والمُثقّفينَ من أبناءِ المنطقةِ.

ومعَ تطوّرِ التّعليمِ في المجتمعِ الإماراتيِّ، ودخولِ الصّحافةِ والطِّباعةِ في مرحلةِ السّتينيّاتِ من القَرنِ الماضي حدثَتْ تحوّلاتٌ في مجالِ الشِّعرِ، وبرزَتْ قصيدةُ التّفعيلةِ كشكلٍ جديدٍ في تجاربِ الشّاعرِ الدّكتورِ «أحمد أمين المدني» -رحمَهُ اللّهُ- بالإضافةِ إلى كتابةِ القصيدةِ العموديّةِ، وحملَتْ تجربةُ الشّاعرِ «المدني» رؤيةً جديدةً للشِّعرِ والعالَمِ والأدواتِ التّعبيريّةِ والفنيّةِ.

وفي مرحلةِ السّبعينيّاتِ ظهرَتْ كوكبةٌ جديدةٌ من الشُّعراءِ المُحافظينَ والمُجَدّدينَ الّذين كتبوا في نموذجي القصيدةِ: العموديّ والتّفعيلةِ، مثلَ: مانعِ سعيدِ العتيبةِ، وشهاب غانم، وحبيبِ الصّايغِ، كما امتدَّ عُنصرُ المُحافظةِ في تجاربِ الشُّعراءِ: سلطان خليفة الحبتور، وحمد بوشهاب، وعارف الشّيخ، ...

وفي مطلعِ الثّمانينيّاتِ ظهرَتْ في الإماراتِ أصواتٌ شعريّةٌ كثيرةٌ، تنتمي إلى كلا التّيّارَيْنِ، ومنهم: عارف الخاجة، وأحمد راشد ثاني، وميسون صقر، وحصّة عبداللّه، وكلثم عبداللّه، وكريم معتوق، وإبراهيم محمد إبراهيم، وإبراهيم الهاشمي، ...

وبعدَ هذِهِ الفترةِ اتّسعَتْ دائرةُ الإبداعِ الشِّعريِّ في الإماراتِ، وأصبحَتْ جديرةً بالمُلاحظةِ والرَّصدِ والتّوثيقِ والدّراسَةِ، حتّى غدَتْ كأنّها صورةٌ مُصغّرةٌ عن الحركةِ الشِّعريّةِ في الوطنِ العربيّ، بلْ وفي العالَمِ أيضًا، ممّا يعني أنّ الحركةَ الشّعريّةَ الإماراتيّةَ أفرزَتْ مُنتجًا شعريًّا أسهمَ في بلورةِ أدبٍ عربيٍّ مُتميّزٍ وَمُتفاعلٍ معَ الجوانبِ المختلفةِ لحداثةِ القصيدةِ فكريًّا وفنيًّا، ممّا جعلَهُ يُشكِّلُ رافِدًا قويًّا من روافدِ الأصالةِ الثّقافيّة لأُمّتِنا.

وقد واكبَ الشُّعراءُ الإماراتيّونَ نهضةَ دولتِهم في الفترةِ الذّهبيّةِ من عُمْرِ اتّحادِ دولةِ

الإماراتِ العربيّةِ المتّحدةِ، وإنّ المُتَتبِّعَ للحركةِ الشّعريّةِ الإماراتيّةِ يجدُ أنّ القصيدةَ تطوّرَت، كما تطوّرَتْ الأدواتُ الشّعريّةُ ذاتُها، وأصبحَ الوطنُ لوحةً يرسمُها الشّاعرُ بأعذبِ الألفاظِ، وأرقِّ الكلماتِ، ويلوّنُها بألوانٍ شَتّى من الصُّورِ الشّعريّةِ والرّمزيّةِ الّتي تزيدُ النّصَّ الشّعريَّ جمالًا والتزامًا، ولم يَعُدِ الشِّعرُ يكتفي بأنْ يكونَ وزنًا وقافيةً وصورةً خياليّةً.

ومن نماذج القصائدِ الّتي حافظَتْ على الشّكلِ العموديّ للقصيدةِ قولُ الشّاعرِ «مُبارك ابن سيفِ النّاخي» في قصيدةٍ مُهداةٍ إلى صديقِهِ الشّيخِ «عبداللّه بن صالح المطوّع»[1]:

عَهِدتُكَ شاعِرًا ولكَ اقتدارُ ... وَشَهْمًا ماجِدًا، ولكَ افتكارُ
وللآدابِ بَحّاثًا وَفيًّا ... وللتّاريخِ أنتَ لَهُ مدارُ
رعاكَ اللّهُ مِنْ خِلٍّ هُمامٍ ... لَهُ في كُلِّ حَلْبَةٍ ابتكارُ

وكذلكَ قولِ الشّاعرِ «سلطان خليفة الحبتور» في قصيدتِهِ (تفرّق قومي)[2]:

«أبا قاسمٍ» يا نذيرَ البَشَرْ ... بأنّ الحياةَ لِمَنْ ينتصِرْ
وصوتُكَ كانَ يبثُّ الطّموحَ ... ويمحو من النّفسِ معنى الحَذَرْ
ويزرعُ في حالِكاتِ الدُّجى ... نهارًا يُضيءُ حياةَ البّشَرْ

ومن القصائدِ الّتي اتّخذَتْ من التّفعيلةِ شكلًا جديدًا، قولُ الشّاعرِ «شهاب غانم»[3]:

إنّها الموجةُ تلهو

إنّها الموجةُ تلعبْ

سوفَ تأتي، ثُمّ تذهبْ

ثُمّ تأتي، ثُمّ تذهبْ

فإذا الأيّامُ تقسو

1) مبارك الخاطر، «رجل... ومولدُ قَرن»، منشورات دائرة الثّقافة والإعلام، الشّارقة/ 1997م.
2) قصائد من الإمارات، منشورات اتّحاد كُتّاب وأُدباءِ الإمارات، ط1/ 1986م.
3) المصدر السابق.

رُبّما في الغدِ تأسو

وإذا الدّهرُ تبسّم

لا يَغُرنْكَ... غدًا قد يتجهّم

فلماذا تتألّم؟

• وللإستزادة عن التجربة الشعرية للدكتور شهاب غانم، يمكن الاطلاع على كتاب (طائر الشعر الجميل)، لمؤلفه الدكتور أكرم جميل قنبس، منشورات وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع - أبوظبي / ط1/ 2015.

إلى أُمّتي

صاحبُ السُّمُوِّ الشَّيخُ محمَّدُ بنُ راشدٍ آلِ مَكتومٍ

كَفْكِفْ دُموعَكَ أَيُّها المُشتاقُ ... فَلِكُلِّ وَجْدٍ لَوْ عَلِمْتَ مَذاقُ

وَلَأَنْتَ مَفْتونٌ بِعِشْقِكَ أُمَّةً ... خَضَعَتْ لِعِزَّةِ مَجْدِها الأَعْناقُ

أَوّاهُ ما هذا الّذي في أُمّتي ... قَدْ حَلَّ حتّى اسْوَدَّتِ الآفاقُ

نادَيْتُ جِلَّقَ وَهْيَ في أَسْمالِها ... وَنَظَرْتُ وَهْيَ خَرائِبُ وَمَحاقُ

وَبِأَرْضِ بابِلَ أَيُّ سِحْرٍ أَسْوَدٍ ... أَدْمى فَلَمْ يَعُدِ العِراقُ عِراقُ

أَنّى الْتَفَتَّ فَإِنَّ ثَمَّةَ غيلَةً ... وَدَمٌ يُراقُ وَنَكْبَةٌ وَشِقاقُ

مِنْ بَعْدِ أَنْ يَقْضي الرَّدى في مُهْجَةٍ ... قُلْ لي أَيَنْفَعُ بَعْدَها التِّرْياقُ؟

ما هَكَذا كانا مَلاذَ عُروبَتي ... كَلّا وَلا الوَضْعُ الرَّهيبُ يُطاقُ

أَطْلَعْتُها سِرّي فَضَجَّ مُطَوَّقٌ ... كانَتْ لَهُ المُهَجُ العِزازُ تُساقُ

وَطَنٌ يَراني فيهِ صاحِبَ بِدْعَةٍ ... في حُبِّهِ وَيَغارُ كَيْفَ أُشاقُ

وَتَرَبَّعَتْ في خَيْمَةٍ بَدَوِيَّةٍ ... نَفْسٌ لها بَيْنَ النُّجومِ رِفاقُ

مَبْهورَةٌ بِهَوى القَريضِ أَبِيَّةٌ ... عَرَبِيَّةٌ إِنْسانُها عِمْلاقُ

وَأَخَذْتُ أَجْمَعُ نورَ حَرْفِيَ فانْتَشى ... قَلَمٌ لَهُ تَتَنافَسُ الأَوْراقُ

فإِذا الصَّريفُ حَفيفُ أَجْنِحَةِ العُلا ... وإذا الصَّحائِفُ كُلُّها إِشْراقُ

نادَيْتُ أُمَّتَنا العَظيمَةَ أَنَّنا ... مَلأُ يُجانِبُ عَزْمَنا الإِخْفاقُ

لا نَرْتَضي غَيْرَ الصَّدارَةِ مَوْضِعًا ... وَلَنا على ما نَدَّعي ميثاقُ

مَنْ زارَ مَوْطِنَنا وَعايَنَ صُنْعَنا ... صَلّى وَقالَ: تَبارَكَ الخَلّاقُ

عَرَبٌ سُلالَةُ أُمَّةٍ عربيَّةٍ ... شَرُفَتْ بِها الأَنْسابُ والأَعْراقُ

مِنْ أَرِضِنا وَمِنَ الخَليجِ وَأَهْلِهِ ... حَيثُ البُطولَةُ مَنْهَجٌ وَوِثاقُ

مَن المقصودُ في البَيتَينِ الأَوَّلَينِ؟

ما العاطِفةُ الشّائعةُ في الأبياتِ مِنْ 3 - 6؟

مَنْ هيَ جِلَّقُ؟ وكيفَ كانتْ؟ وكيفَ أصبحَتْ؟

لماذا مُنِعَتْ كلمةُ "خرائب" مِنَ الصَّرفِ؟

بِمَ يوحي التَّعبيرُ "أنّى الْتَفَتَّ فإنَّ ثَمَّةَ غيلَةً ودَمٌ ونَكْبَةٌ وشِقاقُ"؟

ما الغَرَضُ مِنَ الاستفهامِ في البَيتِ السّابعِ؟

ما دَلالةُ النُّجومِ في هذا البيتِ؟

ما نوعُ التَّشبيهِ في قولِهِ: "فإذا الصَّريفُ حَفيفُ أَجْنِحَةِ العُلا"؟

لَـولا الخَليجُ لَضاعَ مِـنْ أَقْطارِنا ... اليَمَـنُ الشَّقيقُ وَنالَـهُ الإِحْـراقُ

كُـنّـا لَـهُ لَـمّـا دَعـانـا شَـعْـبُـهُ ... دَعْـوى الـغَـريـقِ كَـتـائِـبًـا تَـنْـسـاقُ

لَـولا بُـطـولَـةُ جَيْشِنا وَشَبابِنا ... لَقَضى وَعـاثَ بِـرَبْـعِـهِ الـسُّـرّاقُ

دُوَلُ الخَليجِ هيَ الـمَلاذُ لِأُمَّـةٍ ... غَـــرّاءَ لَـيْـسَ لِـعِـزِّهـا إِمْـــلاقُ

وَمِـنَ الخَليجِ تَـعـودُ قُـوَّةُ أُمَّتي ... وَلَـهـا بِـرَكْـبِ الـفـائِـزيـنَ لَـحـاقُ

وَلِـمَـنْ يَـظُـنّـونَ الـحـيـاةَ بَسيطَةً ... إِنَّ الـحـيـاةَ إذا وَعَـيْـتَ سِـبـاقُ

لا الانْـتِـظـارُ بِها يُفيدُ وَلا الرَّجا ... بَـــلْ هِـــمَّـــةٌ تَـــيّـــارُهـــا دَفّـــاقُ

والـلّـهُ قـالَ قُـلِ اعْـمَـلـوا بِكِتابِهِ ... وَبِـالاجْـتِـهـادِ تُـحَـصَّـلُ الأَرْزاقُ

بِمَ وَصَفَ الشّاعرُ أُمَّتَهُ؟

اذْكُرِ الآيةَ الكريمةَ الّتي استَشهَدَ بها الشّاعرُ هنا.

سيرة وطن

شيخة المطيري

أدرِ الـمـعـانـي إنـهـنّ غنائيا ... واسكُبْ عيونَ الشّعرِ من أحداقيا

الخيلُ تطرَبُ بالصّهيل وداخلي ... سبعٌ صَهَلن تَـوحُّـدًا وتساميا

وأمِـطْ لثامَ القوْلِ عن تاريخِها ... قِفْ واسألِ الأيام: حِسبُكِ ماهيا

هي أولُ الـرّمـل المُعَتَّق نخلة ... هـلا شممت برملها أجـداديـا

كتبوا على موج الخليج قصيدة ... لافضّ قلب الشعر يصدح تاليا

والطينُ خبّأ صوْتهَم وعروقَهم ... وأنـــا أمـــرّر فـوقـه أحـلامـيـا

هم هكذا بـدؤوا ونحن نعيدُها ... يـا سيـرة أولـى ومـجـدًا باقيا

أدر المعاني والمغاني والهوى ... وطني الإماراتُ اقرؤوا أمجاديا

* من ديوان « ماأكثري وأقلّي»، ص 38

شِعرٌ عالميٌّ

تنويع عن الغصون
(آنا أخماتوفا)

حينما ترحلُ الريحُ
من سيهز الغصون..؟
حينما يذبل الغصنُ
من سيلمّ الندى..
في الصباح..؟

سعادة حجر
(إيميلي ديكينسون)

كم بالغة سعادة الحجر
يتسكع وحده في الطرق بلا ضجر
فلا يهمه العمل
ولا بالمتطلبات يضيق الأمل
وثوبه البني ألبسه إياه
الدهر الذي من فوقه عبر
وهو كالشمس بكل حرية
يلمع وحده أو مع البقية
محققًا وجوده
بكل بساطة وعفوية.

خريف

(ألفونس دي لا مارتين)

تحيّـاتٌ، أيتها الغاباتُ المكسوّةُ بالأخضر المستديم!
الأوراقِ المُصفَـرّةِ على العشب المتناثر!
تحيّـاتٌ، أيتها الأيام الأخيرة الرائعة ! حِدادُ الطبيعة
يُثيرُ ألمي ويُمَتِّعُ عينـيَّ.
أسير بخطواتٍ حالمة في طريق مهجـور،
وأريد أن أرى ثانية، ولآخـرِ مرةٍ،
هذه الشمسَ المتضائلةَ والشّاحبةَ والتي لا ينفـذ
نورُها الواهنُ إلى ظلام الغابات عند قدمي إلاّ بجهد!

أجمل البحار

(ناظم حكمت)

أجملُ البحار
هو البحرُ الذي لم نذهبْ إليه بعد
وأجملُ الأطفال
هم الذينَ لم يكبروا بعد
وأجملُ الأيام
هي تلكَ التي في انتظارنا
وأجملُ القصائد
هي تلك التي لم أكتبها لك بعد
يا صغيري...
يا صغيرتي...

تعلم الصمت

(كارين بويه)

كل ليلة على الأرض الطافحة بالألم.
أيها الفؤاد تعلم كيف تصمت.
النفوس القوية، كالدروع القوية،
تعكس الضوء من موطن النجوم.
من شأن عويلك أن يجعلك أضعف.
أيها الفؤاد تعلم كيف تصمت.
فالصمت وحده يشفي، الصمت يقوّي،
وهو طاهر على نحو غير ممسوس، ومخلص ببراءة.

(فرناندو بيسوا)

نظمت كل لآلئ
هذا العقد لأهديه إليك.
اللآلئ قلبي
والخيط؟ حزني.

القِصَّةُ القصيرةُ

القِصَّةُ القصيرةُ

«القِصّة»مشتقة من الفعل «قَصَّ»، الّذي يأتي بمعنى التَّتبّع، يقال: قصَّ فلانٌ أثرَ فلان: أي تتبّعه. ومنه قوله تعالى: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾). ويأتي أيضًا بمعنى الإخبار والرواية، يقال: قَصّ عليه الخبر: أي حدّثه، وقَصّ القِصّة: أي حكاها. فالقِصّة: هي الحكاية الّتي تُحكى.

أمّا «القِصّة» في الاصطلاح فلها تعريفات كثيرة، لكنّ معظم هذه التعريفات يؤكد على أنّ القِصّة سرد متخيّل قصير نسبيًّا، يهدف إلى إحداث تأثير معين، وفي أغلب الأحوال تركز القِصّة القصيرة على شخصية واحدة في موقف واحد، في لحظة واحدة، في مكان بعينه. وقد اختصر بعضهم تعريف القِصّة بقوله «فَنٌّ أدبيٌّ نثريٌّ يتناول بالسرد حدثًا وقع، أوْ يمكن أن يقع».

وأهم ما يمكن أن يقال عن القِصّة (والرواية كذلك) إنّها فنٌّ غايته الإمتاع في المقام الأول، فليس من أهداف القِصّة (أو الرواية) أن تقدم معلومات للقارئ بصورة مباشرة، وليس من أهدافها أنْ تُعلّم أو تعظ. إنّ القِصّة فن، والفن لا يتخذ من الخطاب المباشر وسيلة أو طريقة للتعبير والوصول إلى وجدان القارئ.

إنّ القِصّة تستحث القارئ على التفكير والتأمل، وعلى أن ينظر إلى الحياة من زوايا مختلفة، ومن خلال تفاصيل صغيرة جدًّا قد لا ينتبه إليها، لكنها تشكل حياة الناس وتؤثر فيهم، لذلك نقول: إن القِصّة الناجحة هي الّتي تجعل القراء يفكرون، ويشعرون.

وهناك عناصر أساسية تقوم عليها القِصّة (أو الرواية)، والكاتب الناجح هو الّذي يشكل من هذه العناصر بناء فنيًّا متجانسًا متماسكًا، يؤثر في القارئ، ويوصل إليه فكرة ما بشكل غير مباشر، ومن أهم عناصر القِصّة:

1. **الحدث**: عادة ما تقوم القِصّة القصيرة على حدث مفرد؛ فالقِصّة تجري في زمان محدد، ومكان محدد، وتتناول موقفًا محددًا، أو شريحة من الحياة بغية تسليط الضوء عليها.

2. **الشخصيات**: عنصر الشخصية يعد دعامة أساسية من دعامات القِصّة، فلا يمكن أنْ تُبنى قصة من دون وجود شخصية تحرك الأحداث وتتأثر بها، والشخصية قد تكون إنسانًا أو حيوانًا أو كائنًا متخيلاً.

3. **الإطار الزماني والمكاني**: يحدد هذا العنصر زمن وقوع الأحداث ومكانها، والكاتب المتمكن يوظف عنصر الزمان والمكان توظيفًا يناسب جوّ القِصّة، والفكرة.

4. **الراوي ووجهة النظر**: الراوي هو الّذي يروي القِصّة، وهو ليس الكاتب، بل الكاتب يختار وجهة نظر معينة تُروى من خلالها القِصّة، ويرويها راوٍ قد يكون شخصية من شخصيات القِصّة، وقد يكون راويًا خارجيًّا. ووجهة النظر الّتي ينطلق منها الراوي تتقاطع مع فكرة الرواية، لأنها تعبّر عنها.

5. **الحبكة**: الطريقة الّتي يجمع بها الكاتب أحداث قصّته أو روايته ليصنع منها عملًا فنيًّا، يجذب القارئ، ويشدّه في اتجاه النّصّ من بدايته حتّى نهايته، وقد يظهر خط بسيط للحبكة في بعض القصص، فعلى الرغم من قصر القِصّة، وضيق المساحة المتاحة للكاتب ليتحرك فيها، إلا أنّ بعض القصص يظهر فيها تصاعد للأحداث، ووصولها إلى نقطة توتر عليا، ثُمَّ انحدار نحو النهاية.

6. **التشويق**: هو العنصر الّذي يشدّ القارئ نحو القِصّة وعالمها، وغالبًا ما يكون مرتبطًا بشيء تريده الشخصية الرئيسة، أو مشكلة تواجهها. بعض القصص قد تتحرر من البنية التقليدية الّتي تعتمد على التشويق وتأزم الموقف، خاصة تلك الّتي تركز على مشهد وحيد مضغوط، أو الّتي تُبقي القارئ داخل دائرة تفكير الشخصية وتأملاتها وأسئلتها، ولذلك يصنف بعضهم القصص إلى «قصة شخصية» و«قصة حبكة أو حدث». أمّا الثانية، في الغالب، هي الّتي قد تحوي عنصر التشويق القائم على توتر الأحداث ووصولها إلى نقطة تأزّم عُليا.

7. **الفكرة أو الموضوع**: وهي الرسالة المبطنة في القِصّة، والتي يريد الكاتب من القارئ أن يصل إليها.

8. **اللغة**: اللغة ترتبط بحجم القِصّة، ويجب أن تكون مكثفة تعتمد التلميح بدل التصريح؛ فلا مجال للوصف المسهب فيها، وغالبًا ما يتراوح عدد كلماتها بين خمسمئة إلى عشرة آلاف كلمة، وقد تستخدم الحوار الّذي يجب أن يناسب الشخصية، مما يفتح الباب للعبارات العامية والشعبية.

ويمكننا أن نجمل القول في القصة فنقول: إنّ القصة لا تتناول –خلافًا للرواية– شخصية كاملة بكل ما يحيط بها من حوادث وظروف وملابسات، وإنما تكتفي بتصوير جانب واحد من جوانب حياة الفرد. ولا تتعدد الشخصيات في القصة القصيرة. ومن الضروري أن تتوافر وحدة الفعل والزّمان والمكان؛ فيجب أن يكون المكان محدودًا، وأن يكون الزمان قصيرًا. وأن ينتقي القاصّ –عكس الرّوائيّ– حدثًا من الحياة اليومية، ويحاول أن يجعل منه موقفًا فنيًّا، يوضح به حقيقة من الحقائق.

ولم تعد بنية القصة القصيرة وعناصرها كما كانت وقت ظهورها، فقد اختفت بعض الشروط واختفت بعض العناصر، حتى تكاد كل قصة قصيرة لها شكلها الخاص.ولقد تعددت موضوعاتها وأغراضها ومجالاتها وتباينت في مدى ارتباطها بالواقع أو ابتعادها عنه.

إنّ الإلحاح السابق على ملحظ التركيز في القصة القصيرة، سواء أكان في البنية الفنية أم في اللغة، يسوقنا إلى الحديث عن أهم خصائص القصة القصيرة، التي يمكن حصرها، بشكل عام، في ثلاث خصائص:

1. **الوحدة**: وقد أكّد عليها كبار الكتاب والتزموا بها، والمقصود بالوحدة هنا: الوحدة العضوية التي تؤدي إلى وحدة الانطباع، والتأكيد على أن تحمل القصة فكرة واحدة، وتركز على شخصية واحدة في الغالب، وأن تبنى بناء محكمًا يولد في القارئ انطباعًا واحدًا.

2. **التكثيف**: وهو مطلب جوهري لنجاح القصة فنيًّا، ولذلك قال عنها يوسف إدريس: «القصة القصيرة رصاصة» انظر كيف تصيب الرصاصة الهدف، فهي ليست حجرًا ولا كرة، بل رصاصة تنطلق لتصيب الهدف بسرعة ودقة تامتين. ولذلك فإن كل كلمة محسوبة في القصة، وكل جملة لها دورها، وليس هناك مكان للاسترسال في الكلام

لمجـرد أنـه كلام جميـل أعجـب الكاتـب. والتكثيـف يختلـف باختـلاف القصـة، وطولهـا، وبنيتهـا الفنيـة.

3. **الدراميـة**: ويقصـد بهـا التوتـر الـذي يجعـل القـارئ يتابـع القـراءة، ويرغـب فـي الوصـول إلـى النهايـة، حتـى لـو خلـت القصـة مـن الصـراع، واعتمـدت علـى أفـكار الشـخصية الداخليـة فـإنّ الكاتـب الناجـح يسـتطيع أن يشـدّ خيـط القصـة، ويجـذب القـارئ إلـى عالمهـا. وهنـاك تقنيـات كثيـرة تسـاعد الكتـاب علـى تصعيـد درجـة التوتـر فـي القصـة، كالبدايـة المثيـرة للتسـاؤل، أو الشـخصية المحيّـرة أو المحتـارة، أو الحـوار الداخلـي، أو حركـة الزمـان أو المفارقـات، وغيرهـا كثيـر.

وكمـا قـال النقّـاد إنّ القصـة تأخـذ مـن المسـرح دراميّتـه، ومـن الشـعر توتّـره. إنّ القصـة القصيـرة تفتـح نافـذة صغيـرة للقـارئ ليطـل منهـا علـى مشـهد مـن مشـاهد الحيـاة لـم يكـن قـد فَطِـن إليـه مـن قبـل، وكلمـا زادت النوافـذ أتيـح لهـذا القـارئ أن تتوسـع نظرتـه للحيـاة، وتـزداد عمقًـا ومعرفـة. إنّ قـارئ الأدب هـو إنسـان أكثـر تسـامحا وتقبـلا للحيـاة بـكل تناقضاتهـا.

حادثةٌ

نجيب محفوظ

كانَ يتكلَّمُ في تلفونِ الدّكانِ بصوتٍ مرتفعٍ؛ ليسمعَ صوتُهُ رغمَ ضوضاءِ شارعِ الجيشِ الصّاخبةِ، وجعلَ يميلُ بنصفِهِ الأعلى داخلَ الدُّكانِ؛ ليبتعِدَ ما أمكنَ عنِ الضَّوضاءِ، ثمَّ ختَمَ حديثَهُ بقولِهِ: (انتظرْني، سأحضرُ فورًا)، وأعادَ السَّماعةَ إلى مكانِها، ونقدَ البائِعَ ثمَنَ المُكالمَةِ، واستدارَ فوقَ الطُّوارِ متَّجهًا نحوَ الطَّريقِ.

كانَ في السِّتينَ أو نحوِها... طويلُ القامَةِ نحيلُها، كُرويُّ الجبهَةِ والعينينِ، مُكَوَّرُ الذَّقْنِ، وأمّا صَلْعَتُهُ فلمْ يبقَ فوقَ مرآتِها إلّا جذورُ شعرٍ أبيضَ مثلُ منابتِ شعرِ ذقنِهِ، وقدْ أفصَحَ مظهرُهُ عن إهمالٍ صريحٍ نتيجةً للسِّنِّ أو الطَّبعِ أو نسيانِ الذّاتِ، على ذلكَ كانَ يتمتَّعُ بحيويَّةٍ مرِحَةٍ، وتلتمعُ عيناهُ بنشاطٍ وابتهاجٍ.. وبدا أنَّهُ ينظرُ إلى الدّاخلِ لا إلى الطَّريقِ[1]، ثمَّ مالَ يُمْنةً بمحاذاةِ صفٍّ منَ اللُّوريّاتِ الواقفَةِ لصْقَ الطُّوارِ حتّى وجدَ منفذًا إلى الشّارعِ.. مَرَقَ منَ المنفَذِ؛ ليعْبُرَ الشّارعَ إلى ضِفَّتِهِ الأُخرى، وما كادَ يجاوِزُ مُقدِّمةَ اللّوري الأخيرِ حتّى شعرَ باندفاعِ سيّارةِ (فورد) نحوَهُ بسرعةٍ فائقةٍ[2].

وقالَ أحدُ الشُّهودِ فيما بعدُ إنَّهُ كانَ عليْهِ أنْ يتراجَعَ بسرعةٍ، وإنَّهُ لوْ فعلَ ذلكَ لنَجا رغمَ سرعةِ السَّيّارةِ، ولكنَّهُ لسببٍ ما – لعلَّهُ المفاجأةُ أو سوءُ التَّقديرِ – وثبَ إلى الأمامِ، وهوَ يهتفُ، (يا ساترُ يا ربُّ) وجرتِ الحوادثُ متلاحقةً، ندّتْ عنِ الرَّجلِ صرخةٌ كالعُواءِ، وفي ذاتِ الوقتِ انطلقتْ صرَخاتُ الفزعِ منَ المارَّةِ الواقفينَ على الطُّوارِ، وفوقَ إفريزِ محطَّةِ التَّرامِ. صدرَ عنْ (فرملَةِ الفوردِ) صوتٌ

1) ماذا يُمكنُ أنْ تستنتجَ منَ العبارةِ الّتي تحتها خطٌّ؟

2) أيُّ سببٍ تُرجّحُ لإهمالِ الرّجلِ مظهرُهُ؟ لماذا؟ مالصّفاتُ الّتي تكوّنتْ لديكَ عنِ الرّجلِ منْ خلالِ وصفِ الرّاوي لهُ؟

محشْرَجٌ متشنِّجٌ ممزَّقٌ، وهيَ تزحَفُ على الأرضِ بعجلاتٍ متوقِّفةٍ جامدةٍ، وهُرِعَ نحوَ الضَّحيَّةِ في ثوانٍ عشراتٌ وعشراتٌ كأسرابِ الحَمامِ، حتّى تكوّنَ منهُمْ سورٌ غليظٌ منيعٌ، وانتشرَ في المِنطقةِ الهَرَجُ.

ولَمْ ينبضْ جسمُ الرَّجُلِ بحركةٍ واحدةٍ، وكانَ منكفِئًا على وجهِهِ، ولا يجرؤُ أحدٌ على لمسِهِ، وإحدى رجليْهِ ممدودَةٌ إلى آخرِها، والأُخرى منثنِيَةٌ مُنْحَسِرَةُ (البنطلونِ) عنْ ساقٍ نحيلَةٍ غزيرةِ الشَّعرِ، وقدْ فقدتْ حذاءَها، وتغشّاهُ صمْتٌ بخلافِ كلِّ شيءٍ حولَهُ، وكأنَّ الأمرَ لا يعنيهِ ألبتَّةَ، الرَّجلُ وهوَ يرتفِعُ في الفضاءِ أمتارًا، ثمَّ يهوي فوقَ الأرضِ كشيءٍ[3]، وألصَقَ سائقُ الفوردِ ظهرَهُ بالسَّيّارةِ منْ بابِ الحيطَةِ، وراحَ يخاطِبُ مجموعةً منَ الحُفاةِ أحْدَقتْ بهِ على سبيلِ المُراقَبةِ:

3) بمَ يوحي تشبيهُ الرّجلِ بالشّيءِ؟

* لا ذنبَ لي، اندفعَ هوَ منْ أمامِ اللّوري فجأةً، وبسرعةٍ، ودونَ أنْ ينظرَ إلى يسارِهِ كما يَجِبُ، وإذا لَمْ يجدْ وجْهًا مُسْتجيبًا، عادَ ليقولَ بلهجةٍ خطابيَّةٍ:

* لم يكنْ بالإمكانِ أنْ أتجنَّبَ الصَّدْمةَ.

وندَّ عنِ المُصابِ صوتٌ كالزَّفيرِ المَكتومِ، وتحرَّكَ حركةً شامِلَةً مُباغِتةً، ثانيَةً واحدةً، ثمَّ غرقَ في اللّامبالاةِ.

- لم يمتْ! حيٌّ.

- لعلّها إصابةٌ بسيطةٌ.

- لكنَّهُ طارَ في الهواءِ والعياذُ باللّهِ!

- ولو، عفْوُ ربِّنا كبيرٌ...

- لا يوجدُ دَمٌ؟

– عندَ فمِهِ، انظُرْ...

– كلُّ ساعةٍ حادثٌ من هذا النَّوعِ.

وجاءَ شرطيٌّ مسرعًا، وفتحَ لهُ وقعُ قدميهِ ثغرةً في السّورِ الآدميِّ، نفذَ منْها وهوَ يصيحُ بالنّاسِ أنْ يبتعدوا خطواتٍ، خطواتٍ فقط، وعينُهُم لا تتحوَّلُ عنِ الرَّجلِ، ولا تُخفي حِدَّةَ تطلُّعِها وإشفاقِها، وقالَ إنسانٌ[4]:

4) ما الدّلالةُ الّتي توحي بها كلمةُ "إنسانٍ"؟ لماذا لمْ يقلْ "رجلٌ"؟

– سَيبقى هكذا حتّى يموتَ، ونحنُ لا نفعلُ شيئًا؟!

فأجابَهُ الشُّرطيُّ بلهجةٍ رادِعَةٍ:

– أقلُّ لمسةٍ قدْ تقتُلُهُ، و(بوليسُ) النَّجدةِ والإسعافُ في الطَّريقِ إليهِ..

واعترضَ الحادثُ جانبَ الطَّريقِ؛ فاضطرَّتِ السَّيّارةُ إلى الالتفافِ حَوْلَ السّورِ البشريِّ مُشارِكَةً التَّرامَ في ممْشاهُ، فضاقَ بها حتّى تحرَّكتْ في بُطءٍ شديدٍ، وتجمَّعتْ في صفوفٍ ممتدَّةٍ ومُتداخِلَةٍ، وهيَ تصرُخُ وتعوي بلا فائدةٍ، ومن رُكّابِها تطلَّعتْ أعينٌ إلى الضَّحيَّةِ في اهتمامٍ، وأعينٌ تجنَّبتِ النَّظرَ في جَزَعٍ، وجاءَ (بوليسُ) النَّجدةِ وراءَ صفّارتِهِ الحَلَزونيَّةِ فاتَّسعتِ الحلْقةُ، وغادرتِ القوَّةُ السَّيّارةَ إلى الرَّجُلِ المُلقى، وكانَ الضّابطُ حاسمًا وحازمًا، فأصدرَ أمرًا بتفريقِ المتجمِّعينَ، وتفحَّصَ الرَّجُلَ بنظرةٍ شاملةٍ، وسألَ الشُّرَطيَّ:

– ألمْ تحضُرِ الإسعافُ؟

وإذْ لمْ تكنْ ثمَّةَ ضرورةٌ إلى السُّؤالِ، فإنَّهُ لم يُلْقِ بالًا إلى الجوابِ، وتساءلَ مرَّةً أخرى:

– هلْ منْ شُهودٍ؟

فتقـدَّمَ ماسـحُ أحذيـةٍ، وسـائقُ (لـوري) وصبـيٌّ (كبابجـيٍّ) كانَ عائـدًا بصينيَّـةٍ فارغـةٍ، وأعـادوا علـى مَسْـمَعِ الضّابـطِ مـا حـدثَ منـذُ كانَ الرَّجُـلُ المَجهـولُ يتكلَّـمُ فـي التّلفـونِ، وجـاءتْ سـيّارةُ الإسـعافِ، وأحـاطَ رجالُهـا بالرَّجُـلِ، وتفحَّصَـهُ رئيسُـهُم بعنايـةٍ وحَـذَرٍ، وهـوَ يجلسُ القُرْفُصـاءَ، ثـمَّ نهـضَ متوجِّهًـا إلـى الضّابـطِ، فبـادرَهُ هـذا قائـلًا[5]:

5) بِمَ توحي تسميةُ الرّجلِ بالمجهولِ؟

– أظنُّ يجبُ نقلُهُ إلى الإسعافِ.

فقـالَ الآخـرُ بلهجـةٍ ذاتِ أثـرٍ لا يختلـفُ عـنِ الأثـرِ الَّـذي يحـدثُ عـادةً عـنْ جـرسِ سـيارتِهِ:

– بلْ يجبُ نقلُهُ إلى مُستشفى الدِّمرداشِ..

وأدركَ الضّابـطُ مـا يعنيـهِ ذلـكَ، علـى حيـنَ اسـتطردَ رجُـلُ الإسـعافِ قائـلًا:

– أعتقدُ أنَّ الحالةَ خطيرةٌ جدًّا.

وعندمـا أُرقِـدَ الرَّجُـلُ بحجـرةِ الفحـصِ بمستشـفى الدِّمـرداشِ كانـت طلائـعُ اللَّيـلِ تزحَـفُ كالجبـالِ، وفحَصَـهُ مديـرُ القسـمِ بنفسِـهِ، ثـمَّ التفتَ إلـى مُسـاعدِهِ قائـلًا[6]:

6) ضعْ خطًّا تحتَ الجملةِ الّتي تُشير إلى تأخرِ وصولِ الإسعافِ إلى المستشفى.

– إصابةٌ خطيرةٌ في الرِّئةِ اليُسرى، تُهدِّدُ القلبَ مُباشرةً..

– عمليَّةٌ؟

فهزَّ رأسَهُ قائلًا:

– إنَّهُ يُحتضَرُ..

وصدقَـتْ فِراسَـةُ الطَّبيـبِ، فقـدْ تحـرَّكَ الرَّجُـلُ حركـةً شـامِلةً كالرَّعْشَـةِ، واضْطَـرَبَ صـدرُهُ، اضطرابًـا مُتلاحِقًـا مُحَشْـرِجًا، ثـمَّ شَـهَقَ شَـهْقَةً خفيفـةً، واسـتكَنَّ، وكانَ الطَّبيبـانِ يراقبانِـهِ، فالتفـتَ المديـرُ نحـوَ

مُساعدِهِ وهوَ يقولُ:

– انْتهى..[7]

7) ما التّغييرُ الّذي طرأَ على الشّخصيّةِ منذُ بدايةِ القِصّةِ حتى هذهِ اللّحظةِ؟

وجاءَ ضابطُ النُّقطةِ، وكانَ الرَّجُلُ ما يزالُ راقدًا بكاملِ ملابسِهِ عدا فردةِ الحذاءِ المفقودةِ.

وقالَ الطَّبيبُ:

– هذهِ الحوادثُ لا تنتهي..

فقالَ الضّابطُ وهوَ يومِئُ إلى الفقيدِ:

– وشهادةُ الشُّهودِ ليستْ في صالحِهِ!

ثمَّ، وهوَ يقتربُ منَ السَّريرِ:

– أرجو أنْ نستدِلَّ على شَخصيَّتِهِ.

وشرعَ في عملهِ على حينَ بسطَ (الشّاويشُ) المُرافقُ لهُ ورقةً فوقَ مِنْضَدَةٍ، وتأهَّبَ بدورهِ لتسجيلِ المحضرِ.. ودسَّ الضّابطُ يدَهُ برفْقٍ في جيبِ الجاكِتَّةِ الدّاخليِّ؛ فاستخرَجَ حافظةَ نقودٍ قديمةً متوسِّطةَ الحجمِ، ومضى يفتِّشُها جَيبًا جَيبًا، ويُملي على الشّاويشِ[8]:

8) كيفَ صوَّرَ الرّاوي تعامُلَ الطَّبيبِ والضّابطِ معَ الرَّجُلِ المجهولِ؟

– خمسةٌ وأربعونَ قرشًا منَ العُملةِ الورقيَّةِ.

– (روشتةٌ) للدُّكتورِ فوزي سليمانَ..

وألقى نظرةً عابرةً على أسماءِ الأدويةِ، ولكنَّهُ لاحظَ وجودَ كتابةٍ على ظهرِها أيضًا، فجرَّهُ بصرُهُ عليها بلا إرادةٍ، فإذا بها: البيضُ والدُّهنيّاتُ ممنوعةٌ، ويُسْتَحْسَنُ تجنُّبُ المنبِّهاتِ كالشّايِ والقهوةِ والشّيكولاتَهِ، وابتسمَ الضّابطُ ابتسامةً باطنيَّةً؛ إذ إنَّ تعليماتٍ مماثلةً صدرتْ إليهِ من طبيبِهِ في نفسِ الشَّهرِ! ثمَّ واصلَ إملاءَهُ، وأصابعُهُ تستخرجُ منَ الحافظةِ محفوظاتِها:

– مجلَّدٌ صغيرٌ منَ السُّورِ القُرآنيَّةِ..

ولمّا لمْ يجدْ شيئًا آخرَ في الحافظةِ قالَ بضيقٍ:

– لا توجَدُ بطاقةُ تحقيقٍ شخصيَّةٌ!

وانتقلَ إلى الجيبِ الدّاخليِّ، وما لبِثَ أنْ قالَ بفتورٍ:

– ثلاثةُ قروشٍ ونصفُ، عُملةٌ معدنيَّةٌ.

وتوالى التَّفتيشُ، وتتابعَ الإملاءُ:

– منديلٌ، سلسلةُ مفاتيحَ، ساعةُ يدٍ..[9]

9) سجّلِ استنتاجاتِكَ عنِ الشَّخصيّةِ منْ خلالِ الجُمَلِ الّتي كانَ الضّابطُ يُمْليها على (الشّاويشِ)، وما كُتِبَ على ظَهْرِ الوصْفَةِ الطِّبيَّةِ؟

وكانَ آخرَ ما عثرَ عليهِ صفحةٌ مطويَّةٌ من كرّاسةٍ، فبَسَطها، فوجدَها رسالةً لمْ تُغلَّفْ بمظروفٍ بعدُ، فأمِلَ أنْ يُصادِفَ فيها ما يمكِنُ أنْ يُسْتَدَلَّ بهِ على شخصيَّةِ الرَّجُلِ، نظرَ أوَّلَ ما نظرَ إلى الإمضاءِ، ولكنَّهُ لم يزدْ عنْ (أخوكَ عبدُاللّهِ)، فعادَ إلى رأسِ الصَّفحةِ، ولكنَّ الرّسالةَ كانتْ موجَّهةً إلى (أخي العزيزَ أدامَهُ اللّهُ) فاستاءَ من هذهِ المعانَدَةِ، ولمْ يجدْ بُدًّا من قراءَتِها.

أخي العزيزَ أدامَهُ اللّهُ

اليومَ تحقَّقَ لي أكبرُ أملٍ في الحياةِ.

اضْطُرَّ إلى التَّوقُّفِ رافعًا عينَيْهِ إلى تاريخِ الرّسالةِ، وكانَ تاريخَ اليومِ نفسِهِ 20 فبراير، وامتدَّ بصرُهُ فوقَ الأسطُرِ إلى الوجْهِ الباهِتِ المَشوبِ بزُرْقَةٍ مُخيفةٍ، المُغْلَقِ كَسِرٍّ، الجامِدِ كَتِمثالٍ، ذلكَ الَّذي تحقَّقَ لَهُ أكبرُ أملٍ في الحياةِ[10]، وتساءلَ الطَّبيبُ:

10) في هذهِ الفِقْرةِ مُفارَقَةٌ صارِخَةٌ. ما هيَ؟ وما تأثيرُها في مشاعِرِكَ تجاه الشَّخصيَّةِ؟

– عثرتَ على شيءٍ؟

فانتبَهَ إلى نفسِهِ، وابتسَمَ ابتسامةَ استهانَةٍ؛ ليدلَّ على اعتيادِهِ أيَّ شيءٍ، وقالَ:

– اليومَ تحقَّقَ لي أكبرُ أملٍ في الحياةِ، بذلِكَ بدأتِ الرّسالةُ!

وعـادَ إلـى القـراءةِ متجنِّبًـا النَّظـرَ إلـى عينـي الطَّبيـبِ: فقـدِ انزاحـتْ عـنْ صـدري الأعبـاءُ المَريـرَةُ، انزاحـتْ جميعًـا والحمـدُ للّـهِ، أمينـةُ وبهيَّـةُ وزينـبُ فـي بيوتِهـنَّ، وهـا هـوَ علـيٌّ يتوظَّـفُ، وكلَّمـا ذكـرتُ الماضـي بمتاعِبِـهِ وَكَدْحِـهِ وقلقِـهِ وشـقائِهِ أحْمَـدُ اللّـهَ المَنّـانَ، وهـذا هـوَ النَّصْـرُ المبيـنُ.

واسـترقَ النَّظـرَ مـرَّةً أخـرى إلـى الإنسـانِ الرّاحِـلِ، الَّـذي لا يـدْري أحـدٌ مَقـرَّهُ، الَّـذي يثيـرُ الدَّهشَـةَ بصمْتِـهِ، وانعزالِـهِ وارتـدادِهِ العميـقِ إلـى المجهـولِ، المتاعِـبُ والقلـقُ والشَّـقاءُ والأمـلُ الكبيـرُ والنَّصْـرُ المبيـنُ! وبعـدَ تفكيـرٍ طويـلٍ قـرَّ رأيـي علـى تـرْكِ الخدمَـةِ فِعْـلًا. فهيهـاتَ أنْ تتَحسَّـنَ صحَّتـي طالَمـا بقيـتُ فـي المدينـةِ، وحسَـبْتُ الحِسْـبَةَ، فوجدتنـي أخـدِمُ فـي الحكومَـةِ بثـلاثِ جُنيهـاتٍ، هـيَ الفـرقُ بيـنَ المُرَتَّـبِ والمعـاشِ، ولذلِـكَ قـرَّرتُ أنْ أطْلُـبَ إحالَتـي علـى المَعـاشِ، وقريبًـا أعـودُ إلـى البلـدِ إنْ شـاءَ اللّـهُ، وسـوفَ أنضَـمُّ إلـى مجلـسِ الظَّريـفِ عنـدَ عبدِالتَّـوابِ شـيخِ الخَفَـرِ، أمّـا الآنَ فـكلُّ شـيءٍ بخيـرٍ، وليـسَ فـي الإمـكانِ خيـرٌ ممّـا كانَ[11].

وطوى الضّابطُ الرّسالةَ وهوَ يقولُ:

– إنَّـهُ موظَّـفٌ كَمـا يُفْهَـمُ مـنْ خطابِـهِ، ولكـنْ ليـسَ بِـهِ مـا يُمْكِـنُ الاسـتدلالُ علـى هُويَّتِـهِ.

فقالَ الطَّبيبُ:

– سـتُتَّخَذُ الإجـراءاتُ المألوفَـةُ، وغالبًـا مـا يجيـئُ أهلُـهُ فـي الوقـتِ المُناسِـبِ، فيتسـلَّمونَ الجُثَّـةَ مـنَ المشْـرَحَةِ.[12]

11) أكملْ وصفَكَ للشخصيَّةِ منْ خلالِ ما تستنْتِجُهُ عنْها في هذهِ الفِقْرَةِ.

12) بِمَ يوحي وصفُ الطَّبيبِ للرَّجُلِ بأنَّهُ (جُثَّةٌ)؟

نظّارةٌ طبيّةٌ لسائقٍ باكستانيٍّ عجوزٍ*

مريم السّاعدي

بـدتِ الرُّؤيـةُ مُضبَّبَـةً. أخـرجَ مِنديـلًا مِـنْ جَيبِـهِ. خلـعَ نظّارتَـهُ. الإشـارةُ حمـراءُ. قبـلَ أَنْ يرفـعَ المِنديـلَ إلـى زُجـاجِ النَّظّـارةِ، سـقَطَ المِنديـلُ سـهْوًا تحـتَ الكُرسـيِّ، انحنـى لالتقاطِـهِ، سـقطَتِ النَّظّـارةُ، نـزلَ يبحَـثُ عنهـا، لمَسَـها، قبـلَ أَنْ يُمسِـكَها اندفعَـتْ إلـى تحـتِ المِقعَـدِ، الأبـواقُ ترتَفِـعُ، تُطالبُـهُ بالتَّحـرُّكِ، الإشـارةُ خَضـراءُ، يَتمهَّـلُ قليـلًا عَلَّـهُ يلتقِطُهـا، الأبْـواقُ تُزَمْجِـرُ، الرَّجُـلُ لا يـرى بوضـوحٍ مـنْ دونِهـا، يتحـرَّكُ، هـوَ يعـرِفُ أبوظبـي جَيِّـدًا، يعـرفُ شـوارعَها، يَحفَظُهـا عَـنْ ظَهْـرِ قلْـبٍ، هـوَ سـائقٌ مِـنْ ثلاثيـنَ عامًـا، لكـنْ، هنـاكَ تعديـلاتٌ كثيـرةٌ الآنَ، وتحويـلاتُ الشّـوارعِ غيَّرتْ مجرى كُلِّ الطُّرُقـاتِ، حَسَـنًا، سـيقودُ إلـى الأمـامِ، فقـطْ إلـى الأمـامِ وبتَمَهُّـلٍ تـامٍّ. السّـياراتُ أشـباحٌ أمامَـهُ، لا شـيءَ يبـدو مُحـدَّدَ الملامِـحِ، لا بـأسَ سَيَسْـتَمِرُّ فـي التَّقـدُّمِ إلـى الأمـامِ حتّـى الإشـارةِ الحمـراءِ التّاليـةِ، سـيَجِدُ هـذهِ النَّظّـارةَ اللَّعينـةَ.

هـوَ سـائقٌ ماهـرٌ، يُمكـنُ أَنْ يقـودَ مُغْمَـضَ العينَيْـنِ كمـا يقـولُ المَثَلُ، لديهـمْ أقـوالٌ مأثـورةٌ كثيـرةٌ فـي بَلـدِهِ، يتصـوَّرُ أنَّهـمْ لا يَمتلِكـونَ سـوى الأقـوالِ المأثـورةِ، ويضحـكُ بينَـهُ وبيـنَ نفْسِـهِ هـازًّا رأسَـهُ فـي أَسَـفٍ علـى حـالِ بَلـدِهِ. تمنّـى لـو كانَ لديهـمْ أقـوالٌ مأثـورةٌ أَقَـلُّ وحُسْـنُ إدارةٍ أكثـرُ «لكـنْ هـلْ هـوَ حقًّـا حُسْـنُ إدارةٍ؟» ربّمـا هـوَ نَقْـصُ المـالِ؟ ربّمـا هـيَ الأطمـاعُ الخارجيّـةُ؟ رُبّمـا هـيَ الأطمـاعُ الدّاخليّـةُ؟[1] «يتسـاءلُ وهـوَ يَسـتمِعُ إلـى الرّاديـو، يَحمَـدُ اللّـهَ أنّـهُ يَسـمَعُ جَيِّـدًا. لَـنْ يَخشـى وقـوعَ سـمّاعةِ الأُذُنِ وبالتّالـي يَفقِـدُ

1) ما إحساسُ الشَّخصيّةِ نحوَ بلدِها؟

* أبدو ذكية (2009)، دار العالم العربي للنشر والتوزيع، دبي

السَّـمْعَ» السَّـمْعُ نِعمَـةٌ، كُلُّ الحـواسِّ الخَمْـسِ نِعمَـةٌ، يـا اللّـهُ! كَـمْ هـذا كريـمٌ! أَنْ نمتلِـكَ هـذهِ الحـواسَّ الصَّغيـرةَ، مُجـرَّدُ تَجويفَيـنِ فـي الـرَّأْسِ مِـنَ الأمـامِ، ومِـنَ الجانِبَيْـنِ لِنـرى العالـمَ الأكبـرَ، ونَسـمعَ أنغامَـهُ وأخبـارَهُ، ونكـونَ بسببِ هـذهِ التَّجاويـفِ أشـخاصًا أكثـرَ قُرْبًـا مِـنَ العالَـمِ، وأكثـرَ التِصاقًـا بالآخـرِ الّـذي يُشـبِهُنا فـلا نَشـعُرُ بالوَحـدَةِ. فعـلًا كمـا قـالَ المَثَـلُ: «الصِّحَّـةُ تُساوي أَلْـفَ هِبَـةٍ أُخـرى». الشُّـعورُ بالوَحـدَةِ مِثْـلُ الشُّـعورِ بالضَّـلالِ، أخَـذَ يُفكِّـرُ بينَـهُ وبيـنَ نفْسِـهِ.

2) ماذا نُسمّي هذهِ اللَّحظةَ في زمنِ القِصَّةِ؟

[2]تذكَّـرَ أوَّلَ مـرَّةٍ دخـلَ فيهـا مَركَـزَ تَسـوُّقٍ، شَـعَرَ بأنَّـهُ وحيـدٌ، بأنَّـهُ ضـالٌّ، كانـتِ الأصـواتُ عاليـةً، أصـواتٌ كثيـرةٌ، صَـدى الأصـواتِ في الواقـعِ، تَنْبُـعُ مِـنَ الأرضيّـاتِ الرُّخاميّـةِ، الواجِهـاتِ الزُّجاجيَّـةِ، الأسـقُفِ اللّامعـةِ، حتّـى مُجـرَّدُ تنفُّـسِ الواحـدِ يُنتِـجُ صوتًـا تتـردَّدُ أصـداؤُهُ فـي كُلِّ الأركانِ، وكانَ المركـزُ مُكتَظًّـا بكُلِّ أشـكالِ البَشَـرِ، كانَ قـدْ أَوصَـلَ زبونًـا إلـى دبـيّ، ففكَّـرَ فـي التَّوقُّـفِ لبعضِ الوقـتِ، واكتشـافِ هـذهِ الأماكـنِ الّتـي يُسـمّونَها (المـولات) ثُـمَّ أرادَ حيـنَ يعـودُ إلـى بَلـدِهِ أَنْ يحكـيَ لأحفـادِهِ مـاذا رأى فـي دبـيّ، مدينـةِ العجائـبِ، يعنـي قـالَ لنَفْسِـهِ: مِـنْ غيـرِ المعقـولِ أَنْ أحيـا ثلاثيـنَ عامًـا فـي هـذا البلـدِ دونَ أَنْ أرى سـوى إسـفلتِ الشَّـوارعِ[3].

3) مِنْ هذا السَّطْرِ كيفَ تتصوَّرُ حياةَ هذا السّائقِ؟

لَـمْ يَسـتوعِبِ المشـهَدَ فـي البدايـةِ عندَمـا خطـا خطواتِـهِ الأولـى إلـى داخـلِ المـولِ، كانَ المـكانُ غيـرَ مفهـومٍ تَمامًـا، واجِهـاتٌ برّاقـةٌ كثيـرةٌ، ونـاسٌ كثيـرونَ، رأى تَجَمهُـراتٍ كثيـرةً، لكـنْ هنـاكَ بـدا الأمـرُ مختلِفًـا، يبـدونَ أشـخاصًا منتميـنَ للمـكانِ، ليسَ مجـرَّدَ تَجَمهُـرٍ، كأنَّهـمْ قـدْ وُلِـدوا في المـولِ، وهـوَ لَـمْ يَستوعِبِ المَشـهَدَ بعْـدُ. توقَّـفَ لحظـاتٍ يُلقـي نظـرةً عامَّـةً علـى المـكانِ، تجـوَّلَ

قليـلًا، كانـتِ الرُّؤيـةُ جيّـدةً، لكـنْ فقـطْ بـدَتِ الألـوانُ والأضـواءُ كثيـرةً بالنِّسـبةِ لِعينَيْـهِ اللَّتَيْـنِ لَـمْ تتعـوَّدا كُلَّ هـذا اللَّـونِ والضَّـوءِ فـي مـكانٍ واحـدٍ مـرَّةً واحـدةً، ارتـأى أَنْ يجلـسَ بعـضَ الوقـتِ فـي أَحَـدِ المقاعـدِ القريبـةِ «آه .. المـكانُ مُبْهِـرٌ، لا أدري مـعْ ذلـكَ مِـنْ أيـنَ يأتـي كُلُّ هـذا اللَّمَعـانِ، أَتُراهـا أرضيّـاتٍ مُذَهَّبـةً؟» تسـاءلَ بينَـهُ وبيـنَ نَفْسِـهِ «يـا لـي مِـنْ أحمَـقَ! حتْمًـا هـيَ فقـطْ شِـدَّةُ النَّظافـةِ وجَـودَةُ المـوادِّ المُستخدَمةِ. حَسَـنًا ربَّمـا عليَّ التَّحـرُّكُ الآنَ لِرؤيـةِ المزيـدِ، لَـنْ أتوقَّـفَ هكـذا كُلَّ يـومٍ لِأرى أكثـرَ شـيءٍ مُمْكـنٍ».

كانَ يُحـدِّثُ نفْسَـهُ طَـوالَ الوقـتِ؛ ليَشـعُرَ بالأُلْفـةِ، ليقـاومَ ذاكَ الشُّـعورَ الغريـبَ الّـذي اجتاحَـهُ حـالَ وطئَـتْ قدمـاهُ عتبَـةَ المركـزِ، ذاكَ الشُّـعورُ بأَنَّـهُ لا ينتمـي. بأَنَّـهُ غيـرُ مرئـيٍّ. بأَنَّـهُ غيـرُ موجـودٍ. يكرَهُ هـذا الشُّـعورَ، لذلـكَ حـرَصَ دومًـا ألّا يَخـرُجَ مِـنْ سـيّارتِهِ إلّا إلـى رفاقِـهِ مِـنَ السّـائقينَ. هُـمْ يُشْـبِهونَهُ، ويَشـعُرُ بأَنَّـهُ مُهِـمٌّ، هـوَ بينَهـمْ حكيـمٌ ووَقـورٌ، وكلامُـهُ مسـموعٌ، ورأيُـهُ لـهُ ثِقَـلٌ ووَزْنٌ ومِعيـارٌ، هنـا يَشـعُرُ بأَنَّـهُ.. بأَنَّـهُ لَـمْ يسـتطِعْ تحديـدَ شـعورِهِ بالضَّبـطِ فـي ذاكَ الوقـتِ، أرادَ فقـطِ التَّغلُّـبَ عليـهِ[4]، تجـاوُزَهُ، لا يجـبُ أَنْ يَهـزِمَ أَيُّ مـكانٍ –مهمـا يَكُـنْ برّاقًـا وصاخِبًـا– رجُـلًا عجـوزًا عَـرَفَ الدُّنيـا والنّـاسَ. المعرِفَـةُ آمَـنُ دومًـا، إنّهـا تَذْكِـرَةُ دخـولِ الإنسـانِ إلـى أيِّ مـكانٍ فـي العالَـمِ، حيـنَ تكـونُ «عارِفًـا» يكـونُ مُرَحَّبًـا بـكَ فـي أيِّ مـكانٍ، فـلا داعـيَ للتَّصـرُّفِ، وكأَنَّكَ ولَدٌ صغيـرٌ، أوْ قَـرَويٌّ جاهلٌ لا يَعـرِفُ مِـنْ أيِّ طريـقٍ يتَّجـهُ، كيـفَ يَسـتَخدِمُ دوراتِ الميـاهِ الحديثةَ. هـوَ رجُـلٌ عَـرَفَ «الدُّنيـا» وكُلُّ شـيءٍ بعدَ ذلـكَ تافهٌ وصغيـرٌ ومقدورٌ عليـهِ. قـرَّرَ التَّوجُّـهَ إلـى أَحَـدِ السَّـلالِمِ المُتحرِّكـةِ أمامَـهُ، وَصَـلَ للطّابَـقِ الثّانـي، تجـوَّلَ قليـلًا، واجِهـاتٌ أُخـرى كثيـرةٌ، محـلّاتٌ،

4) كيفَ كانَ يَشعُرُ حينَ كانَ في المولِ؟ وكيفَ هوَ شعورُهُ حينَ يكونُ بينَ زملائِهِ؟

مَلابِسُ، أحذيَةٌ، حقائبُ، مُجوهَراتٌ، ساعاتٌ، تساءَلَ: هَلْ حقًّا يحتاجُ النّاسُ كُلَّ هذهِ البَضائِعِ؟ ماذا يعني أَنْ يكونَ لديكَ مَلابِسُ، وأحذيَةٌ، وحقائبُ، وساعاتٌ، ومُجوهَراتٌ كثيرةٌ؟ كُلُّ هذهِ أشياءُ لتزييِن الجسدِ، لماذا كُلُّ هذا الصَّرْفِ والعَناءِ لأجْلِ الجسدِ؟ ماذا بقيَ لتزييِن الرّوحِ؟ هُمْ يُزيِّنونَ الجسدَ ليُعالِجوا الرّوحَ. قالَ زميلُهُ السّائقُ في وقتٍ سابقٍ، كانوا يَتحدَّثونَ عَنِ الأثرياءِ وكيفَ يُنفِقونَ أموالَهمْ، في الواقعِ كانوا يَتحدَّثونَ عَنْ زميلٍ لهمْ بُتِرَتْ قَدَمُهُ في حادثٍ، ويتشاورونَ كيفَ يُمكنُ أَنْ يَجمَعوا لهُ المالَ ليشتريَ قَدَمًا اصطناعيّةً ثُمَّ تَطرَّقوا للأثرياءِ، ولوْ أَنَّهمْ يَتسقَّطونَ أخبارَ الفُقراءِ ليَفُكّوا أَزماتِهمُ الطّارئةَ. هُمْ لَمْ يَتحدَّثوا عَنْ رَغبتِهِمْ في أَنْ يكونوا هُمْ أنفُسُهمْ أثرياءَ. بَدَتْ مُجرَّدُ هذهِ الأُمنيةِ غيرَ منطقيَّةٍ. في النِّهايةِ يجبُ أَنْ يقومَ أَحَدٌ بِدَورِ العامِلِ والسّائقِ، لا يمكنُ للكُلِّ أَنْ يكونوا أثرياءَ بِحُجَّةِ العدالةِ الاجتماعيّةِ؛ لذلكَ يَحرِصونَ دومًا أنْ تكونَ أُمنياتُهمْ منطقيَّةً. ليسَ مِنَ السَّيِّئِ أنْ تكونَ سائقًا. همْ لا يَعتبِرونَ أنْفُسَهمْ فُقراءَ. فالفقيرُ هوَ منْ لا يَجُدُ ما يأكلُهُ. وهُمْ يَجِدونَ ما يأكلونَ، ويَستَتِرونَ جَيِّدًا بثيابٍ وافيةٍ غيرِ مُمزَّقةٍ. ربَّما تَتمزَّقُ الأحذيةُ أحيانًا، لكنَّ هذا طبيعيٌّ، يعني كيفَ تتوقَّعُ مِنْ حذاءٍ تَسيرُ بهِ على أراضٍ مُختلِفةٍ بِكُلِّ ثِقَلِكَ أَنْ يَظَلَّ مُحتفِظًا بهيئتِهِ طَوالَ الوقتِ. عُمومًا يَستطيعونَ تغييرَ الحِذاءِ المُهتَرِئِ، لكنْ غالبًا يُفضِّلونَ الصَّبْرَ للرَّمَقِ الأخيرِ، قدْ تَأتي حاجَةٌ مُلِحَّةٌ أكثرُ لِصَرْفِ المالِ فيها. مِثْلُ توفيرِ مَبْلغِ القَدَمِ الاصطناعيَّةِ لِزميلِهمُ المِسْكينِ. سَيَسيرُ الكثيرُ مِنْهمْ بأحذيةٍ مُمَزَّقةٍ، يَعلمونَ تَبِعاتِ قرارِهِمْ ذاكَ.

بعْـدَ تَجـوالٍ طويـلٍ اصطَـدَمَ أَنْفُـهُ برائحـةِ أطعِمـةٍ، كانـتِ المَطاعِـمُ مُصطَفَّـةً فـي تنـوُّعٍ كبيـرٍ، اتَّجـهَ لأقرَبِهـا إليـهِ، توجَّـهَ إلـى البائـعِ الواقـفِ خَلْـفَ طاولـةٍ مُستطيلَةٍ، طَلَـبَ بِلُغتِـهِ العربيّـةِ المُكسَّـرةِ (ساندويتشًـا)، الرَّجُـلُ لَـمْ يَسـمَعْهُ، طَلَـبَ إليـهِ الإعـادةَ، لكنَّـهُ لَـمْ يَسـمَعْهُ، كانَ صـدى الضَّوضـاءِ يُشـعِرُهُ بالصَّمَـمِ، أعـادَ طلبَـهُ، الرَّجـلُ يسـأَلُهُ عَـنْ أَيِّ نـوعٍ (سـاندويشٍ) يَتحـدَّثُ، لَـمْ يَفهَـمْ مـا يقـولُ، البائـعُ يبـدو فلبّينيًّـا، لا يُجيـدُ العربيّـةَ تمامًـا، وهـوَ لا يُجيـدُ الإنجليزيّـةَ، حَسَنًا، بـدا البائـعُ نافِـدَ الصَّبـرِ، يُكـرِّرُ سُـؤالَهُ عَـنْ طلبِـهِ، بـدَتْ ملامِحُـهُ حـادَّةً، وحيـنَ لَـمْ يتلَـقَّ مِنـهُ إجابـةً فوريّـةً تجاهَلَـهُ لزبـونٍ آخـرَ. وقَـفَ مكانَـهُ، شَـعَرَ بالإحـراجِ، دومًـا تَصَـوَّرَ أَنَّ لُغتَـهُ العربيّـةَ جيِّـدةٌ، وأَنَّ سـمْعَهُ جيِّـدٌ. وأَنَّ النّـاسَ يَحترِمونَـهُ فـي ذلـكَ المـكانِ بَـدَتْ كُلُّ تلـكَ الحقائـقِ موضِعًـا للشَّـكِّ[5].

5) ما إحساسُكَ تِجاهَ الشَّخصيَّةِ في هذهِ اللَّحظَةِ؟

قـررَّ التَّخلّـي عَـنْ فِكـرَةِ (السّـاندويتشِ) وعـادَ إلـى سـيّارتِهِ. شَـعَرَ كأَنَّـهُ يعـودُ إلى الوَطـنِ، يتذكَّـرُ شُـعورَهُ، لَـمْ يَشـعُرْ أَنَّـهُ يُحِـبُّ سـيّارتَهُ (التّاكسـي) كمـا أحبَّهـا فـي ذلـكَ اليـومِ. أحبَّهـا مِثْـلَ وَطنِـهِ، مِثْـلَ أُمِّـهِ.

6) ماذا حدَثَ لحركةِ الزَّمَنِ هنا؟

[6]تـدورُ برأسِـهِ كُلُّ هـذهِ الأفكارِ وهُـوَ يقـودُ بِبُطءٍ فـي خـطٍّ مُستقيمٍ، مُتحمِّـلًا زَمجَـرَةَ أبـواقِ السّـياراتِ الّتـي تُطالِبُـهُ بالإسـراعِ فالشّـارعُ ليـسَ «شـارِعَهُ» يسـتمِرُّ حتّـى يَنتبِـهَ لتوقُّـفِ السّـياراتِ أمامَـهُ وبجانبِـهِ، يُـدرِكُ أَنَّـهُ وَصَـلَ لإشـارةٍ حمـراءَ، يَحمَـدُ اللّـهَ، يتوقَّـفُ، يبحـثُ عَـنِ النَّظّـارةِ تَحـتَ مَقعـدِهِ، بسُـرعةٍ، بسُـرعةٍ، لَـمْ تكُـنْ سُـرعةً كافيـةً، تَفتَـحُ الإشـارةُ، يُضطَـرُّ للتَّحـرُّكِ قبـلَ أنْ يَلتهِمَـهُ غـولُ الشّـارعِ الغاضـبِ. يَضغـطُ على البنزيـنِ تحـتَ ضغـطِ هديـرِ الأبـواقِ، صـوتُ ارتطـامٍ مُفاجِـئٍ وقـويٍّ، ولَـمْ يَعـرِفْ مـاذا حَـدَثَ

بعْـدَ ذلـكَ.

يَجِـدُ نفْسَـهُ محصـورًا تحـتَ أسـياخِ السّـيارةِ، يَشـعُرُ ببَلَـلٍ دافـئٍ يحيـطُ بـهِ، يسـمعُ أصـواتَ النّـاسِ «هـذا السّـائقُ المُتهـوِّرُ هـوَ مَـنْ تَسـبَّبَ بالحـادثِ طَـوالَ الطَّريـقِ يسـيرُ مِثْـلَ سُـلَحفاةٍ ثُـمَّ فجـأةً يـدوسُ علـى (البِنزيـنِ)»، يسـمعُ أصواتًـا أُخـرى تَـرُدُّ عليـهِ «قيـادةُ هـؤلاءِ رَعْنـاءُ دومًـا، نَعَـمْ بالأمْـسِ تسـبَّبَ سـائقُ (تاكسـي) بدَهْـسِ طِفلـةٍ، يجـبُ اسـتبدالُهمْ، لا يُجيـدونَ التَّعامـلَ مَـعَ الجُمهـورِ»، يَسـمعُ صـوتَ صَفّـارةِ الإسـعافِ، يَـدٌ تمتـدُّ إليـهِ لانتشـالِهِ، صـوتٌ يَطلُـبُ إليـهِ مَـدَّ يَـدِهِ خارجًـا إذا كانَ يَسـمَعُهُ. يَسـحبُ يَـدَهُ مِـنْ تحـتِ ثِقَـلٍ مـا، المَقعَـدُ رُبَّمـا، تصطـدِمُ بشـيءٍ، يُمسِـكُ بـهِ، يَتحسَّسُـهُ، إنّهـا نظّارتُـهُ، يَتمسَّـكُ بهـا، الصَّـوتُ يُناديـهِ أَنْ يمُـدَّ يـدَهُ، أَنْ يُفْلِـتَ قبضتَـهُ، لكـنْ لا، أبـدًا، ليـسَ مُجـدَّدًا، ليـسَ بعْـدَ أَنْ وجدَهـا.

حتّى آخرِ رَمَقٍ
عائشة الزّعابي

وَأخيرًا..

رَضَخَ زَوجي بَعد طولِ صِراعٍ أن يَستَدينَ لِنُسافِرَ هذا الصَّيفَ.. وَهَلْ كانَ يَتَوَقَّعُ مِنّي تَحَمُّلَ حَرارَةِ صَيفِنا وَشِوائِهِ اللّاهِبِ؟

اعتَمَدتُ عَلى خِبرَتي القَيِّمَةِ كَأُنْثى.. أَخذتُ نَفَسًا عَميقًا وَأنا داخِلَ مَعرَكَةٍ جَديدةٍ أعرِفُ نَتائِجَها سَلَفًا.. تَعبَّأتُ بِالصَّبرِ وَطولِ البالِ.. وزادَ (الدَّقُّ) حتّى تَفَكَّكَتْ أَوصالُهُ واستَجابَ لِطَلَبي.. كالعادَةِ!

لَمْ أكُن مِن أولئكَ النِّسوَةِ اللّائي يَيْئَسنَ بسرعَةٍ.. وَبِأَنَفِ امرأةٍ خَبيرَةٍ عَرفتُ مَداخِلَ زَوجي وَمَخارِجَهُ.. وَكلَّ مَسرَبٍ مِن مَسارِبِه، كنتُ أملِكُ سِدادَتَهُ وَمَفاتيحَهُ بيدي.. أُلوِّحُ بِها متى أشاءُ وكيفَما أشاءُ.

«مَرحبًا بِكُم عَلى خُطوطِ الطّيَرانِ الماليزيِّ..رِحلَتُنا سَتكونُ نَحو ماليزيا.. الرِّحلَةُ تَستَغرِقُ سَبعَ ساعاتٍ مَع تَوقُّفٍ في باكستان».

حينَ حَلَّقَت بِنا الطّائِرَةُ استَرخَيتُ على الكُرسيِّ.. شَعَرتُ بِالرّاحَةِ العَميقَةِ بَعدَ قَلَقٍ عَظيمٍ.. كُنتُ خائفَةً أن تَشمَتَ بي جاراتي وصَديقاتي حينَ يُلغي زَوجي فِكرَةَ السَّفَرِ مِن أَجِندَتِهِ.. وَأنا الّتي أَلهَبتُ مَشاعِرَهُنَّ بِالغيرَةِ والقَهرِ...

– حَبيبي أحمَد.. أَقسَمَ عليّ ألّا أَبقى تَحتَ شَمسِ هذا الصَّيفِ.

– عُمري أحمَد.. مُحتارٌ إلى أينَ يُسافِرُ بي!!

– هَلْ سافَرَت إحداكُنَّ إلى بَلجيكا أو ماليزيا؟ مُحتارَةٌ بَينهُما؟

كُنتُ أَعرِفُ ألّا ظُروفُهُنَّ ولا ظُروفي تَسمَحُ بالسَّفرِ حتّى إلى (صَلالَةَ)

في عُمان.. وَلكنَّ طَقمَ الذَّهَبِ الّذي هَرَستني به جارَتي (علياءُ) أشعَلَ قَلبي، وَقَلَبَ كَياني.. جَعَلَني أتَقَلّى في فِراشِ القَهرِ والغيرَةِ.. كانَ يَومًا كَسيفًا حينَ جاءَت وَهي تَتباهى بِالطَّقمِ وَتَتَعَمَّدُ بِمناسَبَةٍ أو دونَها إسقاطَ الشّيلَةِ والعَباءَةِ ليَظهَرَ الطَّقمُ مُتَرَبِّعًا على صَدرِها المَكشوفِ أكثَرَ مِنَ اللّازِمِ.. تَلَمَّسَت يَدايَ صَدريَ العاري مِنَ الذَّهَبِ.. لتَشتَعِلَ النّيرانُ وَتَتَأجَّجَ في صَدريَ المَحقونِ بِالغيرَةِ.. وَتَحَوَّلَت عَيناياَ إلى طَلَقاتٍ ناريَّةٍ أقذِفُها في وَجهِ عَلياءَ.. لَيلَتَها لَم أَنم.. تَقَلَّبْتُ على جَمَراتِ الفِكرِ والتَّخطيطِ.. كيفَ أرُدُّ الصّاعَ صاعَينِ؟ لَو اشتَرَيتُ طَقمًا مِثلَها سَتَقولُ غارَت وَقلَّدَتْني؟.. لا بُدَّ أن تَكونَ ضَربَتي شَيئًا مُختَلِفًا وَغَيرَ مَعهودٍ بِالنِّسبَةِ لِهؤلاءِ النِّسوَةِ الثَّرثاراتِ.

في الصَّباحِ.. كُنتُ أوَّلَ المُستَيقِظينَ.. وَقَفتُ عِندَ حُلقومِهِ.. كُنتُ أُرَدِّدُ عِبارَةً واحِدَةً لا غَيرَها:

– أُريدُ أن أُسافِرَ.

فَرَكَ عَينَيهِ.. ارتَسَمَ الاندِهاشُ في وَجهِهِ.. قالَ وَهُوَ يَعُضُّ على شَفَتَيهِ:

– مِن أينَ ياحَسرَتي؟

– لا أعرِفْ.. تَحَسَّرْ على راحَتِك.. أُريدُ أن أُسافِرَ.

ومُنذُ ذلكَ الوَقتِ بَدَأَت مَعرَكَةٌ أَشَدُّ مِن (دِرعِ الجَزيرَةِ). كانَ هُجومًا لا تَقِفُ أَمامَهُ لا المُدَرَّعاتُ الحَربيَّةُ ولا جَنازيرُها.. سَقَطَت رايَتُهُ.. وانبَسَطَت قِلاعُهُ وَحُصونُهُ المَنيعَةُ أمامَ هَديريَ الكاسِحِ الّذي دَأَبتُ عَليهِ لَيلَ نَهارَ، مُنذُ ساعاتِ الصَّباحِ الباكِرِ حتّى آخرِ نَفَسٍ مِنَ اللّيلِ. كانَ يَظُنُّ مُتَوَهِّمًا أنَّني سَأستَسلِمُ لِلواقِعِ...ولكنَّ الّذي حَصَلَ أنَّهُ رَفَعَ الرّاياتِ البَيضَ والحُمرَ وكلَّ الألوانِ، وها أنا في مَقعَدي في الطّائِرَةِ..

لا أصَدِّقُ نَفسي!! كَم كُنتُ أَحلُمُ بِالسَّفَرِ البَعيدِ والتِّجوالِ حَولَ العالَمِ..

أُشاهِدُ (دانيةَ الخَطيبِ) وقافِلَتَها في رِحلاتِها المُختَلِفَةِ فَأَعَضُّ أنامِلي قَهرًا وغيظًا، وَأنظُرُ إلى زَوجيَ الفَقيرِ، وَأَتحَسّرُ. لماذا لاتَتَحقّقُ أَحلامُنا الكَثيرةُ؟ مُنذُ وَعَيتُ عَلى الدُّنيا وَأحلامي مَسروقَةٌ أو مبتورَةٌ.. حَلُمتُ بإكْمالِ دِراسَتي وَأن أُصبِحَ طَبيبَةً مَشهورَةً، لكنَّ رُسوبيَ المُتكرِّرَ زَجَّ بي بَينَ جُدرانِ بَيتيَ الكئيبِ.. تَخَيَّلتُ زَوجَ المُستَقبَلِ غَنيًّا سَيَحمِلُني على كُفوفِ الرّاحَةِ فَإذا أنا خادِمَةٌ في بَيتِ أبيهِ الكَبيرِ[1].. رَضيتُ بِهِ وَأَردْتُهُ زَوجًا يَصنَعُ مِنَ المُتَعِ الصَّغيرَةِ أفراحًا كَبيرةً فَإذا بِهِ لايَعرِفُ شَرقَ الأرضِ مِن غَربِها.. وَلا يَملِكُ سِوى قَلبٍ طَيِّبٍ لِلغايَةِ. وعَقلٍ صَدِئٍ للغايَةِ[2]!! كُلُّ أحلامي بَعيدَةٌ.. إلّا هذا الحُلُمَ الوَحيدَ الّذي انتَزَعتُه مِن سماواتِ المُستَحيلِ.

1) كيفَ تَرى الشَّخصيَّةُ/الرّاويَةُ نَفسَها؟ وَعَلامَ يَدُلُّ ذلِكَ؟

2) كيفَ تَرى الشَّخصيَّةُ/الرّاويةُ زَوجَها؟ عَلامَ يَدلُّ ذلكَ؟

– سَعيدَةٌ ياحَبيبَتي؟ لَم أَكنْ أَرغَبُ في إشعارِهِ بِأنّهُ حَقَّقَ مُعجِزَةً.. لَويتُ شِفاهي:

– إلى أَينَ ياحَسرَتي.. ليسَت إلّا ماليزيا.. النّاسُ تُسافِرُ إلى بَلجيكا.. إلى أوروبا.. إلى أُستُراليا..

أَطبَقَ بيَدِهِ على فَمي، وهُوَ يُحَوقِلُ وَيُتَمتِمُ بِعِباراتٍ، لم يَرغَبْ مَزاجي الرّائِقُ في فَكِّ رُموزِها كَعادَتي مَعَهُ.

ما أجملَ السُّحُبَ البَيضاءَ! تَبدو كَنُتَفِ القُطنِ النّاعِمَةِ.. هَل نَحنُ فِعلًا مُعَلَّقونَ بَينَ سَماءٍ وَأرضٍ؟! كُنتُ كالبَلهاءِ أُصَوِّرُ كلَّ شَيءٍ، السُّحُبَ.. كَراسي الطّائِرةِ.. حتّى الوَجبَةَ الّتي تَناوَلتُها في الطّائِرَةِ.. رُبَّما لا تُصَدِّقُني الجاراتُ؛ فَتَكونَ دَليلَ إثباتٍ!

– كَم مَضى مِنَ الوَقتِ؟ سَألتُهُ مُتَلَهِّفَةً..

– ثلاثُ ساعاتٍ وأكثرُ..

ياه.. رِحلَةٌ طَويلَةٌ. لا بأسَ، كلُّ شَيءٍ يَهونُ مِن أَجلِ إغاظَةِ (عَلياءَ)

وَتوابِعِها. فكَّرتُ في أن أتَّصِل بِها فَورَ وُصولِيَ المَطارَ.. لَن تُصدِّقَ أنَّني فِعلاً سافَرتُ.. أريدُ أن يَتَعَكَّرَ مِزاجُها وَيسوءَ يَومُها.

كانَت دائِمًا نِدًّا لي، في المدرَسةِ والحَيِّ، تَتَباهى بِجَمالِها الأخّاذِ وَطولِها الفارِعِ، وَحينَ تَزوَّجَتْ، خَطَفَت مَن مالَ لَهُ قَلبي مُنذُ صِغَري.. لَم يَشعُر بِوُجودي في ظِلِّ (عَلياءَ) كانَت العُيونُ لا تَرى إلّا جَمالَها.. ولا تَتَتَبَّعُ إلّا أخبارَها، مِن أَخواتِهِم وَأمَّهاتِهِمُ الدّاخِلاتِ والخارِجاتِ مِن بَيتِهِمُ الكَبيرِ.

وَحينَ تَزوَّجَتْ .. كانَ زَواجُها حُلُمَ كُلِّ فتاةٍ.. أمّا أنا فَكانَ زَواجي تَقليديًّا.. لَم أفرَحْ وَلَم أَحزَنْ.. حتّى زَوجي لَم يُظهِرْ أيَّ شُعورٍ بِنَشوَةِ الانتِصارِ، بِأَنَّهُ فازَ بي مِن دونِ شَبابِ الحَيِّ، وأَنَّهُ استَحقَّني بِجدارَةٍ كَما فَعلَ زَوجُ (عَلياءَ)، لَو كانَ فَعَلَها لَما جَعَلَتُها نِدًّا لي في عَقلي وَحَياتي. كانَت تَتَعَمَّدُ زيارَتي دائِمًا لإغاظَتي والنِّكايَةِ بي.. وَقَرَّرتُ أن أُعامِلَها بِالمِثلِ[3].

3) كيفَ تَرى الشَّخصيَّةُ/الرّاويَةُ صَديقَتَها عَلياءَ؟ عَلامَ يَدُلُّ ذلِكَ؟

انتَبَهنا عَلى صَوتِ قائِدِ الطّائِرَةِ.. طَلَبَ إلينا رَبطَ الأحزِمَةِ فَهُناكَ مَطَبّاتٌ هَوائيَّةٌ.. صَرَختُ في زَوجي:

– هَل نَحنُ نَسيرُ في الشّارِعِ؟ مِن أينَ جاءَت هذهِ المَطَبّاتُ؟

– اذكُري اللّهَ.. لقَد فَضَحتِنا.

لَم أَنتَظِرِ الرَّدَّ.. بَدَأتِ الطّائِرَةُ تَقفِزُ كَضِفدَعَةٍ فَزِعَةٍ.. ثُمَّ ارْتَجَّتْ رَجَّةً عَنيفَةً.. بدَأتُ أسمَعُ صُراخًا وَلَغَطًا.. ورَأيتُ المُضيفاتِ يَتَراكَضنَ لِتَهدِئَةِ الأطفالِ الّذينَ شَرعوا في البُكاءِ.. وَسادَ المَكانَ تَوتُّرٌ شَديدٌ.

عادَ صَوتُ قائِدِ الطّائِرَةِ يَدعونا للتَّمَسُّكِ جَيِّدًا.. مَطَبٌّ هَوائيٌّ جَديد.. الرَّجُلُ الّذي يَجلِسُ أمامي بَدَأَ يَقرَأُ سورَةَ البَقَرَةِ مِن مُصحَفِهِ.. بعضُ الرُّكّابِ بَدَؤوا يُسَمّونَ وَيُحَوقِلونَ .. وَزَوجي يُرَدِّدُ الشَّهادَتَينِ وَيَقرَأُ آيَةَ الكُرسيِّ.. إذَن.. الأمرُ خَطيرٌ!.. اهتَزَّتِ الطّائِرَةُ اهتِزازًا أقوى مِنَ المَرَّةِ

السّـابِقَةِ.. شَـعَرنا بِالمَيَـلانِ.. بَـدَأَ الجَفـافُ يَزحَـفُ إلـى حَلْقـي.. انحَبَـسَ صَوتـي.. كانَ المَطَـرُ يَهطُـلُ فـي الخـارِجِ.. وَنحـنُ الآنَ بَيـنَ سـماءٍ وَأرضٍ فـي عُلبّـةٍ حَديديَّـةٍ.. تَتمايَـلُ كَسَـفينَةٍ وَرَقيَّـةٍ فـي بِركَـةِ مـاءٍ.. رَكِـبَ الخَـوفُ صَـدري والتَصَـقَ بِضُلوعـي.. انكَمَشـتُ كَفَـأرَةٍ مَذعـورَةٍ.. كُنـتُ أنظُـرُ إلـى زَوجـي بِعَينَيـنِ قَفَزَتـا مِـن مِحْجَرَيْهِمـا.. مـاذا لَـو؟ مـاذا لَـو كانَ هـذا آخـرُ المَطـافِ؟ طـارَ لَـونُ وَجهي، وَتَلَـوَّنَ بِكُلِّ الألـوانِ إلّا لَـونَ الحيـاةِ.. قَـرَأتُ الخَـوفَ والذُّعـرَ عَلـى وَجـهِ زَوجـيَ الّـذي أَمسَـكَ بَيَـدي، وَبَـدَأَ يَقـرَأُ وَيُـرَدِّدُ الآيـاتِ والأدعيَـةَ. أَمسَـكَ بـيَ الذُّعـرُ وَقَلَّبَنـي كَيـفَ شـاءَ.. نَبَـتَ النَّـدَمُ، وَتَجـذَّرَ، وَأَوْرَقَ فـي صَـدريَ المَرعـوبِ: اللّهـمَّ اغفِـر لـي... سَـيَغفِرُ مـاذا؟ مـا أكثَـرَ ذُنوبـيَ وَأبشَـعَها؟ آه .. لَيتَنـي ماتَكاسَـلتُ عَـن صَـلاةِ الفَجـرِ حتّـى خَـرَجَ وَقتُهـا.. لَيتَنـي مـا تَطاوَلـتُ عَلـى زَوجـيَ المِسـكينِ، وَلَـم أُجبِـرهُ عَلـى الاستِدانَةِ.. يَقولـونَ إنَّ روحَ المَيْـتِ المَديـنِ لاتَصعَـدُ إلى سَـماءِ رَبِّهـا، فَدُيونُهُ تُكَبِّلُـهُ وَتَقَيِّـدَهُ حَتّـى لَـو كانَ شَـهيدًا. لكِنَّـهُ سَـيكونُ شَـهيدًا .. فَلَقَـد صَبَـرَ عَلـيَّ كَثيـرًا.. واحتَمَـلَ سَـلاطَةَ لِسـاني وَقِلَّـةَ عَقلـي. لا أذكُـرُ أنَّـهُ ضَرَبَنـي يَومًـا أو أهانَنـي.. بَـل علـى العَكـسِ كانَ يَتمنّـى إرضائـي.. ليتَـهُ فَعَـلَ وَضَرَبَنـي.. فمـا كان سَـيحدُثُ ماحـدَثَ.. لَيتَـهُ أوقَفَنـي عِنـدَ حَـدّي، وَفَعَـلَ مِثـلَ مافَعَـلَ أبـي بِأُمّـي حيـنَ عانَدَتُـه، إذ أَمسَـكَ بِحزامِـهِ، وَجَلَدَهـا علـى ظَهرِهـا حتّـى استكانَت. آخ.. مـا أكثَـرَ أخطائـي! تَذَكَّـرتُ يـومَ نَهَـرتُ جارَتَنـا الأرمَلَـةَ وَوَصَمتُهـا بأقبَـحِ الصِّفـاتِ حيـنَ جـاءَت تَطلُـبُ مُساعَدَةً مِـن زَوجـي.. كنـتُ أظُنُّهـا تُخَطِّـطُ لِخَطـفِ زَوجـي.. ألا لَعنَـةُ اللّـهِ علـى الأفـلامِ والمُسَلسَـلاتِ الّتـي أَسـهَرُ عَلَيهـا كُلَّ لَيلَـةٍ! وَ(عَلِيـاءُ) لِمـاذا أَضَعُهـا فـي رَأسـي مِسـمارًا؟! هَـل فَعَلَـت بـي شَـيئًا مُحـدّدًا؟ «لا» .. أنـا مَـن بَـدَأَ المَعرَكَـةَ وَأَشـعَلَ أُوارَهـا.. سـامِحني يـارَبُ.. سـامِحيني يـا عَلِيـاءُ.. لـو كُنـتُ صادَقتُهـا[4]..

4) لِماذا تَغيَّرَ رأيُ الشَّخصيَّةِ/الرّاويَةِ في نَفسِها وَزَوجِها وَصَديقَتِها عَلياءَ؟ أي الرَّأيَينِ أَصدَقُ؟ ولِماذا؟

سَـقَطَتْ عَينـايَ عَلـى زَوجـي.. لايَـزالُ يَقـرَأُ الآيـاتِ.. مَطَـبٌّ هَوائـيٌّ جَديـدٌ.. اضْطَرَبَـت مَعِدَتـي.. شَـعَرتُ بِمَغـصٍ شَـديدٍ وَرَغبَـةٍ فـي التَّقَيُّـؤ.. رَجَّـةٌ جَديـدَةٌ.. كأنَّنـا نَسـيرُ علـى دَربٍ وَعِـرٍ مَلـيءٍ بِالحُفَـرِ والشُّـقوقِ.. حتّـى

السَّماءُ! سُبحانَ اللّهِ!! سامِحني يارَبُّ.. أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللّهُ .. تذكّرتُ حَديثًا نَبَويًّا، «مَنْ كانَ آخرُ كلامِهِ لا إلهَ إلّا اللّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ» هَل سَأدخُلُها؟ وَذُنوبي؟! وَأفكاري الشّيطانيَّةُ؟! سَمِعتُ خَطيبَ الجُمُعَةِ يَقولُ: إنَّ رَحمَةَ اللّهِ واسِعَةٌ.. وأنَّها وَسِعَت بَغيًّا سَقَتْ كَلبًا الماءَ، فَدَخَلَتِ الجَنَّةَ. ولكنَّني لَم أَسقِ زَوجي سِوى الهَمِّ والنَّكَدِ والذُّلِّ![5]

5) كيفَ تَصِفُ شُعورَ الشَّخصيَّةِ في هذهِ النُّقطَةِ مِن القِصَّةِ؟

يارَبُّ سامِحني.. سَأتوبُ وَأُنيبُ يارَبُّ.. تَوبَةً نَصوحًا لا أَعودُ بَعدَها أبدًا.. يا وَيلي لَو مِتُّ وأنا على هذهِ الحالِ.. بَدَأتُ أتَشَهَّدُ.. لا أدْري كَم مَرَّ مِن الوَقتِ حتّى انسابَ صَوتُ قائِدِ الطّائِرَةِ يُبَشِّرُنا بِتَجاوُزِ المَطبّاتِ الهَوائيَّةِ.

عادَتِ الدِّماءُ تَجري في أَوصالِنا مِن جَديدٍ.. السَّيِّدَةُ الّتي تَقبَعُ خَلْفي أَقسَمَتْ ألّا تَركَبَ طائِرَةً أبَدًا.. تَنَفَّستُ الصُّعَداءَ.. شَعرتُ بِحُنُوٍّ غَريبٍ عَلى زَوجيَ الحَبيبِ.. كانَ خائِفًا عَليَّ وَظَلَّ يَرْقيني بِآياتِ اللّهِ وَيُهَدِّئُ مِن رَوعي. حاوَلتُ أن أُغمِضَ عَينَيَّ.. لا يَزالُ بَعضُ القَلَقِ والخَوفِ يَسري في أَوصالي..

السّاعَةُ جاوَزَتِ الرّابِعَةَ فَجرًا.. وُصولُنا لِماليزيا سَيَكونُ في السّاعَةِ السّادِسَةِ صَباحًا. بَدَأتِ الطّائِرَةُ تَقتَرِبُ مِن أَجواءِ العاصِمَةِ.. كانَت مَدينَةً مُستَيقِظَةً تَحتَ رَذاذِ النَّدى، وَقَطراتِ المَطَرِ المُبَكِّرِ.. كانَ مَنظَرًا خَلّابًا.. البِساطُ الأخضَرُ يَمتدُّ هُنا وهُناك.. البُيوتُ الخَشَبيَّةُ بِأسقُفِها الحُمرِ.. والضَّبابُ الّذي يَلُفُّ خَصرَ هذهِ المَدينَةِ الرّائِعَةِ.. دَبَّ النَّشاطُ في أوصالِنا جَميعًا.. حَمَلتُ (الكاميرا) وَبَدَأتُ أُصوِّرُ.. هَبَطَتِ الطّائِرَةُ في مطارِ العاصِمَةِ.. أَخَذَت عَجلاتُها تَنزَلِقُ عَلى أرضِ المُدَرَّجِ الواسِعِ حتّى استَقَرَّت.. كُنتُ أَسبِقُ زَوجي في النُّزولِ وَمُعانَقَةِ هَواءِ المَدينَةِ الغافيَةِ في مِثلِ هذا الصَّباحِ النَّظيفِ..

انتَقَلنا بِواسِطَةِ القِطارِ لِلجِهَةِ الثّانيةِ مِن المَطارِ.. كانَ مَطارًا واسِعًا

وَنَظيفًـا.. كانَـت عَينـايَ تَجوبـانِ المَـكانَ شَـمالًا وَجَنوبًـا بَحثًـا عَـن غايتـي.. لاحَـظَ زَوجـي انشِـغالي فـي البَحـثِ.. سَـأَلَني: عَـن مـاذا تَبحَثيـن. لَـم أَرُدّ. انطَلَقـتُ نَحـوَ كَبينَـةِ الهاتِـفِ العُمومـيِّ.. أَدرتُ الأرقـامَ الّتـي أَحفَظُهـا.. كانَ صَوتـي عاليًـا يَسـمَعُهُ الجَميـعُ:

– عَلياء.. صَبـاحُ الخَيرِ..هَـل أنـتِ نائِمَـة؟ سـامِحيني.. لَـم أَنتَبِـه لِلفَـرقِ.. مـا أجمَـلَ المَدينَـةَ! لَيتَـكِ كُنـتِ مَعـي.. كانَ اللّـهُ فـي عَونِكُـم وأنتُـم تَتَلَظَّـونَ فـي الحَـرِّ.. أنـا أَرتَجِـفُ مِـنَ البَـردِ.. كانَـت رِحلَـةً مُمتِعَـةً...وَ..[6]

ورَأيتُ زَوجي.. يَضرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ.. وَيُحَوقِلُ كَعادَتِهِ!!!

6) ماذا حَدَثَ للشَّخصيَّةِ هُنا؟ ما رَأيُكَ في ذلِكَ؟

غِطاءُ الفِراشِ
للكاتبِ الإنجليزيِّ / جورج بِرْنارد شو

لَـمْ أَزُرْ هولنـدا مُنْـذُ أوائـلِ 1939 حيـنَ ذهبْـتُ لأُحضِـرَ منهـا جدَّتـي إلـى أمريـكا، وكانَ المفـروضُ وقتَئـذٍ أنَّ جَدَّتـي سـتُمضي معَنـا فـي أمريـكا سـتَّةَ أشـهُرٍ فحسْـبُ، بَيـدَ أنَّ زيارتَهـا قـدِ امتـدَّتْ ثمانـيَ سـنواتٍ، حتّـى بـدا أنَّهـا لـنْ تعـودَ إلـى وطَنِهـا هولنـدا مـرَّةً أُخـرى.

ورَغْـمَ أنَّ جَدَّتـي قـدْ رَضخَـتْ للأمْـرِ الواقـعِ، إلّا أنّهـا ظلَّـتْ تأمَـلُ فـي العـودةِ يومًـا مـا، ودأَبَـتْ تُمْضـي شَـطْرًا كبيـرًا مِـنْ وقتِهـا تُفكِّـرُ فـي منزلِهـا فـي هولنـدا.

فـي صيـفِ سـنَةِ 1947، عندمـا أَوفدَتْنـي الشَّـرِكةُ الّتـي أَعمَـلُ بهـا فـي مُهمَّـةٍ إلـى بروكسـل، ناشـدَتْني أنْ أنتهِـزَ الفرصَـةَ وأُعَـرِّجَ علـى هولنـدا فـأزورَ خالـي وزوجتَـهُ، وأعـودَ إليهـا بتقريـرٍ وافٍ عـنْ كُلِّ شـيءٍ، وبخاصَّـةٍ عـنْ غِطـاءِ فِـراشٍ مِـنَ الصّـوفِ كانَـتْ تَعتـزُّ بـهِ كثيـرًا![1]

1) تَنبَّأْ بما يُمكنُ أنْ يَحدُثَ؛ هلْ سيَجِدُ الرّاوي غِطاءَ الفِراشِ؟

وعندمـا زُرْتُ خالـي وزوجتَـهُ، وجلسْـتُ أتحـدَّثُ إليهِمـا فـي غُرفـةِ الاسـتقبالِ الهولنديّـةِ الطِّـرازِ، خُيِّـلَ إلـيَّ أنَّ كُلَّ شـيءٍ يجـري علـى مألـوفِ عادتِـهِ، وأنَّـهُ لَـمْ يَطـرأْ أيُّ تغييـرٍ مُطلَقًـا طـولَ هـذهِ الأعـوامِ الّتـي تَلَـتْ سـنةَ 1939، وأنَّ البيـتَ مـازالَ قائمًـا كعَهْـدي بـهِ، وحَسْـبيَ أنْ أُلقـيَ نَظْـرةً واحـدةً مِـنْ خـلالِ النّافـذةِ لأرى الفضـاءَ المحيـطَ بـهِ وقـدْ أحاطَتْـهُ ظِـلالٌ، كانَـتْ يومًـا مِـنَ الأيّـامِ مَيـدانَ مولبـورج، قلْـبَ المدينـةِ النّابـضِ.[2]

2) استخدَمَ الرّاوي فِعْلًا يَدُلُّ على أنَّ توقُّعاتِهِ لَمْ تَكُنْ في مَحلِّها، اذْكُرْهُ.

وإنْ كانَ خالـي وزوجتُـهُ قـدْ ظَـلّا علـى قيْـدِ الحيـاةِ، واجْتـازا مِحنَـةَ

الحَـربِ القاسـيَةِ بسَـلامٍ، فقَـدْ كانَ يبـدو علـى قَسَـماتِ وَجْهَيهِمـا مـا يُنْبِـئُ بـأنَّ الأمـورَ لَـمْ تَعُـدْ كمـا كانَـتْ مِـنْ قَبْـلُ، وقَـدْ حاولْـتُ مِـرارًا، خـلالَ الأيّـامِ الّتـي أمضَيْتُهـا معَهُمـا... أنْ أَعـرِفَ السَّـببَ، ولكنَّهُمـا لَـمْ يُسـمِعاني شـيئًا مِـنْ قِصَـصِ الحـرْبِ والحـوادِثِ والأحـداثِ الّتـي مـرَّتْ بهِمـا وعانَيـا مِـنْ وَيلاتِهـا، فكنْـتُ أعتقِـدُ أحيانًـا أنَّهُمـا يَنْشُـدانِ النِّسـيانَ، وأُرَجِّـحُ أحيانًـا أُخـرى أنَّهُمـا قـدْ سَـبَقَ وتحدَّثـا عـنِ الحـرْبِ بمـا فيـهِ الكفايـةُ حتّـى سَـئِما هـذهِ الذِّكريـاتِ الأليمـةَ، أوْ أنَّ هـذهِ السِّـنينَ المريـرةَ تَحْـوي فـي طيّاتِهـا مـا لا يَقْوَيـانِ علـى ذِكْـرِهِ ورِوايتِـهِ.[3]

3) كيف يمكن أن تصف التّغيير الّذي طرأ على وجْهَي خالِ الرّاوي وزوجَتِهِ؟

لقَـدْ كنْـتُ واثِقًـا فـي قَـرارَةِ نفْسـي أنَّ التَّفْسـيرَ الحقيقـيَّ لصَمْتِهِمـا هـذا، ليسَ شـيئًا ممّـا تَخَيَّلْتُـه أو رَجَّحْتُـه، ورُبّمـا لا يَعْـدو أنْ يكـونَ مِـنْ مَظاهِـرِ الكياسَـةِ واللَّباقَـةِ لشُـعورِهِما أنَّ التَّجـارِبَ الّتـي مَـرَّتْ بنـا - معشَـرَ الأمريكيّيـنَ- فـي الحـرْبِ، لَـمْ تَكُـنْ سـهلةً ولا يسـيرةً، فلَيـسَ إذًا مِـنَ الـذَّوقِ السَّـليمِ أنْ يَتشَـدَّقا بمـا أَبْـداهُ الهولنديّـونَ مِـنْ ضُـروبِ الشَّـجاعةِ والبَـأْسِ!

وأخيـرًا، وَجَـدْتُ الشَّـجاعةَ لأسـأَلَهُما عـنْ غِطـاءِ الفِـراشِ المصنـوعِ مِـنَ الصّـوفِ، وذكَـرْتُ لهُمـا مَبْلَـغَ اهتمـامِ جَدَّتـي بـهِ؛ لأنَّـهُ مِـنْ صُنْـعِ يدَيهـا، وقَـدْ فَـكَّ سُـؤالي هـذا عُقـدَةَ لسـانَيهِما وراحـا يُحَدِّثانـي عـنْ قِصَّـةِ غِطـاءِ الفِـراشِ، ولعلَّهُمـا اعتقـدا أنَّ بوَسْـعي أنْ أفهمَهُمـا بسُـهولةٍ وأُقَدِّرَهُمـا.

قالَتْ زوجةُ خالي:

- أُرجِّـحُ أنْ جَدَّتَـكَ أيضًـا سـتُعْجَبُ بهـا وتُقَدِّرُهـا حَـقَّ قَدْرِهـا. ومَضَـتْ تـروي القِصَّـةَ.[4]

4) مَن الرّاوي في هذا الجُزءِ، ومنْ المَرويُّ لهُ؟ وما موضوعُ القِصَّةِ؟

- يَجْـدُرُ بـكَ أنْ تُـدْرِكَ أوّلًا أنَّنـا كُنّـا فـي مَسـيسِ الحاجـةِ إلـى الشَّـحْمِ،

فلا دُهْنَ ولا زَيتَ ولا شيءَ مِنْ هذا القَبيلِ كانَ في مُتَناوَلِ اليَدِ إبّانَ الحرْبِ، وعقَّبَ زَوجُها على الكلامِ بصَوتٍ حالِمٍ كمَنْ يستعيدُ ذكرياتٍ بعيدةً:

– لقَدْ كنْتُ أحلُمُ في بعْضِ اللَّيالي بفَطيرةٍ مَصنوعةٍ بالزُّبدةِ... ألا يَبْدو هذا سَخيفًا الآنَ؟ لَمْ يَكُنْ سُخْفًا وقْتَذاكَ. لقَدْ كُنّا نَتلَهَّفُ على الشَّحْمِ والدُّهْنِ كما يَتلهَّفُ العاشقُ على حبيبٍ غائبٍ!

فأَوْمَأَتْ زَوجةُ خالي برأْسِها، وكأَنَّها قدِ ارتاحَتْ إلى هذا التَّعبيرِ، وسَرحَتْ بنظَراتِها إلى عالَمٍ بعيدٍ بينَما استَطرَدَ خالي:

– في ذلكَ الوقْتِ كانتِ النُّقودُ عديمةَ القيمةِ؛ لأنَّ النّاسَ في حاجةٍ إلى موادَّ... إلى أشياءَ نافعةٍ مفيدةٍ... أشياءَ يحتاجونَ إليها. لقَدْ تخلَّصْنا مِنَ الجواهرِ والحُلُيِّ الّتي نملكُها على التّوالي... ثُمَّ تَحرَّرْنا تدريجيًّا مِنْ كُلِّ ما لدينا مِنْ كماليّاتٍ يمكنُ الاستغناءُ عنها.. وأصبَحَ المنزلُ عاريًا تمامًا مِنَ الرّياشِ الّذي يمكنُ بَيعُهُ أوِ استبدالُهُ... ولَمْ يَبْقَ سِوى غِطاءِ الفِراشِ[5].

5) هُنا تلميحٌ آخرُ ماذا تَتوقَّعُ؟

إنّي أَذْكرُ هذا الغِطاءَ تمامًا... لقَدْ كانَتْ أُمّي تَحرِصُ أنْ تضعَهُ مُحبَّكًا تمامًا عندَ الأقدامِ فَوقَ سريرِها الضَّخمِ. لقَدْ كانَ مِنَ الصّوفِ الأسوَدِ... وقدْ حيكَ على نَمَطٍ بديعٍ مِنَ الرُّسومِ الهندسيّةِ المستديرةِ والبَيضاويّةِ.

وأضافَتْ زوجةُ خالي في صَوْتٍ رقيقٍ بدَتْ فيهِ رنَّةُ اعتذارٍ وأَسَفٍ:

– أخشى أنْ أكونَ السَّببَ في فَكِّهِ وحَلِّ حياكتِهِ... ولكنَّني كُنتُ جائعةً... لقَدْ كُنّا في مِحنَةٍ. فَرَدَّ خالي بسُرعةٍ كَمَنْ يَنفي عنْ نفْسِهِ التُّهْمةَ:

– أَجَلْ.. لَمْ أُفكِّرْ أنا في ذلكَ. فاستطرَدَتْ زوجتُهُ:

– كانَـتِ الجَـوارِبُ لا تُقَـدَّرُ بثَمَـنٍ، ولَـمْ يَعُـدْ عنـدَ أيِّ فـرْدٍ جَـوارِبُ. ولهـذا عَمَـدْتُ إلـى حَـلِّ حياكَـةِ رُكْـنٍ واحـدٍ مِـنَ الغِطـاءِ. رُكْـنٌ واحـدٌ فقَـطْ، وحِكْـتُ مِـنَ الصّـوفِ زَوجًـا مِـنَ الجَـوارِبِ المَتينـةِ الثَّقيلـةِ السَّـوداءِ... لقَـدْ كانَ جَورَبًـا رائعًـا.

فقالَ خالي مُغْتاظًا:

– أَجَـلْ، لقَـدِ اشـتهَيْتُ هـذا الجَـورَبَ لنَفْسـي صراحـةً... ولكـنْ أشـارَ بيَـدِهِ فـي حركـةِ تسـليمٍ وإذعـانٍ واضِعًـا يـدَهُ علـى مَعِدَتِـهِ:

– لقَـدْ كنـتُ جائعًـا أنـا الآخـرُ... فأخـذْتُ الجَـورَبَ ذاتَ ليلـةٍ إلـى مُـزارِعٍ أَعرِفُـهُ، وعُـدْتُ حامِـلًا رَطْلَيـنِ مِـنَ الزُّبـدةِ الطّازَجـةِ.

فلمَعَتْ عَينا زوجةِ خالي وقالَتْ بِلَهْفةٍ:

– تَخيَّلْ.... رَطْلانِ مِـنَ الزُّبـدةِ... رَطْلانِ كامِـلانِ، لقَـدْ احتَفَظْنـا برَطْـلٍ منهُمـا واقتَسَـمْنا الرَّطْـلَ الآخـرَ بينَنـا وأكَلْنـاهُ كمـا هـوَ علـى عِلّاتِـهِ دونَ خُبْـزٍ! ثُـمَّ نظَـرَتْ إلـيَّ مُستدرِكَةً وقالَـتْ:

– لابُدَّ أنَّ هذا غريبٌ على مَسمَعِكَ.

فاعترضْتُ قائلًا:

– كلّا.. كلّا البتَّةَ.

فقالَ خالي مؤكِّدًا:

– لقَـدْ كانَ ذلـكَ اليـومُ عيـدًا مشـهودًا عندَنـا... ووافَقَتْـهُ زوجتُـهُ... أمّـا الرَّطْـلُ الآخَـرُ فقَـدْ كفانـا شـهرًا كامِـلًا.. وأخشـى أنَّ هـذا الرَّطْـلَ مِـنَ الزُّبـدةِ قـدْ أَفسَـدَ ذَوْقَنـا، فقَـدْ تعوَّدْنـا عليـهِ، ولَـمْ نَعُـدْ نَستسـيغُ طعامًـا بِـلا زُبـدةٍ، ومِـنْ ثُـمَّ شـعَرْنا بالحاجـةِ إلـى غيـرِهِ.

فضَحِكَ خالي وقالَ:

– وهكـذا يُمكنُـكَ أنْ تَتخيَّـلَ مـا حـدَثْ... لقَـدْ حلَلْنـا حياكَـةَ غِطـاءِ الفِـراشِ رُكْنًـا رُكْنًـا. كُنّـا نَفُـكُّ فـي كُلِّ مـرَّةٍ مـا يكفـي لصُنْـعِ زَوجٍ مِـنَ الجَـوارِبِ، وكانَ المُـزارِعُ طيِّبًا معَنـا، وشـريفًا للغايـةِ[6]، فقاطَعَتْـهُ زوجتُـهُ قائلـةً فـي حَماسـةٍ ظاهِـرةٍ:

6) وُصولًا إلى هذهِ النُّقطةِ. ما مَصيرُ غِطاءِ الفِراشِ؟

– لقَـدْ كانَ يُعطينـا دائمًـا رَطْلَيـنِ مِـنَ الزُّبـدةِ، ولا تَنْـسَ أنَّـهُ كانَ فـي مقـدورِهِ أنْ يَغُشَّـنا ويَخدَعَنـا مُسـتغِلًا فرصـةَ خَوفِنـا مِـنَ الألمـانِ الّذيـنَ يَمنعـونَ بشـدَّةٍ أمثـالَ هـذهِ المُسـاوَماتِ، فوافـقَ خالـي قائـلًا:

– أَجَـلْ ... لقَـدْ كانَ طيِّبًـا. على كُلِّ حالٍ لقَـدْ لبّى غِطاءُ الفِـراشِ حاجتَنا مِـنَ الزُّبـدةِ لمُـدَّةِ عامَيـنِ كاملَيـنِ...وكَـمْ كانَ ينتابُنـا الفَـزَعُ والرُّعْـبُ كُلَّمـا رأيناهُ يَتقلَّـصُ ويَتضـاءلُ ويَقـرُبُ مِـنَ النِّهايـةِ، بينمـا الحالـةُ مُسـتمِرَّةٌ مِـنْ سيِّءٍ إلـى أسـوأَ ولا يبـدو لَهـا نِهايَـةٌ. وأخيـرًا حلَلْنـا آخـرَ قِطعـةٍ كانـتْ باقيـةً منـهُ. وهنـا حـدَثَ مـا اعتَبَرْنـاهُ مأسـاةً أو فجيعـةً أو سَـمِّها كارثـةً إذا شِـئْتَ...ذلكَ أنَّ الخيـوطَ الأخيـرةَ الّتـي فكَكْناهـا لَـمْ تَكْـفِ إلّا لعَمِـلَ فَـرْدةٍ واحـدةٍ مِـنَ الجَـوربِ الأخيـرِ.

ولقَـدِ احتفَظْنـا بفَـرْدةِ الجَـوربِ ستَّةَ أسـابيعَ دونَ أنْ نجـرُؤَ علـى عَرْضِهـا علـى المُـزارِعِ... إلـى أنْ جـاءَ يـومٌ صِرْنـا فيـهِ فـي يـأْسٍ مُهلِـكٍ.. وأخيـرًا عزَمْـتُ أنْ أُجـرِّبَ حظَّنـا، فإنَّنـا لـنْ نخسَـرَ شـيئًا علـى كُلِّ حـالٍ إذا رَفَـضَ المُـزارِعُ شِـراءَ الفَـرْدةِ الواحـدةِ وأعادنـي صِفْـرَ اليدَيـنِ مِـنَ الزُّبـدةِ.

واعتَـدلَ خالـي فـي جِلسـتِهِ واسـتطرَدَ:

– وهكـذا ذهبْـتُ إلـى صديقِنـا المُـزارِعِ وأنـا أُقـدِّمُ رِجْـلًا وأُؤَخِّـرُ رِجْـلًا.. ولا أسـتطيعُ أنْ أَصِـفَ لـكَ كيـفَ كُنـتُ مُرتَبِـكًا ومُضطَرِبًـا.

لَـم أَكُـنْ أستَسيغُ الاستجداءَ... ولكـنْ لَـمْ يَكُـنْ لـي حـقُّ الاختيـارِ... وتشـجَّعْتُ أخيـرًا فأخبَرْتُـهُ بصراحـةٍ مُتلعثِمًـا أنَّنـي لا أملِكُ سِـوى فَـرْدةٍ واحـدةٍ. وتوقَّـفَ خالـي عـنِ الحديـثِ وقَـدِ ارتسـمَتْ على فَمِـهِ ابتسـامةٌ عريضـةٌ، ثُـمَّ اسـتَأنَفَ:

– وهنـا حَـدَثَ أمْـرٌ يصِـلُ إلـى حَـدِّ المُعجِـزاتِ.. لقَـدْ هجَـمَ علَـيَّ المُـزارِعُ يُعانِقُنـي وهـوَ يُزْجـي عبـاراتِ الشُّـكْرِ والعِرْفـانِ بِالجميـلِ، وهَـرْوَلَ إلـى دارِهَ، وأحضَـرَ رَطلَيـنِ كاملَيـنِ مَـنِ الزُّبـدةِ نَظيـرَ هـذهِ الفَـرْدةِ الوحيـدةِ[7].

7) لماذا فَرِحَ المُزارِعُ في رأيكَ؟

وهنا شعَرْتُ بالدَّهشةِ فتساءلْتُ:

– ولكنْ لماذا؟ وكيفَ؟

– هذا هوَ نفْسُ السُّؤالِ الّذي وجَّهتُهُ للمُزارِعِ.

فأجابَني بقَولِهِ:

– لقَـدْ كانَـتْ زوجتـي تَحُـلُّ حياكَـةَ الجَـوارِبِ الّتـي أَبْتاعُهـا منـكَ، وتَحيـكُ مِـنْ صوفِهـا غِطـاءً للفِـراشِ.... وهـيَ تَحتـاجُ فقَـطْ لهـذهِ الفَـرْدةِ لتُتِـمَّ الغِطـاءَ... ولهـذا فهـيَ وحدَهـا تُساوي عنـدي رَطْلَيـنِ مِـنَ الزُّبـدةِ؛ لأنَّهـا سـتَجعلُها سـعيدةً لحُصولِهـا علـى الغِطـاءِ كامـلًا[8].

8) هلْ جاءَتِ النِّهايةُ كما توقَّعْتَ؟

وسادَ صَمْتٌ طويلٌ ثُمَّ قالَ خالي:

– وهكـذا يُمكنُـكَ أنْ تُخبِـرَ جَدَّتَـكَ أنَّ غِطاءهـا سـليمٌ، ولكـنَّ الحـرْبَ غيَّـرَتْ رُسـومَهُ وهندسـتَهُ...!!

صُوَرٌ خارِجَ الإطارِ

ابتسامُ المُعلّا

عِنْدَما أَفْشَلُ في تَذَكُّرِ بَعْضِ الحَوادِثِ أَخْتَلِقُها:

أَذْكُرُ أَنَّ فِضَّةَ رَحَلَتْ بَعْدَ تَعَرُّضِها لحادِثِ سَيّارَةٍ، وأَنَّ رَذاذَ الْخَبَرِ وَصَلَني عَبْرَ حَديثٍ بَيْنَ أُمّي وإِحْدى صَديقاتِها، وكُنْتُ في طَريقي إِلى الجامِعَةِ.

أَتَذَكَّرُ أَنَّ فِضَّةَ كانَتِ امْرَأَةً طَويلَةً سَمْراءَ، حُضورُها أَكْثَرُ صَمْتًا مِنَ النَّوْمِ، وإِذا تَحَدَّثَتْ فإِنَّ لَها صَوْتًا، لا يَتَناسَبُ وامْرَأَةً في عُمْرِها. كانَ خَفيضًا وعَميقًا، وكَأَنَّهُ آتٍ مِنْ غَوْرِ بِئْرٍ، وَغالِبًا ما تُرافِقُهُ ابْتِسامَةٌ طَويلَةٌ طُفوليَّةٌ خَجولَةٌ، وكانَتْ لِأَثْوابِها أَلْوانٌ ناريَّةٌ جَميلَةٌ ولافِتَةٌ لعَيْنَيْ طِفْلَةٍ مولَعَةٍ بالرَّسْمِ مِثْلي.

الآنَ عِنْدَما أَسْتَحْضِرُ صورَتَها أَتَخَيَّلُها امْرَأَةً، كانَتْ تَحْتالُ عَلى سَنَواتِ عُمْرِها وعَلى وَحْدَتِها مَعَ زَوْجٍ يُدْمِنُ سَماعَ الأُسْطواناتِ القَديمَةِ، ويَتَوَعَّدُ أَطْفالَ الحَيِّ كُلَّما سَمِعَهُمْ يَتَضاحَكونَ عَلى قامَتِهِ القَصيرَةِ. لَقَدْ رَحَلَ بَعْدَ بِضْعَةِ أَعْوامٍ مِنَ انْتِقالِنا إِلى مَنْزِلِنا الجَديدِ، وتَرَكَ فِضَّةَ وَحْدَها في البَيْتِ مِثْلَما تَرَكْناهُما في الحَيِّ القَديمِ.

لَمْ أَرَ فِضَّةَ بَعْدَ انْتِقالِنا إِلى بَيْتِنا الجَديدِ، لَمْ تَزُرْنا، ولَمْ نُفَكِّرْ مَرَّةً في زيارَتِها، لَكِنَّ أَخْبارَها كانَتْ تَصِلُنا عَلى فَتَراتٍ مُتَباعِدَةٍ إِلى أَنْ سَمِعْتُ خَبَرَ الحادِثِ الَّذي تَعَرَّضَتْ لَهُ، وهِيَ تَجْتازُ الشّارِعَ، ويُقالُ: إِنَّ صَوْتَ طائِرَةٍ كانَتْ تَسْتَعِدُّ للهُبوطِ غَطّى عَلى صُراخِ النّاسِ الَّذينَ تَجَمَّعوا حَوْلَ جُثَّةِ المَرْأَةِ.

سَأَلْتُ أُمّي: هَلْ كانَتْ جارَتُنا القَديمَةُ فِضَّةُ عَرْجاءَ؟.

كَأَنَّ السّؤالَ باغَتَها:

– ما الَّذي ذَكَّرَكِ بها الآنَ؟.

– زُجاجَةُ عِطْرٍ صَغيرَةٌ كانَتْ قَدْ أَعْطَتْني إِيّاها مَرَّةً.

رَسَمَتْ أُمّي عَلى وَجْهِها دَهْشَةً أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَقْوى مَلامِحُها عَلى التَّعْبيرِ عَنْها دونَ صَوْتٍ:

زُجاجَةُ عِطْرٍ؟ مَتى؟ لَمْ تُخْبريني بذَلِكَ مِنْ قَبْلُ.

قُلْتُ لها: إِنَّني نَسيتُ أَمْرَها، وقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْها اليَوْمَ، وأَنا أَعْبَثُ بمُحْتَوَياتِ خِزانَتي القَديمَةِ.

صَمَتَتْ أُمّي تُفَكِّرُ بُرْهَةً، وتَمَعَّنْتُ في مَلامِحِ وَجْهِها الجَميلِ، لِأَصُبَّ نِقْمَتي مِثْلَ كُلِّ مَرَّةٍ عَلى الحَظِّ الَّذي جَعَلَني لا أُشْبِهُها في شَيْءٍ. قالَتْ، وكَأَنَّها لا تُريدُ إِنْهاءَ المَوْضوعِ: نَعَمْ، كانَتْ إِحْدى رِجْلَيْها أَقْصَرَ مِنَ الأُخْرى.

عِنْدَما اسْتَدَرْتُ عَنْها بَعْدَ ذَلِكَ لا بُدَّ أَنَّها تَساءَلَتْ بَيْنَها وبَيْنَ نَفْسِها: كَيْفَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَذَكَّرَ عاهَةَ المَرْأَةِ وهَديَّةَ زُجاجَةِ العِطْرِ الصَّغيرَةِ، وأَنا لا أَكادُ أَعْرِفُها، لِأَنَّنا غادَرْنا حَيَّنا القَديمَ، وأَنا لَمْ أَتَجاوَزِ السّادِسَةَ، لا أَتَذَكَّرُ يَوْميَ الأَوَّلَ في المَدْرَسَةِ ولا سَنَواتيَ المَدْرَسِيَّةَ الأُولى ولا حتّى مُدَرِّساتي ولا صَديقاتي ولا شَكْلَ مَبْنى المَدْرَسَةِ ولا أَوَّلَ صورَةٍ، التُقِطَتْ لي في الاسْتُدْيو بعَدَسَةِ مُصَوِّرٍ مُحْتَرِفٍ، وبَدَتْ أَكْثَرَ وُضوحًا وأَقَلَّ عَفْويَّةً مِنَ الصُّوَرِ المَنْزِليَّةِ الأُخْرى، وفيها أَجْلِسُ بقامَةٍ صَغيرَةٍ مُمْتَلِئَةٍ وعَيْنَيْنِ عَسَليَّتَيْنِ واسِعَتَيْنِ ووَجْهٍ دائِريٍّ، نِصْفُهُ ابْتِسامَةٌ مُتَكَلَّفَةٌ، مُحاطٌ بشَعْرٍ لامِعٍ عَلى شَكْلِ جَديلَتَيْنِ قَصيرَتَيْنِ مَعْقودَتَيْنِ في نِهايَتِهِما بشَرائِطَ بَيْضاءَ. أَنْظُرُ إِلى الصّورَةِ المُعَلَّقَةِ في غُرْفَةِ أُمّي، وأُقْسِمُ بأَنَّني لا أَتَذَكَّرُها:

– لا أَتَذَكَّرُها، يا أُمّي، لِماذا لا تُصَدِّقينَني؟ إِنَّني لا أَتَذَكَّرُ أَيْضًا حَتّى السَّنَواتِ اللّاحِقَةِ للصّورَةِ.

أَحْيانًا أَتَخَيَّلُ صَوْتَها يَأْتي مِنْ وَراءِ ضَبابٍ كَثيفٍ، ليُمْعِنَ في تَذْكيري، ولكنْ عَلى طَريقَتي: لَكِنَّكِ أَنْتِ مَنْ أَصَرَّ عَلى الْتِقاطِ هَذِهِ الصّورَةِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّني كُنْتُ ضِدَّ خُروجِكِ إِلى (الأُسْتُدْيو)، وأَنتِ محمومةٌ. كانَتْ حرارتُكِ مرتفعةً، وكنتِ تهذينَ في نومكِ في الليلةِ التي سبقتْها، ومعَ ذلكَ كنتِ مصرّةً على مرافقةِ والدكِ وأخيكِ إلى (الأُسْتُدْيو)؛ لأَنَّكِ كُنْتِ طِفْلَةً غَيورَةً جِدًّا. لَمْ يَكُنْ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تُؤْخَذَ صورَةٌ لخالِدٍ دونَ أَنْ تُزاحِميهِ عَلى كُرْسيِّ التّصويرِ. أُنْظُري إِلى أَثَرِ الحُمّى عَلى خَدَّيْكِ وعَيْنَيْكِ.

أَحْيانًا تَكونُ الرِّوايَةُ هَكَذا: لَقَدِ الْتَقَطَ لَكِ هَذِهِ الصّورَةَ صَديقُ والِدِكِ الأَجنبيُّ الَّذي كانَ قَدْ فَتَحَ (أُسْتُدْيو) جَديدًا، وأَرادَ التَّبَرُّكَ بِتَصْويرِ الطِّفْلَةِ الجَميلَةِ كما كانَ يُطْلِقُ عَلَيْكِ.

وأَحْيانًا كانَ الحَديثُ مُغايِرًا تَمامًا، فتَقولُ أُمّي: لِأَنَّ يَوْمَ الصّورَةِ كانَ أَوَّلَ أَيّامِ العيدِ، وقَدْ وافَقَ عيدَ ميلادِكِ الخامِسَ، وكُنْتِ راغِبَةً في أَنْ تُلْتَقَطَ لَكِ صورَةٌ بفُسْتانِكِ الأَحْمَرِ الجَديدِ.

أَمّا خالِدٌ الَّذي كانَ في مِثْلِ عُمْري تَقريبًا، والَّذي يُزاحِمُني أَحْلامِيَ اللَّيليَّةَ، فرُبَّما يَتَذَكَّرُ يَوْمَ الصّورَةِ بكَثيرٍ مِنْ تَفاصيلِهِ بما في ذَلِكَ مُرورَنا مَعَ أَبي عَلى المَحَلِّ الصَّغيرِ المُلاصِقِ (للأسْتُدْيو) لشِراءِ بَعْضِ الحَلَويّاتِ ومَجَلَّةٍ (ماجِدٍ).

– بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ الإِصْرارِ عَلى الذَّهابِ لَمْ تُعْجِبْكِ الصّورَةُ عِنْدَما رَأَيْتِها، وصارَتْ مَصْدَرًا لغَضَبِكِ كُلَّما أَرَدْنا أَنْ نُريَها أَحَدَ أَقارِبِكِ.

– لِماذا تُعَلِّقينَها في غُرْفَتِكِ إِذن؟.

– لتُقَوّي ذاكِرَتَكِ النَّسّايَةَ.

أُريدُ أَنْ أَسْمَعَ أَكْثَرَ، لِأَمْلَأَ الغُرَفَ الخاليَةَ في ذاكِرَةِ طُفولَتي، لَكِنَّ كُلَّ حَديثٍ عَنْ طُفولَتي أَسْمَعُهُ مِنْ أُمّي كانَ يُؤْلِمُني، ويُخَلِّفُ عِنْدي إِحْساسًا بالْغُرْبَةِ.

كُنْتُ مِثْلَ مَنْ يَقِفُ خَلْفَ النّافِذَةِ، ليَتَأَمَّلَ الآخَرينَ مُحاوِلًا أَنْ يَتَذَكَّرَ أَيْنَ رَآهُمْ مِنْ قَبْلُ، قَبْلَ أَنْ يَكْتَشِفَ أَنَّهُ أَحَدُ المَوْجودينَ بَيْنَهُمْ، يُشارِكُهُمُ المَكانَ والكُرْسيَّ والحَديثَ والضَّحِكَ، وأَنَّ الواقِفَ خَلْفَ النّافِذَةِ هُوَ الذّاكِرَةُ المَفْقودَةُ.

بَعْدَها بسَنَواتٍ عِنْدَما ضِقْتُ ذَرْعًا بأَحاديثِ صَديقاتي عَنْ أَلْعابِهِنَّ المُفَضَّلَةِ وعَنِ الحَماقاتِ الصَّغيرَةِ الَّتي ارْتَكَبْنَها، ونِلْنَ عَلَيْها العِقابَ وعَنْ صَباحاتٍ حافِلَةٍ بأَمْراضٍ مُخْتَلِفَةٍ كي يَكْسَبْنَ ساعاتٍ إِضافيَّةً مِنَ النَّوْمِ، ويَتَهَرَّبْنَ مِنَ المَدْرَسَةِ، وعِنْدَما امْتَلَأَ رَأْسي بحِكاياتِ مَيْسونَ كُلَّما خَلَوْنا مَعًا في سَيّارَتِها عَنْ طُفولَتِها وحِصَصِ الموسيقا الَّتي كانَتْ تُدْمِنُها وكُتُبِ الأَطْفالِ الَّتي قَرَأَتْها قَبْلَ أَنْ تُشاهِدَ أَفْلامَ (ديزني)..

بَدَأْتُ أَشْعُرُ بغيرَةٍ حَقيقيَّةٍ مِنْ شَأْنِها أَنْ تَجْعَلَني أُمْسِكُ رَأْسي بكِلْتا يَديَّ، وأَبْكي. لَمْ يَعُدْ خالِدٌ مُنافِسًا، أَغارُ مِنْهُ، بَلْ كانَ أَخًا غائِبًا عَنِ المَنْزِلِ وعَنْ أَحاديثي مَعَ الصّديقاتِ وعَنْ حَياةِ أُمّي وأَبي. كانَ مَصْدَرُ غيرَتي الجَديدَةِ هُوَ تِلْكَ الأَحاديثَ المَليئَةَ بعَوالِمَ، لا أَثَرَ لقَدَميّ فيها.

قالَ لي أُستاذُ علمِ النّفسِ في الجامعةِ إِنَّ هذا يحدثُ للبعضِ،يفقدونَ ذاكرةَ طفولتهم لأسبابٍ عديدةٍ منها أَنَّ الطِّفلَ تعرضَ لحالاتٍ متكررةٍ منْ قمعِ المشاعرِ في فترةٍ مبكّرةٍ من عمرِهِ، أو لأنّهُ لم يأخذْ كَفايَتَهُ منَ اهتمامِ أمّهِ بسببِ مواليدَ أخرى تلتهُ مباشرةً، أو لأنّهُ كانَ

عُرضةً لحوادثَ تريدُ الذّاكرةُ إلغاءَها تمامًا، وأكّدَ لي أنَّ الحالةَ تعتبرُ نوعًا من أنواعِ فقدانِ الذّاكرةِ (فقدانِ الذّاكرةِ الطّفوليّةِ)، قالَ ذلكَ، وانتظرَ ردّةَ فعلي.

خجلتُ آنذاكَ من طرحِ السّؤالِ بذلكَ الشّكلِ المباشرِ، وحاولتُ أنْ أبعِدَ التّهمةَ عن ذاكرتي. قلتُ إنَّ الأمرَ بالنّسبةِ لي ليسَ غيابًا تامًّا لأحداثِ الطّفولةِ فأنا أتذكّرُ بعضَ الحوادثِ الصّغيرةِ، وبعضَ الأشخاصِ الّذينَ لم يعدْ لهم وجودٌ الآنَ، وأتذكّرُ بيتَنا القديمَ والنّخلةَ العملاقةَ في الفِناءِ وبعضَ جيرانِنا، وقدْ نظرَ إليَّ وابتسمَ قائلًا: أنتِ إذن تتذكّرينَ أغلبَ الأمورِ تقريبًا فلا تكوني طمّاعةً. دعي فسحةً لما سيأتي من أحداثٍ...

لا أدري هلْ قالَ ذلكَ لأنّهُ صدَّقَ دِفاعي عنْ ذاكِرتي أم لأنّهُ كانَ يُحاولُ مداواتَها،لكنّني عندما عدتُ إلى غُرفتي حاولتُ إنْ أعصِرَ ذهني؛ لِتسقطَ منهُ قطرةُ ذكرى حقيقيّةٌ واحدةٌ تخصُّ بيتَنا القديمَ أوِ النّخلةَ العملاقةَ أو أحدَ وجوهِ الجيرانِ..

كانَتْ أَغْلَبُ الأَحْداثِ الَّتي أَتَذَكَّرُها هيَ أَحْداثٌ تَعودُ إِلى طُفولَتي المُتَأَخِّرَةِ. رُبَّما كنْتُ في العاشِرَةِ أَوْ الحاديَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْري، ورُبَّما كُنْتُ أَكْبَرَ، وهيَ حَوادِثُ جَميلَةٌ كتَعَلُّمي قيادَةَ الدّرّاجَةِ ذاتِ العَجَلاتِ الكَبيرَةِ، وإِدْمانيْ على الجِهازِ الإِلْكِتْرونيِّ النّاطِقِ الَّذي اشْتَراهُ لي أَبي مِنْ مَحَلِّ أَلعابٍ، ذَهَبْنا إِلَيْهِ في لَيْلَةٍ مُمْطِرَةٍ، وتِلْكَ المَرْأَةِ الَّتي اسْتَوْقَفَتْنا في أَحَدِ شَوارِعِ باريسَ، لتَقولَ إِنَّني أُشْبِهُ مُمَثِّلَةً صَغيرَةً، يُحِبُّها ابْنُها، وذَلِكَ اليَوْمِ الَّذي فُزْتُ فيهِ بِمِظَلَّةٍ، عَلَيْها إِحْدى لَوْحاتِ (كُلودَ مونيه) في مَدينَةِ مَلاهٍ بَعيدَةٍ، وعُلْبَةِ الأَلْوانِ الكَبيرَةِ الَّتي تَحْتَوي عَلى ثَمانيَةٍ وأَرْبَعينَ لَوْنًا، رَسَمْتُ بِها وَجْهَ أُمّي عَشَراتِ المَرّاتِ، وكِتابِ (حَوْلَ العالَمِ في ثَمانينَ يَوْمًا) الَّذي قَرَأْتُهُ ثَلاثَ مَرّاتٍ عَلى التّوالي.

كانَتِ السّاعَةُ تَقْتَرِبُ مِنَ الواحِدَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، وانْتَبَهْتُ إِلى لَسْعَةِ البَرْدِ تَتَخَلَّلُ جَسَدي. أَغْلَقْتُ النّافِذَةَ، واسْتَخْرَجْتُ زُجاجَةَ العِطْرِ مِنَ الخِزانَةِ، وتَأَمَّلْتُها قَبْلَ أَنْ أَفْتَحَها، وتَنْتَشِرَ رائِحَتُها القَويَّةُ في هَواءِ الغُرْفَةِ، كُنْتُ أَتَمَنّى لَوْ أَنَّ فِضَّةَ هيَ الَّتي أَهْدَتْها إِلَيَّ حَقًّا، ولَمْ يَكُنْ هَذا مُجَرَّدَ حُلُمٍ.

كُنْتُ أَتَمَنّى لَوْ أَنَّ فِضَّةَ ظَلَّتْ جارَتَنا، ولَمْ تَرْحَلْ عَنّا، وأَنا في ذلك العُمُرِ الغَضِّ، كُنْتُ أَتَمَنّى لَوْ كانَتْ أُمّي تَحْتَفِظُ فِعْلًا بصورَةٍ مِنْ طُفولَتي مَعَ أَخي خالِدٍ مُعَلَّقَةً في غُرْفَتِها، وكُنْتُ دومًا أَتَمَنّى لَوْ كانَ لي أَخٌ.

ورقة من الرملة

غسان كنفاني

أوقفونا صفين على طرفي الشارع الذي يصل الرملة بالقدس، وطلبوا منا أن نرفع أيدينا متصالبة في الهواء، وعندما لاحظ أحد الجنود اليهود أن أمي تحرص على وضعي أمامها كي أتقي بظلها شمس تموز، سحبني من يدي بعنف شديد، وطلب مني أن أقف على ساق واحدة، وأن أصالب ذراعي فوق رأسي في منتصف الشارع الترب..

كنت في التاسعة من عمري يومذاك، ولقد شهدت قبل أربع ساعات فقط كيف دخل اليهود إلى الرملة، وكنت أرى وأنا واقف هناك في منتصف الشارع الرمادي كيف كان اليهود يفتشون عن حلى العجائز والصبايا، وينتزعونها منهن بعنف وشراسة، وكان ثمة مجندات سمراوات يقمن بنفس العملية، ولكن في حماس أشد. وكنت أرى أيضًا كيف كانت أمي تنظر باتجاهي وهي تبكي بصمت، وتمنيت لحظة ذاك لو أستطيع أن أقول لها أنني على ما يرام، وأن الشمس لا تؤثر فيّ، بالشكل الذي تتصوره هي..

كنت أنا من تبقى لها، فأبي قد مات قبل بدء الحوادث بسنة كاملة، وأخي الكبير أخذوه أول ما دخلوا الرملة، لم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أعني بالنسبة لأمي، لكنني الآن لا أستطيع أن أتصور كيف كانت الأمور ستجري لو أنني لم أكن عندها ساعة وصلت دمشق، لأبيع لها جرائد الصباح وأنا أنادي وأرتجف قرب مواقف الباصات..

لقد بدأت الشمس تذيب صمود النساء والشيوخ.. وارتفعت من هنا وهناك بعض الاحتجاجات اليائسة البائسة، كنت أرى بعض الوجوه التي اعتدت أن أراها في شوارع الرملة الضيقة وتبعث في الآن شعورًا دقيقًا من الأسى، لكنني أبدًا لن أستطيع تفسير ذلك الشعور العجيب الذي تملكني، ساعة رأيت مجندة يهودية تعبث ضاحكة بلحية عمي أبي عثمان..

وعمي أبو عثمان ليس عمي بالضبط، ولكن حلاق الرملة وطبيبها المتواضع، ولقد تعودنا على أن نحبه منذ وعيناه وأن نناديه بعمي احترامًا وتقديرًا، كان واقفًا يضم إلى جنبه ابنته الأخيرة، فاطمة، صغيرة سمراء تنظر بعينيها السوداوين الواسعتين إلى اليهودية السمراء..

- ابنتك؟!

وهز أبو عثمان رأسه بقلق؟ ولكن عينيه كانتا تلتمعان بِتَمَعُّنٍ قائم عجيب، وببساطة شديدة رفعت اليهودية مدفعها الصغير، وصوبته إلى رأس فاطمة، الصغيرة السمراء ذات العيون السوداء المتعجبة دائمًا..

في تلك اللحظة، وصل أحد الحراس اليهود في تجواله أمامي، ولفت نظرة الموقف، فوقف حاجبًا عني المنظر، ولكنني سمعت صوت ثلاث طلقات متقطعة دقيقة، ثم تيسر لي أن أرى وجه أبي عثمان يتموج بأسى مريع، ونظرت إلى فاطمة، مدلى رأسها إلى الأمام، ونقاط من الدم تتلاحق هابطة خلال شعرها الأسود إلى الأرض البنية الساخنة.

وبعد هنيهة، مر أبو عثمان من جانبي، حاملًا على ساعديه الهرمتين جثة فاطمة، الصغيرة السمراء: كان صامتًا جامدًا ينظر أمامه بهدوء بين الصفين إلى أول منعطف، وعدت أنظر إلى زوجته جالسة على الأرض ورأسها بين كفيها تبكي بأنين مقطع حزين، وتوجه جندي يهودي نحوها، وأشار لها أن تقف.. ولكن العجوز لم تقف، كانت يائسة إلى آخر حدود اليأس.

هذه المرة، استطعت أن أرى بوضوح كل ما حدث، ورأيت بعيني كيف رفسها الجندي بقدمه، وكيف سقطت العجوز على ظهرها ووجهها ينزف دمًا، ثم رأيته، بوضوح كبير، يضع فوهة بندقيته في صدرها، ويطلق رصاصة واحدة.

في اللحظة التالية، توجه الجندي ذاته نحوي، وبهدوء شديد طلب مني أرفع ساقي التي أنزلتها للأرض دون أن أشعر وعندما رفس ساقي صفعني مرتين، ومسح ما علق على ظاهر يده من دم فمي، بقميصي، وشعرت بإعياء مدمر لكنني نظرت إلى أمي، هناك بين النساء، رافعة ذراعيها في الهواء كانت تبكي بصمت ولكنها في تلك اللحظة ضحكت من خلال بكائها ضحكة صغيرة دامعة، وشعرت بساقي تلتوي تحت ثقلي، وبألم فظيع يكاد يقطع فخذي، لكنني ضحكت أيضًا، وتمنيت مرة أخرى لو أنني أستطيع أن أركض إلى أمي، فأقول لها إنني لم أتألم كثيرًا من الصفعتين، وإنني على ما يرام، وأرجوها باكيًا ألاّ تبكي، وأن تتصرف كما تصرف أبو عثمان قبل هنيهة.

وقطع أفكاري مرور أبي عثمان من أمامي عائدًا إلى مكانه بعد أن دفع فاطمة، وعندما حاذاني، غير ناظر إلي البتة، تذكرت أنهم قتلوا زوجته، وأن عليه أن يواجه مصابًا جديدًا الآن، وتابعته مشفقًا، خائفًا بعض الشيءِ، إلى أن وصل إلى مكانه فوقف هنيهة موليًا ظهره المحدودب المبلول بالعرق، لكني استطعت أن أتصور وجهه: جامدًا صامتًا مزروعًا بحبيبات من العرق اللامع، وانحنى أبو عثمان ليحمل على ذراعيه الهرمتين جثة زوجته التي طالما رأيتها متربعة أمام دكانه تنتظر انتهاءه من الغداء كي تعود إلى الدار بالأواني الفارغة، وما لبث أن مر بي، وللمرة الثالثة، لاهثًا لهاثًا رفيعًا متواصلًا وحبيبات العرق مزروعة في وجهه المغضن، وحاذاني، غير ناظر إلي البتة، وعدت مرة أخرى أراقب ظهره المنحني المبتل بالعرق وهو يسير الهوينى بين الصفين.

لقد كف الناس عن البكاء، وخيم سكون فاجع على النساء والشيوخ وبدا كأنما ذكريات أبي عثمان تنخر في عظام الناس بإصرار، هذه الذكريات الصغيرة التي حكاها أبو عثمان لكل رجال الرملة وهم مستسلمون له على كرسي الحلاقة.. هذه الذكريات التي بنت لنفسها عالمًا خاصًا في صدور كل الناس هنا.. هذه الذكريات بدت كأنما تنخر في عظام الناس بإصرار.

لقد كان أبو عثمان، كل عمره، رجلًا مسالمًا محبوبًا، كان يؤمن بكل شيءٍ، وأكثر ما آمن بنفسه، لقد بنى حياته من اللاشيء، فعندما قذفته ثورة جبل النار إلى الرملة كان قد فقد كل شيء، وبدأ من جديد: طبيبًا كأي غرسة خضراء في أرض الرملة الطيبة، وكسب حب الناس ورضى الناس، وعندما بدأت حرب فلسطين الأخيرة، باع كل شيء، واشترى أسلحة كان يوزعها على أقاربه ليقوموا بواجبهم في المعركة، لقد انقلبت دكانه إلى مخزن للمتفجرات والأسلحة، ولم يكن يريد لهذه التضحية أي ثمن، كل ما كان يطلب هو أن يدفع في مقبرة الرملة الجميلة المزروعة بالأشجار الكبيرة، هذا كان كل ما يريده من الناس.. كل رجال الرملة يعرفون أن أبا عثمان لا يريد أن يدفن في مقبرة الرملة عندما يموت.

هذه الأشياء الصغيرة هي التي أسكتت الناس، كانت وجوههم المبلولة بالعرق تنوء تحت ثقل هذه الذكرى.. ونظرت إلى أمي، واقفة هناك، رافعة ذراعيها في الهواء، شادة قامتها كأنها وقفت الآن، تتابع أبا عثمان بنظرها.. صامتة كأنها كوم رصاص، وعدت أنظر إلى

بعيد، ورأيت أبا عثمان واقفًا أمام حارس يهودي يحادثه ويشير إلى دكانه، وما لبث أن سار وحيدًا باتجاه الدكان، وعاد حاملًا فوطة بيضاء لف بها جثة زوجته.. وتابع طريقه إلى المقبرة.

ثم لمحته عائدًا من بعيد، بخطواته الثقيلة وظهره المنحني وساعديه الساقطين إلى جنبيه بإعياء، واقترب مني بطيئًا كما كان يسير، شيخًا أكثر مما كان، معفرًا مغبرًا يلهث لهاثًا طويلًا رفيعًا، وعلى صدريته نقاط كثيرة من الدم الممزوج بالتراب..

ولما حاذاني، نظر إليّ كأنه يمر بي للمر الأولى ويراني، واقفًا هناك، في منتصف الشارع تحت سطح شمس تموز المحرقة: معفرًا مبلولًا بالعرق، بشفة مجروحة مدلاة تجمد عليها الدم، وأطال النظر وهو يلهث، كانت في عينيه معان كثيرة لم أستطع فهمها ولكنني أحسستها وما لبث أن عاد إلى مسيره، بطيئًا مغبرًا لاهثًا، فوقف، وأدار وجهه للشارع، ورفع ذراعيه وصالبهما في الهواء.

لم يتيسر للناس أن يدفنوا أبا عثمان كما أراد، ذلك أنه عندما ذهب إلى غرفة القائد ليعترف بما يعرف، سمع الناس انفجارًا هائلًا هدم الدار وضاعت أشلاء أبي عثمان بين الأنقاض.

وقالوا لأمي، وهي تحملني عبر الجبال إلى الأردن، أن أبا عثمان عندما ذهب إلى دكانه قبل ن يدفن زوجه، لم يرجع بالفوطة البيضاء، فقط.

لؤلؤ في الطريق

غسان كنفاني

صمت المذياع فجأة، وسمعت دقات ساعة منهوكة تأتي من أقصى المدينة، ثم اندلق الصوت دفعة واحدة فدقَّت أغنية ماجنة قطعها صوت يهنئ بحلول العام الجديد.

ولكن الغرفة بمن فيها بقيت صامتةً كما كانت، كان صمتًا من ذلك الطراز الذي يحتار الإنسان في تفسيره: أنصمت، يا ترى، لأننا ودعنا عامًا حافلًا بالعذاب؟ أم لأننا سوف نستقبل عامًا آخر، لا يبدو أقل عذابًا؟ أم للأمرين معًا؟

كان من الضروري أن يحرك إنسان ما الجو المخنوق، وهكذا اقترح حسن أن نخرج إلى الشرفة، حيث نتنشق هواء العام الجديد قبل أن تبتذله أنوف الآخرين، كان الظلام مخيمًا بقسوة، وكان لهب أحمر في نهاية الأفق، حيث تحرق شركات النفط الغاز المتبقي عن حاجتها، كان اللّهب يترنح في محاولة يائسة لإنارة الأفق كله، وكان يتهاوى بين الفينة والأخرى حتى يغسل الأرض بذوبه، ثم ينطلق من جديد.

– (إننا نربح كثيرًا، كثيرًا جدًّا، ولكن هنالك من لا يستطيع أن يشم رائحة طعام طهي جيدًا).

قال حسن ذلك فيما يتكئ على حاجز الشرفة، بينما اقتعد الباقون حواف النوافذ الواطئة.

كنا قد عفنا مثل هذا النوع من دروس الأخلاق، كنا نعرف كل شيء عن الناس الذين يذوبون فيما هم يفتشون عن وسيلة للعيش، وكما نعرف، أيضًا، أدق التفاصيل عن بطولة الذين أتوا من بعيد كي يعيشوا، فماتوا من فرط ما تاقوا إلى العيش.. ولم نكن في حاجة لدرس جديد في الأخلاق، يأتي من إنسان حالم، يأكل الأفق بعيون متجهمة، ويتكئ كالشعراء على حاجز الشرفة.

إلا أن صوت حسن ما لبث أن وصل من جديد، محتويًا على شيءٍ من التحدي:

– (أعرف قصَّة حدثت قبل عام، في مطلع العام الماضي. وكنت أنا أحد أبطالها).

وعاد إلى صمته، وبدا لنا أنه قد كف عن رغبته في التحدث، ولكنه عاود من جديد:

- يجب أن يموت الإنسان في مطلع عام، أو في نهاية عام، فذلك أدعى لحفظ تاريخ موته من إنسان يموت في يوم من الأيام.. لقد مات صاحبي، وبطل قصتي، في مطلع العام، وهكذا فإنه من الصعوبة بمكان أن ننسى موته، ولذلك فنحن مجبرون على ألاَّ ننسى قصته أيضًا!)

لقد أصبح من الواجب، الآن، أن يسأل أحدنا، ولو دون أن يرغب في ذلك:

- (وما هي القصة؟)

- (القصة يا سيدي غريبة حقًّا.. وإن كنت أتعمد نسيانها أثناء العام، كي لا يكذبني الناس، أو أكذب نفسي، فإنه لمن العبث أن أنساها الآن.. ونحن في مطلع عام.. لماذا؟ آه.. إنني لا أدري على الإطلاق.. ولكنني أشعر أنه من العبث أن أنساها أكثر مما فعلت، ولذلك، فلا بد أن تسمعوها مني، وقد يخفف هذا عني بعض الشيء، أيضًا..)

واستدار حسن، فواجهنا وجه مظلل بمأساة متلبدة كتقاطيعه، كان اللّهب الأحمر قد ارتفع في نهاية الأفق حتى أقصاه، ثم انخفض إلى الأرض من جديد، وقال حسن:

- (لم أكن أدري أنّ سعد الدين سوف يلحق بي إلى هنا.. صحيح أننا عشنا طفولتنا سوية، لكنني حصلت من الشهادات، فيما بعد، ما عجز هو عن تحصيله، ولذلك فإن إمكانية الكسب كانت متوفرة في حالتي أكثر مما هي في حالته، ولكنه رغم ذلك أتى إلى هنا، طامحًا طموحًا شديدًا في أن يربح شيئًا ما، وكان هذا الطموح، يورثه حماسة لا تهدأ.

لقد رحبت به ضيفًا في منزلي، وكنت أعتني به قدر طاقتي، ولكنني لم أكن أستطيع تقديم أي شيء يسهل له طريق وظيفة ما، لم يكن الصراع على أبواب دوائر الدولة في صالحه أبدًا، وكانت شهادة أي إنسان تعني بالنسبة له كفًّا مبسوطة توشك أن تصفعه بقوة لا ترحم، وكنت على استعداد لتحمل سعد الدين أطول مدة مقدرة، ولكنني لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من أن أشرح له بين الفينة والأخرى أن الوظيفة بالنسبة له بعيدة، وأن عليه أن يعود إلى بلدته حيث يمكن للمشكلة أن تحل بطريقة أو بأخرى، قلت له في مرة إن العجلة التي تدور هنا شرسة إلى حدود أسطورية، وإنها لا تهتم بالإنسان الفرد على الإطلاق، وإن الجوع بالنسبة للبذخ الماثل لا يمكن أن يكون إلا منظرًا مسليًّا فحسب، وإن الناس هنا يلهثون

راكضين وراء القرش إلى حد أنهم لا يلتفتون خلفهم كي يشاهدوا الزاحفين.. ولكن سعد الدين لم يكن يهمه من الأمر شيء، ولقد قال لي مرة إنه لا يمكن له أن يعود بلا عمل، وبلا مال، وإنه لا يستطيع أن يتحمل على الإطلاق نظرة صديق أو عدو، يقول له، أو يهمس، أو يشير، أو لا يقول ولا يهمس ولا يشير، كيف يعود من وادي الذهب بلا ذهب؟

– يا سعد الدين...

كنت أقول له بين الفينة والأخرى.

– يا سعد الدين، غدًا سوف ينتهي ما جلبته معك من مال، فكيف تريد أن تتصرف؟ هل تتوقع من أصدقائك أن يربوك في بيوتهم كأنك مدلل ضائع؟ إن صحتك لا تساعدك على العيش اعتباطًا، أنت تشكو ضعفًا مرًّا في قلبك يستلزم راحة مطلقة.. وغذاء جيدًا.. وهكذا فإن جو العائلة يناسبك أكثر من انفراط جو العازب.. يجب أن تعود إذا وجدت في جيبك أجرة العودة.

ولكن سعد الدين لم يستمع، كان يريد أن يبقى في المدينة الصاخبة، السائرة رغم كل شيء، يفتش، ويلف، ويدور، ويبحث عن شيء ما.

ولكن، يا أصدقائي، لن أطيل عليكم، لقد أتاني ذات يوم فقال: إن ما معه من المال يوشك أن ينفد، وأنه قد وقع في الفخ حيث لا يستطيع أن يستمر أكثر، ولا أن يتراجع، وطلب مني المشورة.. ماذا كنت استطيع أن أقدم له سوى ثمن العودة؟ ولكنه رفض، وكان يريد معجزة ما شأن كل من يأتي إلى هنا.. معجزة تملأ جيوبه بالذهب، وتمسك بيده تقوده بلطف شديد إلى داره على بسط ممدودة.. ولقد بذلت، يشهد اللّه، جهدًا هائلًا من أجل أن أجتثّ من رأسه أية فكرة تدفعه للتردد.. ولقد اقتنع أخيرًا.. ثم، وخوف أن يتراجع كعادته، طلبت منه أن يسير معي فورًا إلى أقرب مكتب سفر كي يرتبط نهائيًّا بموعد إقلاع وشيك.

لقد سرنا سوية، كما أذكر، تلك الظهيرة، كان الجو غائمًا باردًا، وكان صمت سعد الدين يورثني حرجًا لا قبل لي به، وهكذا قررت أن أصمت أنا الآخر، ولكن صوت سعد الدين ما لبث أن انقض متلهفًا، وأحسست بكفّه تشد ذراعي بعنف، وحين التفت إليه كان نداءً مرًّا يلتمع في عيونه، ويختلج برجاء أخير، وقال لي شبه متوسل:

– اسمع يا حسن.. أنا أؤمن أن خلف هذه الزرقة يوجد أملٌ ما.. ولذلك فأنا لا أظن مطلقًا أنه سوف يتخلى عني، لقد وضحت أمامي طريق جديدة.. ولا بد لي من سلوكها.

– أي طريق؟

– انظر هناك.. أترى ذلك الجالس أمام القفص في وسط الساحة؟ أتعرف ماذا يبيع؟؟

ونظرت عبر الساحة، فرأيت رجلًا بائسًا يجلس القرفصاء أمام قفص صغير، ولم يكن هناك أي زبون، ثم إن الطقس كان بردًا:

– لا أعرف!

– أنه يبيع محارًا.. هذا القفص مليء بالمحار.. إنه يجمع المحار ويبيع كل أربع بروبية واحدة.. إن اللّه وحده يعرف فيما إذا كانت المحارة حبلى بلؤلؤة أم لا.. هذا أبدع (يانصيب) يمكن للواحد منا أن يشاهده عمره كله.

– وماذا في ذلك؟

– لا بد أن أجرب حظي.

– أي حظ؟

– الحظ المدفون تحت ركام عذاب عشرة أعوام، سوف أشتري محارًا بكل ما معي، ولا بُدّ من أن أجد لؤلؤة.

إيه! لقد فقد سعد الدين كل توازنه، العذاب الطويل الذي أمضّ كل خلايا جسده، المجهود اليائس الذي كان يبذله في سبيل أن يعيش، كل هذا جعله يعتقد أن النجاح يكمن في خدعة ما.. في طريق مبطن تحت مظهر ساذج، موجود على أي حال هنا أو هناك. ولهذا كله، كان يصر على أن الثروة والراحة وكل ما طمح له يكمن في بطن محارة مجهولة..

أتريدون الحقيقة؟ لقد كانت تجربة رائعة بالنسبة لي، أنا، أيضًا.. من يدري؟ ربما وجدنا لؤلؤة! وربما كانت لؤلؤة كبيرة مدورة، مزرقة بهدير محيط مجهول متباعد.. أليس من الممكن أن يجد سعد الدين لؤلؤة وأن يستمر في النضال هنا، فترة أطول.. أو أن يعود إلى

منزلـه وفـي جيبـه شـيء مـا؟

وهكـذا توجهنـا إلـى الرجـل المقرفـص.. ولكننـي رغـم كل شـيء كنـت أخـاف أن يسـحق سـعد الديـن فشـلٌ آخـر، فقمـت بمحاولـة أخيـرة، ولكنهـا مستسـلمة سـلفًا:

– سـعد الديـن! هـل تعـرف أن فرصتـك واحـدة مـن ألـف؟ هـل تعـرف أن بيـن كل ألـف محـارة توجـد محـارة واحـدة حبلـى بلؤلـؤة؟ وقـد يكـون الجنيـن الثميـن صغيـرًا كحبـة عـدس؟

فقال:

– هنـاك ملاييـن مـن المحـارات فـي قـاع البحـر، يـا حسـن أتسـتطيع أن تؤكـد أن صاحبنـا الغـواص لـم يحمـل المحـارات المحظوظـة، ويتـرك كل المحـارات الفارغـة هنـاك؟

وجلسـنا أمـام الرجـل، ودفـع لـه سـعد الديـن كل مـا فـي جيبـه، واختـار كومًـا صغيـرًا مـن كومـة المحـار، وبـدا لـي فـي تلـك اللحظـة أن وجـود لؤلـؤة فـي هـذا الكـوم مـن القـاذورات المبتلـة، طمـوح لا مبـرر لـه.

وبـدأت سـكين الرجـل تعمـل بالمحـارات.. كان يدخلهـا ببراعـة فائقـة فـي رأس المحـارة، حيـث شـققت الشـمس نافـذة صغيـرة تكفـي لـرأس النصـل، ثـمّ يرفعهـا بحركـة دائريـة فتنفتـح المحـارة عـن كتلـة لزجـة شـبيهة باللحـم الطـري، كأنهـا أحشـاء حيـوان صغيـر، وتعمـل السـكين تنقيبًـا فـي قطعـة اللحـم، ثـم تُلقـى المحـارة العاقـرة فـي سـلة النفايـات، وترتسـم الخيبـة فـي عينـي سـعد الديـن، ثـم تمحـى تحـت إصـرار أمـل جديـد، وتعـود السـكين تعمـل، مـن جديـد، أيضًـا.

وبـدأ كـوم المحـارات يتصاغـر شـيئًا فشـيئًا، ثمـة غمامـة مجهولـة كانـت تهيمـن علـى الموقـف، كانـت عيـون سـعد الديـن تتشـبث لاهثـة بالسـكين المعقوفـة وهـي تفتـح المحـارات الفارغـة، وكان الرجـل يقـوم بعملـه بـكل بسـاطة، وكنـت قـد بـدأت أتابـع سـعد الديـن، وأكاد أشـاهد الغصـة تمتـص صمـوده بألـف خرطـوم هلامـي.

أيهـا الأصدقـاء.. مـا تـم، بعـد، كان غريبًـا إلـى حـدود مذهلـة، لقـد تبقـت، ثمـة، محـارة واحـدة لا غيـر، وكان الإجهـاد قـد وضـح علـى وجـه سـعد الديـن، فأخـذت أرقبـه وجـلًا، ومغفـلًا مراقبـة أنامـل الرجـل وهـي تفـك غمـوض المحـارة.. لقـد بـدا شـكل سـعد الديـن مخيفًـا.. شـكل إنسـان

على وشك السقوط في هوة، وكان يبدو أنه قد تعلق نهائيًا بهذه المحارة، وأن كل المستقبل لا بد وأن يكون هناك. وفجأة، التمع في العينين الملهوفتين بريق راعب، وخيل إلي أن الحياة قد تمثلت لمعانًا في العينين العميقتين، لمعانًا غريبًا فحسب، كان يحدق في المحارة، وكنت أحدق في وجهه، ثم، وقبل أن أدرك شيئًا، سقط سعد الدين على وجهه في الوحل، وعندما حاولت رفعه، وجدته ميتًا!)

كان الظلام ما زال يخيم بقسوة، واللّهب الأحمر يرتفع بقوة نحو الأفق ثم يهمد فجأة، ومرت لحظات من الصمت الميت، لم يكن أحد منا يرغب في التعليق أو الحديث، ولم يكن يهمنا ساعتها أن نناقش حسن فيما إذا كان واهمًا أو مبالغًا أو كاذبًا، ولكننا لم نكن نستطيع أن نخلع أنفسنا عن القصة. ووصل صوت حسن مرة أخرى، راجفًا متوترًا:

- كان المسكين يشكو ضعفًا في القلب، ولم يستطع أن يتحمل، ولكن يتحمل ماذا؟ صدقوني أنني لا أعرف أيها الأخوة لماذا مات سعد الدين؟ هل كانت، ثمة، لؤلؤة داخل تلك المحارة الأخيرة الملعونة فمات فرحًا، أم كانت فارغة كأخواتها العاقرات، فمات غمًّا؟ لقد مضى كل شيء بسرعة، ودون أن أفطن لهذا الموضوع، لقد أنساني الجسد المطروح في الوحل كل شيء عن المحار واللؤلؤ.. وعندما انتهينا من نقل الميت، كان صاحب المحار قد اختفى، بطبيعة الحال.

الصغيرُ يذهبُ إلى المخيّم

غسان كنفاني

تمّ ترشيح هذا النص من قبل الطالبة فاطمة عبدالله احمد عبدالله اليماحي
مدرسة الماسة للتعليم الثانوي للبنات في الفجيرة.

كان ذلك زمن الحرب. الحرب؟ كلا، الاشتباك ذاته.. الالتحام المتواصل بالعدو لأنه أثناء الحرب قد تهب نسمة سلام يلتقط فيها المقاتل أنفاسه. راحة. هدنة.إجازة تقهقر. أما في الاشتباك فإنه دائمًا على بعد طلقة. أنت دائمًا تمرّ بأعجوبة بين طلقتين، وهذا ما كان، كما قلت لك، زمن الاشتباك المستمر.

كنت أسكن مع سبعة أخوة كلهم ذكور شديدو المراس، وأب لا يحبّ زوجته ربما لأنه أنجبت له زمن الاشتباك ثمانية أطفال. وكانت عمتنا وزوجها وأولادها الخمسة يسكنون معنا أيضًا، وجدّنا العجوز الذي كان إذا ما عثر على خمسة قروش على الطاولة أو في جيب أحد السراويل الكثيرة المعلّقة مضى دون تردد واشترى جريدة، ولم يكن يعرف، كما تعلم، القراءة، وهكذا كان مضطرًا للاعتراف دائمًا بما اقترف كي يقرأ أحدنا على مسمعه الثقيلين آخر الأخبار.

في ذلك الزمن – دعني أولًا أَقُلْ لك أنه لم يكن زمن اشتباك بالمعنى الذي يخيّل إليك، كلاّ لم تكن ثمة حرب حقيقية. لم تكن ثمةأي حرب على الإطلاق. كل ما في الأمر أننا كنا ثمانية عشر شخصًا في بيت واحد من جميع الأجيال التي يمكن أن تتوفّر في وقت واحد. لم يكن أي واحد منّا قد نجح بعد في الحصول على عمل، وكان الجوع – الذي تسمع عنه– همنا اليومي. ذلك أسميه زمن الاشتباك. أنت تعلم. لا فرق على الاطلاق.

كنا نقاتل من أجل الأكل، ثم نتقاتل لنوزعه فيما بيننا، ثم نتقاتل بعد ذلك. ثم في أية لحظة سكون يخرج جدّي جريدته المطوية باعتناء من بين ملابسه ناظرًا إلى الجميع بعينيه الصغيرتين المتحفّزتين، معنى ذلك أن خمسة قروش قد سرقت من جيب ما – إذا كان فيه هناك خمسة قروش – أو من مكان ما. وأن شجارًا سيقع. ويظل جدّي متمسّكًا بالجريدة وهو يتصدّى للأصوات بسكون الشيخ الذي عاش وقتًا كافيًا للاستماع إلى كل هذا الضجيج

والشّجار دون أن يرى فيها ما يستحق الجواب أو الاهتمام.. وحين تهدأ الأصوات يميل أقرب الصبيان إليه (ذلك أنه لم يكن يثق بالبنات) ويدفع له الصحيفة وهو يمسك طرفها، كي لا تخطف.

وكنت مع عصام في العاشرة - كان أضخم مني قليلًا كما هو الآن.. وكان يعتبر نفسه زعيم إخوته أبناء عمتي - كما كنت أعتبر نفسي زعيم إخوتي.. وبعد محاولات عديدة استطاع والدي وزوج عمّتي أن يجدا لنا مهنة يومية: نحمل السلة الكبيرة معًا ونسير حوالي ساعة وربع، حتى نصل إلى سوق الخضار بعد العصر بقليل. في ذلك الوقت أنت لا تعرف كيف يكون سوق الخضار: تكون الدكاكين قد بدأت بإغلاق أبوابها وآخر الشاحنات التي تعبر بما تبقّى، تستعد لمغادرة ذلك الشارع المزحوم. وكانت مهمتنا - عصام وأنا - هيّنة وصعبة في آن واحد. فقد كان يتعيّن علينا أن نجد ما نعبئ به سلتنا: أمام الدكاكين. وراء السيارات، وفوق المفارش أيضًا إذا كان المعنيّ في قيلولة أو داخل حانوته.

أقول لك أنه كان زمن الاشتباك: أنت لا تعرف كيف يمرّ المقاتل بين طلقتين طوال نهاره. كان عصام يندفع كالسهم ليخطف رأس ملفوف ممزّق أو حزمة بصل، وربما تفاحة من بين عجلات الشاحنة وهي تتأهّب للتحرّك. وكنت أنا بدوري أتصدّى للشياطين - أي بقية الأطفال - إذا ما حاولوا تناول برتقالة شاهدتها في الوحل قبلهم. وكنا نعمل طوال العصر: نتشاجر عصام وأنا من جهة، مع بقية الأطفال أو أصحاب الدكاكين أو السائقين أو رجال الشرطة أحيانًا، ثم أتشاجر مع عصام فيما تبقّى من الوقت.

كان ذلك زمن الاشتباك. أقول هذا لأنك لا تعرف: إن العالم وقتئذ يقلب على رأسه، لا أحد يطالبه بالفضيلة. سيبدو مضحكًا من يفعل.. أن تعيش كيفما كان وبأية وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة. حسنًا. حين يموت المرء تموت الفضيلة أيضًا. أليس كذلك؟ إذن دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك أن تحقق الفضيلة الأولى، أي أن تحتفظ بنفسك حيًّا. وفيما عدا ذلك يأتي ثانيًا. ولأنك في اشتباك مستمر فإنه لا يوجد ثانيًا: أنت دائمًا لا تنتهي من أولًا.

وكان يتعيّن علينا أن نحمل السلّة معًا حين تمتلئ ونمضي عائدين إلى البيت: ذلك كان طعامنا جميعًا لليوم التالي.. بالطبع كنا أنا وعصام متفقين على أن نأكل أجود ما في السلّة

على الطريق. ذلك اتفاق لم نناقشه أبدًا، لم نعلن عنه أبدًا. ولكنه كان يحدث وحده. ذلك أننا كنا معًا في زمن الاشتباك.

وكان الشتاء شديد القسوة ذلك العام، وكنّا نحمل سلّة ثقيلة حقًا، (هذا شيء لا أنساه، كأنك وقعت أثناء المعركة في خندق فإذا به يحوي سريرًا) وكنت آكل تفاحة، فقد كنّا خرجنا من بوابة السوق وسرنا في الشارع الرئيسي. قطعنا ما يقرب من مسير عشر دقائق بين الناس والسيارات والحافلات وواجهات الدكاكين دون أن نتبادل كلمة (لأن السلة كانت ثقيلة حقًا وكنا نحن الإثنين منصرفين تمامًا إلى الأكل) وفجأة..

لا. هذا شيء لا يوصف. لا يمكن وصفه: كأنك على نصل سكين من عدوك وأنت دون سلاح وإذا بك في اللحظة ذاتها تجلس في حضن أمك..

دعني أَقُلْ لك ما حدث: كنّا نحمل السلّة كما قلت لك، وكان شرطي يقف في منتصف الطريق، وكان الشارع مبتلًا، وكنا تقريبًا دون أحذية. ربما كنت أنظر إلى حذاء الشرطي الثقيل والسميك حين شهدتها فجأة هناك،كان طرفها تحت حذائه، أي كنت بعيدًا حوالي ستة أمتار ولكنني عرفت، ربما من لونها أنها أكثر من ليرة واحدة.

نحن في مثل هذه الحالات لا نفكّر. يتحدّثون عن الغريزة. طيّب. أنا لا أعرف ما إذا كان لون الأوراق المالية شيئًا له علاقة بالغريزة. له علاقة بتلك القوة الوحشية، المجرمة، القادرة على الخنق في لحظة، الموجودة في أعماق كل منا. ولكن ما أعرفه هو أن المرء في زمن الاشتباك لا ينبغي له أن يفكّر حين يرى ورقة مالية تحت حذاء الشرطي وهو يحمل سلة من الخضار الفاسد على بعد ستة أمتار. وهذا ما فعلته: ألقيت ببقايا التفاحة وتركت السلة في اللحظة ذاتها. ولا شك أن عصامًا تمايل فجأة تحت ثقل السلة التي تركت في يده ولكن كان قد شاهدها بعدي بلحظة واحدة. إلاّ أنني بالطبع كنت قد اندفعت تحت وطأة تلك القوة المجهولة التي تجبر وحيد القرون على هجوم أعمى، غايته آخر الأرض، ونطحت ساقي الشرطي بكتفي فتراجع مذعورًا. وكان توازني أنا الآخر قد اختلّ. ولكنني لم أقع على الأرض وفي تلك اللحظة التي يحسب فيها الأغبياء أن لاشيء يمكن له أن يحدث شاهدتها: كانت خمس ليرات. لم أشاهدها فحسب بل التقطتها واستكملت سقوطي. إلاّ أنني وقفت بأسرع مما سقطت وبدأت أركض بأسرع مما وقفت.

ومضى العالم بأجمعه يركض ورائي: صفّارة الشرطي، وصوت حذائه يقرع بلاط الشارع ورائي تمامًا. صراخ عصام، أجراس الحافلات. نداء الناس.. هل كانوا حقًا ورائي؟ ليس بوسعك أن تقول وليس بوسعي أيضًا. لقد عدوت متأكدًا حتى صميمي أن لا أحد في كل الكواكب السيارة يستطيع أن يمسكني.. وبعقل طفل العشر سنوات سلكت طريقًا آخر.

ربما لأنني حسبت أن عصامًا سيدلّ الشرطي على طريقي. لست أدري. لم ألتفت. كنت أركض ولا أذكر أنني تعبت.. كنت جنديًا هرب من ميدان حرب أجبر على خوضها وليس أمامه إلاّ أن يظل يعدو والعالم وراء كعبيّ حذائه.

ووصلت إلى البيت بعد الغروب، وحين فتح لي الباب شهدت ما كنت أشعر في أعماقي أنني سأشهده: كان السبعة عشر مخلوقًا في البيت ينتظرونني. وقد درسوني بسرعة، ولكن بدقة، حين وقفت في حلق الباب أبادلهم النظر:كفي مطبقة على الخمس ليرات في جيبي، وقدماي ثابتتان في الأرض.

كان عصام يقف بين أمه وأبيه، وكان غاضبًا. لا شك أن شجارًا قد وقع بين العائلتين قبل مقدمي. واستنجدت بجدي الذي كان جالسًا في الركن ملتحفًا بعباءته البنية النظيفة ينظر إليّ بإعجاب: كان رجلًا حكيمًا. رجلًا حقيقيًا يعرف كيف ينبغي له أن ينظر إلى الدنيا.

وكان كل ما يريده من الخمس ليرات: جريدة كبيرة هذه المرة.

وانتظرت الشجار بفارغ الصبر. كان عصام بالطبع قد كذب: قال لهم أنه هو الذي وجد الخمس ليرات وأنني أخذتها منها بالقوة. ليس ذلك فقط، بل أجبرته على حمل السلة الثقيلة وحده طوال المسافة المنهكة: ألم أقل لك أنه زمن الاشتباك؟ لم يكن أي واحد منا مهتمًا فقط بل كان متأكدًا من أن أحدًا لم يهتم بالحقيقة. ليس ذلك فقط بل إنه ارتضى أن يذلّ نفسه ويعلن ربما للمرة الأولى أنني ضربته وأنني أقوى منه.. ولكن ما قيمة ذلك كله أمام المسألة الحقيقية الأولى.

كان أبوه يفكّر بشيءٍ آخر تمامًا: كان مستعدًا لقبول نصف المبلغ وكان أبي يريد النصف الآخر لأنني لو نجحت في الاحتفاظ بالمبلغ كله لصار من حقي وحدي، أما إذا تخلّيت عن هذا الحق فأفقد كل شيء وسيتقاسمون المبلغ.

ولكنهم لم يكونوا يعرفون حقًا معنى أن يكون الطفل ممسكًا بخمس ليرات في جيبه زمن الاشتباك.. وقد قلت لهم جميعًا بلهجة حملت لأول مرة في حياتي طابع التهديد بترك البيت وإلى الأبد: إن الخمس ليرات لي وحدي.

وأنت تعرف لا شك: جنّ جنونهم، ضاع رابط الدم فوقفوا جميعًا ضدي. لقد أنذروني أولًا. ولكنني كنت مستعدًا لما هو أكثر من ذلك ثم بدأوا يضربونني. وكان بوسعي بالطبع أن أدافع عن نفسي، ولكن لأنني أردت أن أحتفظ بكفي داخل جيبي مطبقة على الخمس ليرات فقد كان من العسير حقًا أن أتجنب الضربات المحكمة. وقد تفرّج جدّي على المعركة باستثناء بادئ الأمر، ثم لما بدأت المعركة تفقد طرافتها قام فوقف أمامهم، وبذلك يسر لي أن ألتصق به. اقترح تسوية. قال إن الكبار لا حق لهم بالمبلغ. ولكن من واجبي أن آخذ كل أطفال البيت ذات يوم صحو إلى حيث نصرف جميعًا مبلغ الخمس ليرات كما نشاء.

عندها تقدّمت إلى الأمام معتزمًا الرفض، إلاّ أنني في اللحظة ذاتها شهدت في عينيه ما أمسكني. لم أفهم بالضبط آنذاك ما كان في عينيه، ولكنني شعرت فقط أنه كان يكذب وأنه كان يرجوني أن أصمت.

أنت تعرف أن طفل العشر سنوات – زمن الاشتباك – لا يستطيع أن يفهم الأمور (إذا كان ثمة حاجة لفهمها) كما يستطيع عجوز مثل جدّي. ولكن هذا هو ما حصل. كان يريد جريدته ربما كل يوم لمدة أسبوع – وكان يهمه أن يرضيني بأي ثمن.

وهكذا اتفقنا ذلك المساء. ولكنني كنت أعرف أن مهمتي لم تنته. فعليّ أن أحمي الليرات الخمس كل لحظات الليل والنهار. ثم عليّ أن أماطل بقية الأطفال. وعليّ أيضًا أن أواجه محاولات إقناع وتغرير لن تكف عنها أمي. قالت لي ذلك المساء إن الليرات الخمس تشتري رطلين من اللحم، أو قميصًا جديدًا لي، أو دواء حين تقتضي الحاجة، أو كتابًا إذا ما فكّروا بإرسالي إلى مدرسة مجانية في الصيف القادم... ولكن ما نفع الكلام؟ كأنها كانت تطلب مني وأنا أعبر بين طلقتين أن أنظف حذائي.

ولم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أنوي أن أفعل. ولكنني طوال الأسبوع الذي جاء بعد ذلك نجحت في مماطلة الأطفال، بآلاف من الكذبات التي كانوا يعرفون أنها كذلك ولكنهم لم يقولوا إطلاقًا أنها أكاذيب. لم تكن الفضيلة هنا. أنت تعلم. كانت مسألة أخرى تدور حول

الفضيلة الوحيدة آنذاك: الخمس ليرات.

ولكن جدّي كان يفهم الأمور، وكان يريد جريدته ثمنًا معادلًا لدوره في القصة، وحين مضى الأسبوع بدأ يتململ. لقد شعر (من المؤكد أنه شعر، ذلك لأن رجلًا عجوزًا مثله لا يمكن أن تفوته تلك الحقيقة) أنني لن أشتري له الجريدة، وأنه فقد فرصته، ولكنه لم يكن يمتلك أية وسيلة لاستردادها.

وحين مرّت عشرة أيام أخرى اعتقد الجميع أنني صرفت الليرات الخمس، وأن يدي في جيبي تقبض على فراغ. على خديعة. ولكن جدّي كان يعرف أن الليرات الخمس ما تزال في جيبي. وفي الواقع قام ذات ليلة بمحاولة لسحبها من جيبي وأنا مستغرق في النوم، (كنت أنام بملابسي) إلاّ أنني صحوت فتراجع إلى فراشه ونام دونما كلمة.

قلت لك. إنه زمن الاشتباك. كان جدّي حزينًا لأنه لم يحصل على جريدة، وليس لأنني نكثت بوعد لم يتفق عليه. كان يفهم زمن الاشتباك، ولذلك لم يلمني طوال السنتين اللتين عاشهما بعد ذلك على ما فعلته. وقد نسي عصام القصة أيضًا. كان في أعماقه - كطفل صعب المراس- يفهم تمامًا ما حدث. واصلنا رحلاتنا اليومية إلى سوق الخضار، كنا نتشاجر أقل من أي وقت مضى ونتحادث قليلًا. يبدو أن شيئًا ما - جدارًا مجهولًا ارتفع فجأة بينه - هو الذي ما زال في الاشتباك - وأنا الذي تنفّست - ليس يدري كم - هواء آخر.

وأذكر أنني احتفظت بالخمس ليرات في جيبي طوال الخمسة أسابيع: كنت أعد خروجًا لائقًا لها في زمن الاشتباك. إلاّ أن كل شيء حين يقترب من التنفيذ كان يبدو وكأنه جسر للعودة إلى زمن الاشتباك وليس للخروج منه.

كيف تستطيع أن تفهم ذلك؟ كان بقاء الليرات الخمس معي شيئًا يفوق استعمالها. كانت تبدو في جيبي وكأنها مفتاح أمتلكه في راحتي وأستطيع في أية لحظة أن أفتح باب الخروج وأمضي. ولكن حين كنت أقترب من القفل كنت أشمّ وراء الباب زمن اشتباك آخر. أبعد مدى. كأنه عودة إلى بداية الطريق من جديد.

وما بقي ليس مهمًا: ذات يوم مضيت مع عصام إلى السوق وقد اندفعت لأخطف حزمة من السلق كانت أمام عجلات شاحنة تتحرّك ببطء. وفي اللحظة الأخيرة زلقت وسقطت تحت

الشاحنة. كان حظي جيدًا فلم تمر العجلات فوق ساقي، إنما توقّفت بالضبط بعد ملامستها. وعلى أية حال صحوت من إغمائي في المستشفى. وكان أول ما فعلته – ما لا شك فيه – أن تفقّدت الخمس ليرات. إلاّ أنها لم تكن هناك.

أعتقد أن عصام هو الذي أخذها حين حملوه معي في السيارة إلى المستشفى. ولكنه لم يقل وأنا لم أسأل. كنا نتبادل النظر فقط ونفهم. لا، لم أكن غاضبًا لأنه كان ملهيًا وأنا أنزف دمي بأخذ الليرات الخمس. كنت حزينًا فقط لأنني فقدتها.

وأنت لن تفهم. ذلك كان في زمن الاشتباك.

الزوار

يوسف إدريس

ماكاد آخرهم يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كالقطار المزدحم حين يصل إلى محطة النهاية، حتى التفتت «سمسمة» وهو ليس اسم دلع ولكنه اسمها الحقيقي إلى سكينة التفاتة حادة وقالت بصوت عال:

- (بقى) اسمعي يا...

واحتارت قليلًا هل تقول لها يا(بت) ياسكينة أم سكينة فقط... وسكينة كان اسمها سكينة وهي سكينة فعلاً، وهو اسم قد يبدو ريفيًا، ولكنها لم تكن ريفية النشأة أو الملامح! كانت من مدينة ما، واحدة من عشرات مدننا أنصاف الكبيرة، مؤدبة جدًّا، خجولة جدًّا، ورقيقة أيضًا. وكانت تحتل السرير المجاور لسمسمة المرأة الضخمة، كبيرة الصدر، التي يميل لونها إلى السمرة، ودائمًا ترتدي قميص نوم أبيض.

والسريران كانا في عنبر واحد من العنابر الكبيرة التي تحفل بها مستشفياتنا العامة والمركزية والجامعية والصدرية، العنبر المعهود ذو الاثنين والعشرين سريرًا.. عنبر الحريم يسمونه.. له (تومرجية) سليطة اللسان، ومنفوخة الجسد، مكورة كالبطة، و(تومرجي) أعمش مفروض ألا يدخل العنبر، وأن يقتصر عمله على المطبخ ودورة المياه، ولكن أحدًا لم يعلن يومًا هذا المفروض وأحدًا لم ينفذه.

وكانت سكينة الضعيفة الرقيقة الحنونة التي تحس إذا اطلت النظر إليها أو عمقته أن هناك فعلًا أناسًا ضعفاء محتاجين إلى الشفقة، كانت مريضة بمرض مزمن ولها في المستشفى ثلاثة أشهر وأمنيتها الكبرى أن تغادر وتخرج.. ولكنهم لا يخرجونها ولا يصرحون لها بالخروج، ولا يفعلون هذا بعنف أو بحزم كما قد يعتقد البعض.. إنهم يفعلون بأنصاف الابتسامات أحيانا وبهز الرءوس والطبطبة أحيانًا أخرى.. وأحيانا بمجرد القول: حالا إن شاء اللّه تخرجين.. أما سبب بقائها أو إبقائها فهو أن مرضها من نوع غريب يحلو للأستاذ أن يحاضر طلبته وأطباءه الصغار عليه.. وأن يريه لزملائه الكبار كما لو يريهم قطعة نادرة ضمن مجموعة أصداف أو طوابع بريد يقتنيها.

وسكينة لم تكن مقطوعة من شجرة.. كان لها إخوة، في الحقيقة أخ واحد غير شقيق وأختان.. وكان لها خالات وعمات وقريبات كأي إنسان منا وكل إنسان. ولكن رغم هذا كله فلم يكن لها زوار بالمرة. طوال الأشهر الثلاثة التي مكثتها بالمستشفى لم يزرها أحد.. من يوم أن أتى بها أخوها وأودعها العنبر لم تر وجهه. تلك حقيقة تعرفها هي ويعرفها الجميع حتى التومرجية السليطة اللسان تعرفها.. وقد تكون مشكلة الخروج تلح على سكينة في أحيان كشيء لا بد منه ولا بد من حدوثه ولا بد أن تكلم الطبيب الكبير بشأنه، ولكن مشكلتها الأكثر حدة في الواقع أن يزورها أحد.. أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد يدًا توقظها من النوم أو الغفوة وتقول لها: قومي يا سكينة.. جالك زوار.

طوال أيام الجمع والاثنين –والحقيقة طوال أيام الأسبوع– يفد العشرات والمئات والآلاف على المستشفى ويوزعون على عنابره ثم على أسرته، وقد يخص كل سرير زائر أو خمسة أو عشرة.. ماعدا سريرها هي لم يكن يهوّب ناحيته أحد، أو للدقة كان زوار جارتها يتخذون سريرها كأريكة يجلسون عليها، وهي من خجلها لا تعترض أو تأتي بحركة تسبب حرجًا لأحد. كانت تغادر الفراش نهائيًّا. وتذهب تتمشى في الطرقة أو تخرج إلى شرفة العنبر القذرة.. هناك تتخذ مستودعًا لأكوام الزبالة وقشر البرتقال والموز واليوسفندي الآتي لابد مع كل زيارة.

وهناك.. في تمشيتها هذه كانت سكينة تخزن وتنقبض وتحس أنها مظلومة، وأن لا بد ثمة خطأ في الكون جعلها تبقى بغير زوار.. إن أخاها باستطاعته أن يخطئ مرة ويزورها.. وكم زارت هي إخوتها وبنات خالاتها وكان واجبهم في هذه الحالة أن يردوا الزيارة.. ماذا حدث حتى جمّد قلوبهم وقسّاها؟ ماذا حدث حتى نسيها الجميع هكذا ونسوا أنها في مستشفى؟ ماذا حدث حتى تنقطع صلتها هكذا بعائلتها وأقربائها وحتى بصديقاتها وبالدنيا كلها؟ لم تكن تدري.. حتى مجرد إرسال خطاب.. ما أرسل لها أحد خطابًا أو بعث بسلام.

إحساس لم يكن يشاركها فيه أحد.. كانت أعمق أعماق قلبها هي التي تكتئب وتخزن فقط.. أما كل ما على السطح من وجه وملامح فقد كان يلتف دائمًا بابتسامة لا فرق بينها وبين مئزر الصوف الذي تتلفع به.

وطالت المدة، ثلاثة أشهر.. وأربعة وخمسة، والمرضى يتغير معظمهم حتى لم يبق من القدامى سوى جارتها سمسمة. والوضع على ما هو عليه.. وضع عجيب وغريب. فهي

صحيح ضائقة بالمستشفى والبقاء فيه تريد بشقّ النفس أن تخرج وتغادره.. ولكنها في نفس الوقت وإذا ما سألت نفسها لا تعرف أبدًا لمن وإلى أين تذهب وماذا بالضبط ستفعل.. لقد كانت قبل دخولها تحيا مع أخيها تخدمه في انتظار أن يتزوج هو أو يأتيها هي عريس، ولكنها مرضت وكانت تقضي الليل كله تنهج وتكح حتى ضاق بها الأخ وانتهز أول فرصة وأدخلها المستشفى.. ربما كي لا تعالج بقدر ما يتخلص منها ومن حشرجات أنفاسها. بل إنها سمعت أنه بعد دخولها المستشفى تزوج وعزل من البيت. وشقيقاتها كلهن متزوجات، وهي ليست جميلة حتى يرحب بها زوج أي أخت.. بل لقد ذبلت وكبرت حتى على الزواج فإلى من تذهب وإلى أين؟ وضع عجيب وغريب فهي ضائقة بالمستشفى ضيقًا لا حد له، ومستسلمة لهذا الضيق والحياة في المستشفى استسلامًا لا حدّ له أيضًا، كالسجين الذي يتوق إلى الخروج من السجن إلى الحياة والحرية، ولكنه حين يدرك أنه إذا خرج فلن يعرف ماذا ولا كيف يفعل بحريته تلك يستسلم للسجن. ويكاد يجن بين الضغطين.

ولم تأت المسألة فجأة.. بل وإلى الآن لم تفكر فيها سكينة تفكيرًا جديًّا أو تدبرت ما فعلت، ولكنها هكذا جاءت.. سمسمة كانت زوجة أحد المعلمين الكبار الذي لا يقل عدد أقربائهم وأنسبائهم وأولادهم ونسائهم وبناتهم عن المئات بأي حال من الأحوال، ولهذا كان لا يمر يوم دون أن يزور سمسمة لا أقل من خمسة أو ستة زوار. ويوم العطلات والأعياد يرتفع الرقم حتى يكاد يصل إلى الخمسين.. وكان يبدو على سمسمة أنها في الوقت الذي تعتب فيه على فلانه الفلانية لأنها لم تزرها، ما يكاد الزوار يغادرونها حتى تلهث تعبًا وحتى تغمغم ببرطمة لا يفهم منها سوى الضيق الشديد بالزيارة والزوار، والمسألة بدأت بأن راحت سكينة تسأل سمسمة عن الزوار إذا قدموا من هم، وما هي درجة قربهم لها، وماذا يشتغلون؟ ولم يكن الأمر مجرد سؤال.. دأبت سكينة على ملاحظتهم بدقة ومعرفتهم بالاسم حتى لتطفح السعادة من وجهها حين تقول لسمسمة بعد خروج زائر:

– (مش ده مصطفى ابن خالتك اللي بيشتغل في السكة الحديد)؟

فتبهت سمسمة وتقول:

–اللّه.. (وأنتي إيه اللى عرّفك)؟

حينئذ تحس سكينة الناحلة الهادئة الساكنة بسعادة داخلية لا حد لها.. غير معقول بالمرة أو

مقبول، فقد أصبحت لمجرد أنها عرفت الزائر وخمنته، جاء تخمينها بالضبط مطابقًا للحقيقة.

ولكن هذه السعادة -بالتكرار- لم تعد تحدث، ووجدت سكينة نفسها مدفوعة إلى خطة أخرى كي تحس بنفس سعادتها السابقة. فبدأت تقدم مساعدات، وتسرع مثلًا وتحضر كراسي لزوار سمسمة -أو إذا أرادت الأخيرة أن تعزم عليهم بالقهوة أو الشاي أو الغازوزة- أسرعت سكينة إلى البوفيه تحضر الطلبات بنفسها. وكانت سمسمة تأخذ الأمر في أوله باعتبار أنه نوع من الطيبة من سكينة لا أكثر، ولكنها بدأت تعجب فعلًا وقد راحت سكينة تقوم بأعمال غير معقولة أبدًا.. تأخذ الأطفال من الأمهات الزائرات وتداديهم أو تذهب بهم إلى دورة المياه.. وتلعب مع الأبناء الكبار وتقول لهذا الزائر.. والنبي وحياتك بقى سلم على فلانة وفلان وكأنهم أقرباؤها هي.

بدأت سمسمة تستعجب، وسمسمة لم تكن سهلة ولا طيبة ولا مسكينة أبدًا. إنها جهنم الحمراء إذا انفتحت وإذا رأت في الأمر ما يريب.. وكانت سكينة قد زوّدتها في نظرها كثيرًا وبشكل أصبح لا تفسير له ولا تبرير، تجلس مع الأقرباء والأصهار طوال الزيارة ولا تغادرهم للحظة وكأنها منهم وعليهم، يتحدثون عن أدق أدق أمورهم العائلية الخاصة فلا تخجل ولا تبتعد. بل أكثر من هذا تهتم بها وتناقشها مناقشة المتحمس الغيور، وتبدي الآراء أيضًا.. وتنتظر سمسمة على أحرّ من الجمر أن «تحس» سكينة مرة فتقوم أو تغادر الفراش.. أو على الأقل تولي انتباهها إلى الناحية الأخرى بلا فائدة، إذ كانت سكينة لا تفعل شيئًا من هذا أبدًا، بل تظل طوال الجلسة بأكملها وبعد الجلسة أيضًا تتحدث وتعقّب وتحاول أن تدخل سمسمة في أخص الشؤون وفي الغويط.. وسمسمة تكظم وتكظم. فصحيح أن سكينة تتدخل ولكنها تفعل هذا وهي راقدة في فراشها نفسه لا تغادره، وعلى العكس إن زوارها هم الذين يجلسون على فراش سكينة وبهذا يعطونها الفرصة للاندماج والتدخل.

بل تطور الأمر إلى ما هو أكثر، وبدأت سكينة تقتنص زائر أو زائرة من الجالسين على فراشها وتنخرط في حديث لا ينقطع معه أو معها بحيث تنتهي الزيارة وهم لم يتبادلوا كلمة واحدة مع قريبتهم سمسمة، وكأنهم جاءوا لزيارة سكينة أصلًا.

ولقد تكرر الأمر مرة مرة وسمسمة صابرة تكظم، إلى أن كان هذا اليوم الذي قررت أن تنفجر فيه. وهكذا ما كاد آخر زائر في يوم الزيارة يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة

كقطار وصل إلى محطة النهاية، حتى التفتت سمسمة إلى سكينة التفاتة حادة وقالت بصوت بالغ العلو:

- (بقى) اسمعي يا...

واحتارت قليلًا.. أتقطع العشم والعلاقة والعيش والملح مرة واحدة وتقول يا بت يا سكينة، أم تكتفي بنهرها وتقول يا سكينة فقط؟ فإذا قالت لها يا سكينة فكيف تستطيع أن تصب عليها بهذه البداية ما يتفجر به صدرها الضخم العالي الأسمر من غضب وضيق؟ احتارت سكينة وكأنما لتزيد برؤيتها لها جرأتها وعنف انفجارها.. كانت قد قررت أن توقفها عند حدها وأن تنذرها بأنها إذا استمرت في اقتناص زائر أو أكثر من زوارها هكذا فسوف تمرمط الأرض بزوارها - زوار سكينة إذا جاؤوا - والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم.

صوبت سمسمة عينها إلى سكينة لتجدها راقدة في سريرها نصف مغطاة الجسد تحملق أمامها كمن يجتر ذكرى لحظة سعيدة مرت..وفجأة اكتشفت سمسمة الجهنمية أن تهديدها الذي يكاد يفلت من فمها لا معنى له بالمرة. أجل هكذا.. في ومضة مفاجئة اكتشفت سمسمة أن سكينة لا يأتيها زوار ولا ينتظر أن يأتيها أحد.. وهكذا بعد أن كانت قد استدارت واستدار السرير لاستدارتها، وقالت: (بقى)

اسمعي يا....

وحين التفتت سكينة بدهشة ونوع من الذعر تسأل: نعم يا ست سمسمة؟ لم تغير سمسمة رقدتها ولا رفعت عينيها عن وجه سكينة.. كل ما في الأمر أن صوتها انخفض فجأة حتى كاد لا يسمع.

وقالت:

- (لا ه)... ولا حاجة.. (ده كلمة كده وعدت).

قالت هذا وهي ترمق الفتاة بعينين مشتتتين فوق وجهها يكاد يطفر منهما الدمع.. وظلت مثبتة عينيها فوق وجه سكينة لا ترفعهما، وكأنها تراها لأول مرة.. رفيعة نحيلة مقطوعة من شجرة.

الحرب والجوع

الشَّيخ عبدالله العلايلي

الكآبة! إنها كلّ طفولتي. ولا تعجب فقد اتفق وكنت أيام الحرب العالمية الأولى، أشهد وأبصر مِقصلة الجوع، فلا بدع أن تغَشَّتْني الكآبة وتفشَّت في أعماقي لا كسديل أو ستار، بل كقِماط يلتَفّنُي من أنحائي.

رأيت الهول المجسم في الطرقات والأزقّة، وأبصرت بمشاعري كلها، حتى انقلبت –كما حَسِبتُني– ولست إلاّ عينًا، جاحظة، بل ليس القتل والقتال شيئًا بالنسبة إلى ما كنت أرى، فإرادة القتل في الحروب تخفّفِ وَقْعَ القتل.

أمّا حزَّةُ الألم الحقيقي فتكمن في المسغبة، في الجوع الذي لا يفتأ يطعنك، وأنت لا تستطيع له دفعًا، بكل نصاله، ليعود فيطعن ويطعن، كمعاصر هائلة تدور أسنانها على أشلاء حيّة، وتظلّ ماضية غُدوًّا ورواحًا، صباحَ مساءَ لمساءِ صباحَ وهكذا دواليك.

رأيت أطفالاً وأمّهات أدعوهم كذلك مجازًا، لأن الذي رأيت في الحقيقة: كان مومَياتِ جوعٍ، تُزْري بكل ما أبدعت ريشة «رمبرانت» الهولندي وما أعطت ريشة «هولبين» الألماني في تحفته «رقص الموت»، وما جرت به ريشة «روبنز» (الفلمنكي). أقول هذه الريشات مجتمعة تعجز عن نقل مَرْئِيّاتي، بكلِّ ارتسامات تكشيرة الرُّعب في أخاديدها الغائرة. وأقلّ ما انحفر عميقًا في سرائري، منظر فتى اتفقت له لُقيمة أسرع إليها فَمُه وللحظته اقتحم على فمه فمٌ آخر والتزما عليها لينفكَّا وكلٌّ في فمه شَفَةُ الآخر يمضغها مشفوعة بدمعة، لا أدري أدمعة ترحٍ كانت أم دمعة فرح. فالذي ظلَّ في غائمة وعيي أنّهما كانا يمضغان ويبكيان.

نامي ليستيقظ الدمع ويحكي

عبد العزيز الفارسي

لحظة رأيتُ اجتماعهم قُبيل الظهيرة، ساقني حدسي إلى الموت.

الوجوهُ الصارمة، باللحى المسترسلة على الصدور تملأ مسجدنا في حادثين لا غير: درسٌ بعد صلاة العشاء لإمامٍ عابرٍ للقارات، أو موتُ رجلٍ نحسبهُ صالحًا. وشممتُ رائحة الكافور، ودهن العود والأكفان الجديدة وكلي يقينٌ أنها تنبعثُ من ذاكرتي.. وذاكرتي فقط.

وتركّزت خُطبة الجمعة حول الألم، والحمى، والأمراض والأجور الأخروية المترتبة عليها. وأنا في حدسي أطوف وأسعى بين الكافور ودهن العود وبياض الأكفان. أعالجُ الموت المباغت بالكبرياء.

« سيدي الموت: إن جئت على غفلةٍ فمرحبًا بك، وإن استأذنت بمرض عُضال فعلى الرحب والسعة. ولن أردك. لا حبًا، ولكن رغبةً في معرفة المُطلق».

رغبةً في اختبار الحدس، سألتُ الذي عن شمالي. كان يُذيل دُبر صلاة الجمعة بالاستغفار والتسبيح. همستُ: «أمات أحد؟».

أومأ بالإيجاب: «شريفة».. فتهشَّم الرمش الذبيحُ على يدي، وتساقطت من أضلعي نُدفُ الأسى..

« سيدي: ألست نفسك تقبضُ الأرواح هنا، وهناك.. فلِم قبضت روح شريفة في أرض الغرباء؟!.. غربتان يا موت؛ عن أرض الأهل وغربتك. أفتجمعهما؟. لا أنهرك يا غريب.. لا ننهرك يا غريبِ.

وتساقطت ذكرى الغياب مدائن، طوت الرحيل بأعين مترقّبة لم تكن ثمة رائحة للكافور، أو دهن العود، البياض رائحة جثمانها الذي اصطففنا خلفه. قال إمامٌ خضّب لحيته بالحناء:

« نصلي أربع تكبيرات على الميتة. بعد الأولى نقرأ الفاتحة. بعد الثانية نقرأ الصلاة الإبراهيمية. بعد الثالثة ندعو للميتة. بعد الرابعة...»

وأكمل القلبُ ما تبقى: « ندعو لما تبقى من أرواحنا، ثم نُسلِّم ».

« اللّه أكبر ».

تغضبُ زوجتي إذا سألت عن عمر الميت وأجبتها: « أصغر منا بكذا سنة أو أكبر منا بكذا سنة ». تصرخ: « قل عُمر الميت مُجرّدًا من أي مقارنةٍ بأعمارنا ». لكن إن سألت عن عمر شريفةَ التي لم تكمل الثلاثين.. سأقول بسبقِ إصرار: « أصغر منكِ بخمس سنين ».

« اللّه أكبر »

قالت شريفةُ يومًا ـ قبل أن أهجرها لفرط غبائي ـ تحدّثني عن نكهة الفقد: « أكره الموت الضعيف، ولم أزر مريضًا قبل موته. أريدُ فقد أحبتي كما كانوا شامخين ضاحكين بهامات ورؤوس تعانق الشمس ». لذا لم أزر شريفة في مرضها، وأتذكرها الآن فقط ضاحكةً بشوشة.

« اللّه أكبر »

الدعاء للميتة: ربي.. هذه شريفة..

ربي.. هذه شريفة..

ربي هذه.....

« اللّه أكبر »

السلام عليكم ورحمة اللّه...

يا مُخضّب اللحية: لم استعجلت بالسلام ولم تترك لنا فرصة الصلاة على أنفسنا؟. يا مُخَضّب اللحية.. يا إمام: أتضمن وجود من يدعو لي بعد الموت؟

قيل عن جنازة المؤمن إنها خفيفة في الحمل، سريعة في الوصول إلى القبر. والجنازة تنطلقُ في هرولة. استلمتُ الجانب الأمامي الأيمن للنعش لأتحسس وزن شريفة. قالت: « وزني خمسةٌ وأربعون كيلوغرامًا.. خمسةٌ لي، والأربعون هموم ونكساتٌ أحملها بين أضلعي ». وزن شريفة الآن خفيف. ربما كان خمسة كيلو غرامات. شريفة: أين تركت الهموم والنكسات؟!!

كان القبرُ جاهزًا. دسستُ نفسي بين الأكتاف المتراصة لألقي نظرة على الداخل. قال صبيٌّ لجده: «يااااااه. عميق». رد الجد: «لو ما مكرهن.. ما غرّزوا قبرهن».. غصصتُ بالكلمات فتراجعتُ للخلف.

الغبار يخنقُ وجه الشمس، واتخذ بعض الرجال ظل السدر ملاذًا حتى وضع الجثمان في اللحد والإغلاق عليه. فيما توافدت بعض السيارات إلى باب المقبرة، جاء بها من تخلّف عن الجنازة، ومن قرر توفير السيارات لدرب العودة بعد الدفن.

قالت شريفة ذات وهج: «ما يفعل الموتُ بنا؟!. لا شيء. لا شيء». كنا نعالج الحر بالبوظة المثلّجة ونسحبُ أنفاسًا عميقة. لم تسمعني الآن لقلت: «هذا ما يفعل الموت»، ولأشرت إلى عدد من كبار السن قد افترشوا التراب وجلسوا يسردون أخبارهم. بعضهم تناول أعوادًا يابسة وصار يخطط بها في وجه الأرض..

«أيها الموت الغريب.. أيها الموت الغريب. ذابت احتمالاتنا كالبوظة في حر الصيف. سالت وتخلّصنا منها. تمنينا لعق ما تبقى من البوظة والاحتمالات على اليدين. لكننا خجلنا. كابرنا. ربما...»

خرج أبوها من القبر. تبعه ولداه. أحدهما يبكي والآخر يتأمل الوجوه. أما الأب فقد بدا صارمًا. زارته النوبة القلبية قبل شهر ودخل العناية يومين. قال له الطبيب: أربعون في المائة.. هذا احتمال وفاتك خلال شهر من الآن.. وإن نجوت فإن هناك نسبة تقارب العشرين بالمائة.. هي احتمال وفاتك خلال سنة. هذا ما تقوله إحصائيات الأزمات القلبية في أنحاء العالم. مرّ شهر وسقطت العشرون بالمائة الأولى. قبل انقضاء العشرين بالمائة الأخيرة ماتت ابنته التي يعيّر بها ولديه: بشريفة فقط أرفع رأسي.. أما أنتما فلا فائدة أرجوها منكما. هكذا قال يوم تفوقت.

«أهيلوا التراب. كل واحدٍ يهيل ثلاثة كفوف ويفسح لغيره كي يأخذ الأجر».

تسابقوا لإهالة التراب على اللحد. ارتفعت كومة الغبار عاليًا.

أغضمتُ عيني وأهلت التراب..

«شريفة.. ما أقول للغياب؟ ما أقول للغياب؟!»

«لك ألفُ خطوةٍ فينا. لك ألف خطيئة. فمتى يا غياب تؤوب؟»

نفضوا أياديهم من الغبار، ولم أنفض يدي.

تقدّموا لتقبيل أبيها وأخويها..

«الصبر.. الصبر يا جماعة»

«عظّم اللّه أجركم»

ويوم تقدّمتُ إلى أبيها، احتضنته بصمت، ثم تواريت. ركبوا سياراتهم وتركوا القبر الرطب. وحدي مشيتُ أجرجر المرثية، وأبحثُ عن كلماتها. لك المطلق الآن يا شريفة. لك المطلق، ولي أساور من تمنّ، تزيّن الانتظار الكئيب.

«سيدي الموت: إن جئت على غفلةٍ فمرحبًا بك، وإن استأذنت بمرضٍ عُضال فعلى الرحب والسعة. لن أردك. لا حبًا، ولكن رغبةً في المُطلق».

كانت زوجتي غاضبة حين وصلتُ البيت. ذرعتْ فناء الدار عشرين مرةً في انتظاري. صرختْ: «أين كنت؟!. لقد أخفتني. مرّ على انقضاء صلاة الجمعة ساعة ولم تأت. وما هذا التراب في يديك؟». دلفتُ إلى المنزل. قلتُ:

– كنا ندفن شريفة.

– ادفنِ من تريد، ولكن أخبرني أنك ستتأخر عن القدوم. قتلتني من الانتظار. أين جهازك النقّال؟

– هنا في البيت، ألم يكن ممكنًا أن تتصل من هاتف زميلك لتخبرني عن تأخرك؟.. ثم من شريفة هذه؟

تصمت؟!. تعودتُ منك الجري خلف جنائز أناسٍ لا تعرفهم. هيا ادخل لأخذِ حمام وانفض عنك هذا التراب.

- لـن أنفضه!!!..دخلـتُ إلـى مكتبـي وتأملـتُ يـدي المغبرتيـن. مسـحتُ بهمـا علـى صـدري. قالـت شـريفة فـي احتيـاج: «أريـد البـكاء علـى كتفـك».

قلتُ رافضًا لخوفٍ ملأني: «أخشى أن تجرح رموشك كتفي».

لم تبك، الآن والغبار على هذا الصدر أنادي شريفة: «نامي.. ليستيقظ الدمع ويحكي».

الناسك الحكيم
للكاتب الرّوسي (ليو تولستوي)

خطر مرة لأحد الملوك خاطر عابر ملأ عقله، فشغله عن كل امرأة.. حبذا لو عرف ذلك الملك لكل عمل ميعاد عمله الأنسب. ثم لكل عمل في ميعاده رجله الأنجب، إذًا لظفر صعدا إلى ذروة المجد والخلد في كل ما يدور بالخلد من أعمال الملك بين الناس!

وتشبث الملك بخاطره.. فأذاع الأمر بين عساكره. وذهب العسكر إلى دساكر المملكة ومدنها ينادون: يا أصحاب العلم وطلاب الحكمة، لقد تعطف الملك فوعد بأثمن الجوائز لمن يجيب عن هذا السؤال: من يكون أنسب الرجال لأنسب الأعمال في أنسب الأوقات!

وتدفق العلماء على ساحة الملك يتدافعون ويدافعون كل عما ارتآه.. ويا أكثر ما سمع فريق يقوم قائلًا: إن أنسب الأوقات إنما يمكن معرفته بقائمة يكتب الإنسان فيها الأيام والشهور والأعوام.. ويظل متتبعًا إياها لا تفوته من أحداثها شاردة.. ولا واردة. وهكذا لا يفتأ يطبّق حاضره على ماضيه. متخذًا من حوادث الزمن عبرته فتصدى لأصحاب هذا الرأي مَنْ يقول: وما لنا نظل غارقين بأنفسنا في اعتبارات الماضي.. نستوحيها ونستلهمها. وفي حوادث الحاضر وما هو أول عبرة. وأجل اعتبارًا، فما على الإنسان إلا أن يجلس وينظر حواليه فيما يدور من أحداث. ومن ثم يستتبعه، ويستوعيه ويستخرج منه أنسب الأوقات لأي عمل من الأعمال!

فإذا فريق ثالث ينهض متسائلًا: وهل يمكن للإنسان أن يتتبع كل ما يدور حوله من حوادث الزمان. لعمر الحق إن الرأس لا تعرف في العلم من يأس. ولكن إقناع اليأس من بلوغ شيء والبلوغ نفسه شيء آخر، فما أحوج المرء الضعيف لنفسه، والقليل بمحتويات رأسه، أن يتخذ له مشيرين وناصحين، يفتونه، ويدلونه على أنسب الأوقات لأنسب الأعمال! ودعنا من أنسب الأوقات، فما هي أنسب الأعمال يا أحكم الرجال؟

هذا شيخ وقور يتقدم إلى ساحة الملك، ويتكلم في حنكة وحكمة قائلًا:

– إن أنسب الأعمال هو التعليم.. لأن العلم هو النور الذي يتسع على الحوادث.. فيضيء أركانها ويكشف من جوانبها. فإذا ضابط عجوز يضرب الأرض بقدميه في حمية وحماسة

ويقـول:

– مـا قيمـة العالـم بـلا حـرب.. ومـا قيمـة الحـرب بـلا أمـن؟ فعبثًـا إذًا يضيـع النـاس.. أوقاتهـم إن لـم يعرفـوا أسـرار الفنـون الحربيـة ومتاهاتهـا.

ولكن ألا نستمع إلى هذا اللابس المسوح يتقدم في هيبة الكهنوت ويقف قائلًا:

– لقـد شـغلتم الدنيـا يـا أبنـاء النـاس عـن دينكـم. ومـا أحـوج الـروح الخالـدة فيكـم إلـى التغلـب علـى أجسـادكم الفانيـة.. فليس أكثر خيـرًا مـن مزاولـة الطقـوس الدينيـة.. ولا أنسـب مـن إقامـة شـعائر اللّـه.

والسـؤال الثالـث: مـن هـم أحكـم الرجـال الـذي هـم أجـدى بـأن يقلدهـم الملـك مقاليـد الأمـر.. ويسـتمع إلـى نصحهـم.. وحكـم قولهـم فـي كل أمـر. ألا يكونـون هـم العلمـاء.. أم الأطبـاء.. أم أنهـم الكهنـة.. أم أن الملـك بـلا جنـد كطائـر بـلا جنـاح.. وإذا فهـم الجنـود.

اختلفـت الأقـوال وتضاربـت الآراء. فمـا اقتنـع الملـك بقـول.. ولا أرضـاه رأي.. وهـو يتلهـف شـوقًا إلـى إجابـة مـا خطـر لـه مـن سـؤال. ولكـن آه، مـا أكثـر مـا ينسـى الملـك ويسـهو أن فـي الغابـة ناسـكًا.. كـم قالـوا إنـه حكيـم وناقـد الفكـر.. وإذًا فهـو صاحـب الـرأي وليسـأله الملـك.

وتنكـر الملـك فـي زي فـلاح سـاذج. وخـرج إلـى الغابـة إلـى حيـث يعيـش الناسـك الحكيـم فمـا بلغـه هنـاك فـي دغلـة مـن الأحـراش. وجـده أمـام كوخـه مكبًـا علـى الأرض يحفـر بفأسـه.. فحيـاه الملـك فـرد التحيـة متأدبًـا ثـم عـاد إلـى عملـه، لا يـكل ولا يني..

وكان الناسـك نحيفًـا ضعيفًـا.. وكل مـرة يرسـل فيهـا الفـأس إلـى الأرض. ويخـرج مـن صلبهـا بعـض التـراب. يقـف هنيهـة متفرسًـا فـي شـهيق وزفيـر طويليـن. ثـم يعـود فيضـرب فـي الأرض فأسـه.

واقترب الملك منه قائلًا:

– إننـي قـد أتيـت إليـك.. أيهـا الناسـك الحكيـم لكـي تدلنـي علـى ثـلاث مسـائل حيرتنـي: فمـا هـو أنسـب وقـت لـكل عمـل؟ ومـا هـو أنسـب عمـل لـكل وقـت؟ ثـم مـن هـو أنسـب الرجـال ليركـن إليـه المـرء فـي تصريـف أمـره؟

فأنصت الناسك إلى الملك.. ولكنه لم يجب.. بل لم يلبث أن عاد للحفر لا يني: فقال له الملك:

– إنك على ما يبدو متعب.. فدعني آخذ الفأس منك.. وأعمل بعض الوقت عنك. فشكره الناسك وناوله الفأس. ثم استلقى على الأرض يستريح. وما ضرب الملك الفأس ضربتين حتى توقف. وأعاد على مسمع الناسك أسئلته.. ولكن الناسك ظل صامتًا. ومد يده يريد الفأس وهو يقول يمكنك أن تستريح هنيهة ودعني أعمل.

ولكن الملك لم يعطه الفأس وراح يضرب، والحفرة في الأرض تتسع. ومرت ساعة.. ثم أخرى، إلى أن اكفهرت الشمس.. وبدأت تغوص خلف الأشجار. فألقى الملك أخيرًا بالفأس على الأرض وقال:

– جئت إليك أيها الرجل.. لكن تجيب عن أسئلتي. فإن كنت مصممًا ألاّ جواب: فقل لي حتى أعود!

فتلفت الناسك إلى بعيد وقال:

– ها هو شخص يأتي راكضًا.. فدعنا نَرَهُ من يكون.

ونظرًا الملك فرأى رجلًا ملتحيًا.. يجري إلى داخل الغابة، وقد ضمّ كلتا يديه على أحشائه ودماء غزيرة تسيل منه.. ولما سقط على الأرض مغشيًا عليه، فأسرع إليه الملك ورفع عنه رداءه فإذا بجرح كبير قد انشق في جسمه. فأمسك الملك بالجرح وغسله بالماء وطهره على قدر ما استطاع وربطه بمنديله.

ولكن الدماء ما تفتأ تسيل وتنفجر. فما زال الملك يضمد الجرح حتى أخذ سيل الدماء منه يهدأ شيئًا فشيئًا.. ثم انقطع.

وحينئذ أفاق الرجل من غيبوبته.. وتلفت ساهمًا حواليه. فلما رأى الملك.. طلب منه في ضراعة شرابًا يبل به جفاف حلقه فأسرع الملك وملأ كوب ماء وسقاه. وكانت الشمس إذ ذاك سقطت في وحدة الأفق.. وترطب الجو بنسمة البحر.. فحمل الملك والناسك الرجل الجريح وأدخلاه في جوف الكهف، ومدداه على الفراش وأسبلا عليه من أرديتها ما يكفي

لبعث الدفء فيه.. فأغلق الرجل عينيه وغفا.

وكان الملك قد أرهقه السير وأنهكه العمل طيلة هذا اليوم العجيب، حتى إنه استلقى على الأرض ونام أعمق نوم عرفه في حياته طول الليل حتى الصباح!

وفي الصباح استيقظ الملك ويا لدهشته.. إذ ألقى نفسه في هذا المكان الموحش المقبض، ولكنه عاد بعد قليل، فتذكر الناسك وكهفه. ثم هذا الرجل ذا اللحية الذي رآه الساعة يحدق فيه النظر بعينين براقتين. وإذ رأى الرجل الملك قد تنبه إلى أنه يمعن فيه النظر. قال له بصوت ضعيف أن اغفر لي. فقال الملك:

- أنا لا أعرفك يا صاح.. وليس ثمة ما أغفر لك من أجله.

فأجاب الرجل:

- أنت لا تعرفني.. ولكني أنا أعرفك.. أنا عدوك الذي أقسم لينتقمن لنفسه منك يا من قتلت أخاه. وسرقت أمواله ودمرت بيته شر تدمير. وها أنا قد عرفت أنك ذاهب وحدك لتعود الناسك فأصررت لأقتلك عند عودتك وتربصت وانتظرت. فخرجت حانقًا أهيم باحثًا عنك. حتى صادفني بعض حرسك فعرفوني وانقضوا عليّ انقضاض الوحوش الكواسر حتى خلفوا في جسمي جرحًا مميتًا... فجاهدت حتى تخلصت منهم وهربت إلى أحراش الغاب... حيث وجدتك.. ولكنك أسرعت إليّ فضمدت جراحي ولو لم تفعل لكنت أنا في عداد الأموات.. فليشنقوني. لقد أردت قتلك يا مولاي الملك. إن أنا عشت. وإن أنت أردت فسأكون خادمك المخلص.. مضحيًا بحياتي.. وأكون أول المضحين من أجلك.. وليكن أبنائي عبيدك يا مولاي.. ما حييت فاغفر لي.

فتهلل وجه الملك بشرًا.. وامتلأت نفسه فرحًا.. لتصالحه مع عدوه بمثل هذه السهولة، وما غفر له كيده فحسب.. بل لقد وعده ليعوض له ما أصابه من فقد أخيه. وليرد له ما سلبه من أمواله.

فخرج فرحًا شاكرًا.. داعيًا للملك راعيًا حبه وولاءه.

وتلفت الملك حواليه في الكهف فلم يجد الناسك.. فغادر المكان خارجًا فوجده راكعًا

على ركبتيه جاهدًا يعيد التراب إلى الحفرة التي حفرها بالأمس فاقترب منه وقال له.

– للمرة الأخيرة.. أرجوك أيها الرجل الحكيم أن تجيب عن أسئلتي. فقال الناسك وما زال منكبًا على ركبتيه:

– ولكنك قد أجبت عن أسئلتك.

فدهش الملك وقال:

– أجبت عن أسئلتي... بربك ما الذي تعني.

فأجاب الناسك:

– ألا ترى.. إن لم تكن قد أرحت ضعفي بالأمس. ولم تحفر هذه الحفرة لي. ورجعت غاضبًا لكان هذا الرجل قد عثر بك وقتلك... ولكنك قد ندمت على أنك غادرتني. فأهم الأوقات إذًا كان عندما كنت ممسكًا بالفأس تضرب الأرض بها. وكان أهم عمل عملته.. هو أن ساعدتني، وفعلت الخير لي. لأنك لو لم تفعله، لكان قد أصابك الشر الذي ينتظرك وقد كنت أنا أهم الأشخاص بالنسبة لك... لأنك لم تكن تعرف من الذي سيصادفك من الناس بعدي. هذا شأنك معي. أما حين ركض الرجل نحونا فقد كان أنسب وقت هو الذي ضمدت فيه جراحه لأنك لو لم تفعل لمات الرجل ولم يصفح عنك. وإذًا لقد كان الخير الذي عملته معه هو أنسب الأعمال وكان الرجل نفسه أنسب الرجال. فتذكر إذًا أيها الملك أن هناك وقتًا واحدًا أهم وأنسب من كل الأوقات. وهذا الوقت هو الآن. فالآن هو الوقت الذي تبغي.. لأنه الوقت الوحيد الذي نملك. أن يكون لنا فيه ثمة قوة. أما أهم وأنسب الأشخاص فهو الذي تكون معه لحظتك هذه. لأنك لا تعرف بعد هذه اللحظة مع من غيره ستتعامل.

أما أهم وأنسب الأعمال فهو أن تعمل لهذا الشخص خيرًا. لأنه لهذا الغرض وحده وضعت في هذه الأجساد.. الحياة وخلق الإنسان!

المغفلة

للكاتب الرّوسي (أنطوان تشيخوف)

منذ أيام دعوت إلى غرفة مكتبي مربية أولادي « يوليا فاسيلفنا » لكي أدفع لها حسابها.

قلت لها:

– اجلسي يا (يوليا فاسيليفينا)، هيا نتحاسب، أنت في الغالب بحاجة إلى النقود، ولكنك خجولة إلى درجة أنك لن تطلبيها بنفسك.. حسنًا.. لقد اتفقنا على أن أدفع لك ثلاثين (روبلًا) في الشهر.

– أربعين.

– كلا، ثلاثين، هذا مسجل عندي.. إذن تستحقين ستين (روبلًا).. نخصم منها تسعة أيام آحاد..فأنت لم تعلمي (كوليا) في أيام الآحاد، بل كنت تتنزهين معه فقط. ثم ثلاثة أيام أعياد.

تضرج وجه (يوليا فاسيليفينا)، وعبثت أصابعها بأهداب الفستان ولكن.. لم تنبس بكلمة!

– نخصم ثلاثة أعياد، إذن المجموع اثنا عشر (روبلًا).. وكان (كوليا) مريضًا أربعة أيام ولم تكن دروس.. كنت تدرّسين (لفاريا) فقط.. وثلاثة أيام كانت أسنانك تؤلمك فسمحت لك زوجتي بعدم التدريس بعد الغداء.. إذن اثنا عشر زائد سبعة تساوي تسعة عشر.. نخصم، الباقي..هم.. واحد وأربعون (روبلًا).. مضبوط؟

احمرّت عين (يوليا فاسيليفينا) اليسرى وامتلأت بالدمع، وارتعش ذقنها. وسعلت بعصبية، وتمخطت، ولكن.. لم تنبس بكلمة!

– قبيل رأس السنة كسرت فنجانًا وطبقًا. نخصم (روبلين).. الفنجان أغلى من ذلك، فهو موروث، ولكن فليسامحك اللّه! علينا العوض.. نعم، وبسبب تقصيرك تسلق (كوليا) الشجرة ومزّق سترته.. نخصم عشرة.. وبسبب تقصيرك أيضًا سرقت الخادمة من (فاريا) حذاء.. ومن واجبك أن ترعي كل شيء، فأنت تتقاضين مرتّبًا.. وهكذا نخصم أيضًا خمسة.. وفي (10) يناير أخذت مني عشرة (روبلات). فهمست يوليا فاسيليفينا:

– لم آخذ!

– ولكن ذلك مسجل عندي!

– طيب، ليكن..

– من واحد وأربعين نخصم سبعة وعشرين.. الباقي أربعة عشر..

امتلأت عيناها الاثنتان بالدموع.. وطفرت حبّات العرق على أنفها الطويل الجميل.ياللفتاة المسكينة!

وقالت بصوت متهدج:

– أخذت مرة واحدة.. أخذت من حرمكم ثلاث (روبلات).. لم آخذ غيرها..

– حقًا؟ انظر، وأنا لم أسجل ذلك! نخصم من الأربعة عشر ثلاثة، الباقي أحد عشر.. هاهي ذي نقودك ياعزيزتي! ثلاثة.. ثلاثة.. ثلاثة.. واحد، واحد.. تفضلي!

ومددت لها أحد عشر (روبلًا).. فتناولتها، ووضعتها في جيبها بأصابع مرتعشة. وهمست:

– (Merci).

– فانتفضت واقفًا وأخذت أروح وأجيء في الغرفة. واستولى عليّ الغضب.

سألتها:

– (Merci) على ماذا؟

– على النقود..

– ياللشيطان، ولكني نهبتك، سلبتك! لقد سرقت منك! فعلام تقولي (Merci)؟

– في أماكن أخرى لم يعطوني شيئًا..

– لم يعطوك؟! ليس هذا غريبًا! لقد مزحت معك، لقنتك درسًا قاسيًا.. سأعطيك نقودك، الثمانين (روبلًا) كلها! هاهي ذي في المظروف جهزتها لك! ولكن هل يمكن أن تكوني

عاجـزة إلـى هـذه الدرجـة؟ لمـاذا لا تحتجيـن؟ لمـاذا تسـكتين؟ هـل يمكـن فـي هـذه الدنيـا ألا تكونـي حـادة الأنيـاب؟ هـل يمكـن أن تكونـي مغفلـة إلـى هـذه الدرجـة؟

ابتسمت بعجز فقرأت على وجهها: « يمكن !» .

سـألتها الصّفـح عـن هـذا الـدرس القاسـي وسـلّمتها، لدهشـتها البالغـة، الثّمانيـن (روبـلًا) كلّهـا. فشـكرتني بخجـل وخرجـت.. وتطلّعـت فـي إثرهـا وفكّـرت: مـا أسـهل أن تكـون قويًّـا فـي هـذه الدّنيـا!

ضيوف في الليل
(توماس هاردي)

كانت الأمطار تهطل بعزارة.. وكانت الرياح تصفر في ذلك الليل البهيم.. تكاد تقتلع أكواخ القرية الصغيرة.. ولكن كوخ المزارع [فليفل] كان حافلًا تلك الليلة.. كان أهل القرية يحتفلون بعيد ميلاد ابنة فليفل.. كانوا يشربون ويأكلون ويرقصون على أنغام القيثارة العذبة التي كانت تخنقها في الخارج أصوات العاصفة الهوجاء. ولم يكن يقطع عليه مرحهم إلا تيار من الريح العاصفة يندفع داخل الكوخ، من نافذة نسي المزارع فليفل يوم أمس أن يسعفها ببعض المسامير عند حذره أهل القرية من هبوب العاصفة. أماسقف ذلك الكوخ المسكين، فقد كان يسمح لنقاط من المطر أن تتساقط على أرض الكوخ برتابة وانتظام، مشكلة ما يشبه الإيقاع لأنغام القيثار الراقصة!

وقامت السيدة فليفل لتنجد نار الموقد التي كاد يخبو أوارها، عندها سمعت طرقتين متتاليتين.. وتوقف الراقصون وجمدت أيدي القرويين.. قبل أن تصل الكؤوس إلى الشفاه.. ثم أشار فليفل إلى زوجته التي كانت قريبة من الباب.. فرفعت المزلاج.. ودخل الكوخ بعد أن أحنى رأسه شاب طويل نحيف، التصقت ثيابه الممزقة بجسده المرتجف من البرد، وحاول الشاب أن يقول شيئًا، لكن فليفل فهم كل شيء.. كان يحتاج إلى الدفء.. إلى الطعام.. إلى الراحة..

وعاد الكوخ إلى مرحه بعد أن استقر الشاب الطويل على مقعد قرب الموقد، ليجفف ثيابه، ويدفئ جسمه بشرحة لحم قدمتها له ابنة فليفل التي يحتفلون بعيد ميلادها: (ألا تشاركنا حفلة ميلادي؟) وحاول الشاب الطويل للمرة الثانية أن يقول أي شيء، لكن لسانه لم يسعفه، فابتسمت الفتاة الصغيرة وهي ترمقه بنظرة فيها من الحذر بقدر ما فيها من البراءة والإشفاق.

ويظهر أن النار المتأججة، والطعام الساخن، والموسيقية الريفية الراقصة، وطيبة أهل القرية الذين يفتحون قلوبهم لكل ضيف... يظهر أن كل ذلك ساعد على إخراج الشاب الطويل من صمته، عندما سألته السيدة فليفل: (يخيل إليّ أني رأيتك من قبل. ولكن أين؟ هذا ما يحيرني..) فأجاب الشاب الطويل: (لقد غادرت هذه المنطقة منذ سنين.. ولقيت بعد ذلك

كثيرًا من المتاعب وسمعت ثلاث طرقات قوية متتالية، وكأن صاحبها كان عصبي المزاج، فقد باشر بالطرق ثانية بينما كان أحد القرويين يُنزل بالمزلاج.. وتلفت الشاب الطويل حوله، وكأنه يبحث عن شيء في أركان الكوخ.

وكان الضيف الثاني لا يقل عن الأول طولًا، ولكن تلك الشعرات البيضاء التي تخطط شعره كانت تدل بوضوح أنه يزيده عمرًا.. وكان هناك اختلاف آخر..

كان الضيف الجديد يرتدي معطفًا سميكًا، ظهرت تحته بذلة رمادية عندها فك أزراره.. وقال بلهجة فيها من الأمر أكثر مما فيها من الطلب: يجب أن أرتاح بعض الوقت، وإلا فستغرقني الأمطار قبل أن أصل إلى (كاسل بريدج). ولم يكن فليفل أقل كرمًا منه في المرة الأولى فقد قال مرَحِّبًا: (أهلًا بالضيوف في حفلتنا المتواضعة).

وانحنى الضيف الثاني للشاب الطويل وهو يتخذ لنفسه مجلسًا قرب النار. وبعد أن قام فليفل بواجباته نحو الضيف الجديد، سأله وهو يلوك قطعة من اللحم أرهقت أسنانه: وهل تقيم في (كاسل بريدج)؟ فأجاب الضيف الجديد: كلا.. ولكن يجب أن أكون هناك في الغد قبل الساعة الثامنة صباحًا فسأله فليفل: (وهل تؤدي هناك أية وظيفة؟).

ولم يرد الضيف الجديد، فقد تظاهر بأنه مشغول بأكل ما قدم إليه من طعام: فقال الشاب الطويل معقبًا: (تستطيع غالبًا أن تعرف حرفة الإنسان إذا نظرت إليه).

فقال الضيف الجديد: (ولكن عملي لا يترك آثاره على يدي، بل يترك آثاره على زبائني). وحيّر هذا الكلام أولئك القرويين السذج.. فما هو هذا العمل.. الذي لا يترك آثاره على صاحبه، وإنما يترك آثاره على الزبائن؟؟.. ولم يستطع أحد أن يحل هذا اللغز فحاولت السيدة فليفل أن تغير مجرى الحديث فقال: (من سيطربنا الآن بصوته الشجي؟) وصمت جميع الحاضرين كأنهم ملوا الغناء.. وملوا الحديث.. لكن الضيف الجديد تقدم إلى وسط الكوخ وهو يقول: (سأبدأ أنا بالغناء وما عليكم إلا أن ترددوا معي..). لم يكن صوته جميلًا.. كما أنه لم يكن رديئًا.. لكن الذي أثار دهشة القرويين كلمات أغنيته، فقد كان يغني:

إنه لمنظر جميل.. أن تراني وأنا أعمل..

أن ترى زبائني الذي أربطهم..

أن تراني وأنا أرفعهم إلى الأعلى..

وأرسلهم إلى مكان بعيد.. بعيد...

وسرت الهمسات بين الحضور.. ولم يرافقه في الغناء إلا الشاب الطويل، فقد ردد معه: وأرسلهم إلى مكان بعيد.. بعيد.. واستأنف صاحبنا الغناء:

إن طريقتي في العمل.. بسيطة كعملي..

حبل متين.. وعمود ليس بالطويل..

وفي أقل من دقيقة.. أتم عملي..

وسرت الهمسات بين الحضور.. حبل متين.. وعمود ليس بالطويل.. إنه الـ.. لقد جاء ليشنق (تيموثي سامرز).. المزارع الذي سرق خروفًا لأسرته الجائعة.. فحكم عليه بالإعدام.. لأنه أراد أن يطعم أولاده.. أولاده الذين يموتون من الجوع.. وبهت الحضور وتظاهر الضيف الجديد أنه لم يسمع همساتهم.. ويظهر أن الشاب الطويل هو الوحيد الذي تمتع بتلك الأغنية!

وعندما حرك المغني شفتيه ليستأنف الغناء، سُمعت طرقة خفيفة مترددة وفتح الباب.. كان شابًا قصيرًا أشقر، قال عندما فُتح له: هل أستطيع أن أعرف الطريق إلى.. وطغى على صوته المغني الجديد الذي استأنف غناءه:

غدًا سأتم عملي.. إنه عمل بسيط..

خروف مزارع سرق..

وحياة اللص ستسرق في الغد..

فليرحمه اللّه..

ولم يرافقه في الغناء إلا الشاب الطويل، فقد ردد معه: فليرحمه اللّه.. فليرحمه اللّه.. كل ذلك.. والضيف الثالث واقف عند الباب.. يسمع وركبتاه تكادان لا تحملانه.. وأسنانه تصطك.. بينما امتقع وجهه.. وابيضت شفتاه.. وكان من الواضح أن شيئًا ما أرعب الشاب،

فقد استدار وأغلق الباب وراءه وانصرف..

وسمع في الوقت نفسه ثلاث طلقات، كاد يهتز لها الكوخ.. ونظر الحضور بعضهم إلى بعض متسائلين.. ماذا يعني هذا؟

وقال المغني الجديد: إن سجينًا قد فر من (كاسل بريدج).. قد يكون رجلي.. وقد يكون ذلك الشاب الذي كان يرتعد منذ حين.. إني آمركم باسم القانون أن تلحقوه وتقبضوا عليه.. إياكم أن تعودوا دون أن تقبضوا عليه..

وبعد دقائق أضحى الكوخ خاليًا.. ثمّ.. حام حوله رجل طويل نحيف.. ودخل بعد أن نظر من النافذة..

وكان أول شيء فعله هذا الشاب الطويل أن توجه إلى طاولة الطعام، وقطع شرحة من اللحم شرع يأكلها بنهم.. وقبل أن ينتهي من أكلها.. فتح الباب ودخل المغني الجديد الذي أدهشه وجود الشاب الطويل فقال: كنت أظن أنك ذهبت مع الآخرين..

فأجاب الشاب الطويل: على كل حال.. سنقبض عليه قبل الغد.. سيأتي بعض الجنود إلى هنا.. أما أنا فذاهب إلى (كاسل بريدج).. فيجب أن أكون هناك قبل الثامنة صباحًا.. هل أنت ذاهب في طريق (كاسل بريدج)؟ فقال الشاب الطويل: (كلا.. إن بيتي هناك..) وأشار إلى اليمين، وكأنه لا يريد أن يعين مكانًا بالذات.. وتصافح الضيفان، وذهب كل منهما في طريقه.

ولم يطل الأمر بالضيف الثالث الذي مر.. فقد وجدوه، وأحضروه إلى الكوخ.. حيث كان ينتظره ضابطان من (كاسل بريدج). وعندما أدخل الضيف الفار إلى الكوخ، قال أحد الضابطين: من هذا الذي أحضرتموه؟ إنه ليس سجيننا.. وعقدت الدهشة ألسنة الجميع، لكن الفار تولى إيضاح الأمر فقال: إن السجين الذي فرّ هو أخي.. ولقد كنت في الطريق، ولأرتاح بعض الوقت، لكنني وجدت أخي جالسًا قرب موقد النار، وعلى مقربة منه يغني أغنية إعدامه لذلك الرجل المكلف بإعدام المحكومين.. وكانت أقل كلمة أو إشارة مني كافية للقضاء عليه.. فلم أجد أمامي إلا الفرار.. وكان ما كان..!!

أدبُ السّيرِ والرّحلاتِ

السّيرةُ الأدبيّةُ

السِّيرَةُ في اللغة هي السُّنَّةُ، والسِّيرَةُ: الطريقةُ. يقال: سارَ بهم سِيْرَةً حَسَنَةً. والسَّيرَةُ: الهَيْئَةُ. وفي التنزيل العزيز: (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾).

والسّيرة الأدبيّة: فنّ جوهره التواصل اللغويّ، يتناول حياة إنسان ما تناولًا يقصر أو يطول. وعرّفها بعضهم بأنّها «السرد المتتابع لدورة حياة شخص، وذكر الوقائع الّتي جرت له في أثناء مراحل هذه الحياة».

وتنقسم السّيرة الأدبيّة إلى سيرة ذاتيّة وسيرة غيريّة.

فالسّيرة الذاتيّة: هي الّتي يكتبها الشخص بنفسه عن نفسه.

أمّا السّيرة الغيريّة: فهي الّتي يكتبها كاتب ما عن شخص آخر، فهي ترجمة حياة شخص عن طريق الشواهد والشهادات والوثائق.

ويتحتم على كاتب السّيرة الذاتيّة أن يكون موضوعيًا في نظرته لنفسه، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث. وعلى كاتب السّيرة الغيريّة أيضًا أن يكون موضوعيًّا، وأن يقف موقف الشاهد لا القاضي. ولذلك يعدّ الصدق من أهم شروط كتابة السّيرة الأدبيّة.

ولما كان الصدق من أهم شروط كتابة السّيرة الأدبيّة فإنّ المتعة لا تتحقق إلاّ إذا كانت السّيرة عن شخصية فذّة، عاشت حياة غنية بالأحداث والمواقف، أو كانت عن شخصية مبدعة في أي مجال من مجالات الفنون والعلوم.

ويعدّ محمد بن إسحق أول من استخدم كلمة «السّيرة» في كتابه (سيرة رسول اللّه)ﷺ، ولذلك تعدّ السّيرة النبوية أوسع ما في التراجم الإسلامية، وأقدمها ظهورًا، ثُمَّ ظهرت تراجم أخرى لطبقات الصحابة، وطبقات المُفَسّرين، وطبقات الشّعراء وطبقات النّحاة وغيرهم.

وقد تعددت الغايات من كتابة السّيرة الغيريّة؛ فقد ارتبطت السّيرة الغيريّة في بداية نشأتها بالتاريخ، فمثّلت نوعًا من السير عرف بالسيرة التاريخية، التي ركزت على ربط حياة الأفراد بالأحداث التاريخية والوقائع والحروب. وهذا النوع من السير قد يتضمن إشارات وعظية

وحكمًا، إلا أنّ البعد التاريخي يبقى هو الغالب عليها، وتعد سيرة (ابن طولون) للبلوي، وسيرة (عمر بن عبدالعزيز) لابن عبدالحكم من الأمثلة على هذا النوع من السير.

ولكن بعض السير الغيريّة اتخذت لها غايات أخرى، فاتجهت نحو الوعظ والتدبر في أحوال الناس كما أشار إلى ذلك ابن الجوزي حين قال «إن التواريخ وذكر السير راحة للقلب وجلاء للهم، وتنبيه للعقل، فإنه .. إن شُرحت سيرة حازم علمتَ حسن التدبير، وإن قُصّت قصة مُفَرِّطٍ خوِّفت من إهمال الحزم» . ولذلك يمكن أن يطلق على هذا النوع من السير السّيرة التعليمية، التي لم تكن تتجاوز ذكر مناقب الشخص، وبعض أقواله، ومواقفه؛ ككتاب «الحسن البصري وزهده ومواعظه» لابن الجوزي.

يضاف إلى هاتين الغايتين غاية ثالثة كان لها دور كبير في كتابة السير الغيريّة، تمثلت في تلبية حاجة الناس إلى السمر والفكاهة والإدهاش؛ فكثير من السير كانت عبارة عن «مجموعة من القصص والمغامرات تدور حول شخصية واحدة، ويتفاوت فيها الخيال، ولكنها جميعها مسلية تصاغ في أسلوب مبسط» . وقد كان هذا التوجه سببًا في ظهور ما يسمى بالسيرة الخياليّة أو الشعبية التي كانت تنهل من معين الخيال، وتبتعد كثيرًا عن رصد الواقع والالتزام بالصدق والحقيقة، ولعل هذا الشكل يتضح بجلاء في سيرة (عنترة بن شداد) و(سيف بن ذي يزن).

ولكنّ هذه الأنواع من السِّير لا ترقى إلى مستوى السّيرة الأدبيّة التي لها مميزات وشروط فنية خاصة بها؛ إذ لابد أن تبنى السّيرة الأدبية بناء فنيًّا متماسكًا، وأن يكون هناك تصوّر ترتّب الأحداث والمواقف على هديه. ولأن السّيرة تعتمد على عنصر الصدق في كتابتها فإنها تعد من الأدب التفسيري، وليست من الأدب المستمد من الخيال؛ فالكاتب: يستكشف الأشياء والأشخاص من جديد، ويعيد بناء الأحداث والمواقف التي حدثت بالفعل، فكأنه يعيد تشكيل هذا الواقع وفق رؤية جديدة، وضمن بناء فني محكم.

ولعلّه من الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى فرق جوهري واضح بين السّير الغيريّة والسّير الذاتيّة؛ فالسّيرة الذاتيّة تكون أقرب إلى القارئ، وأكثر تأثيرًا فيه، لأنها عادة تعتمد على البوح، وعلى تقديم خلاصة فكر الكاتب ورؤاه، وتفسير مبرراته، إنّ الكاتب هنا يذكر المواقف، ويذكر المشاعر معها، ولذلك هو يضرب على الوتر الإنساني الذي يجمع بينه

وبين القارئ. أما السيرة الغيريّة فهي في الغالب نقل موضوعي يعتمد على الشواهد والوثائق مما يجعل كتابتها أقرب إلى الكتابة العلمية الموضوعية.

يومُ العيدِ*

سَردُ الذّاتِ، سُلطانُ بْنُ محمّدٍ القاسميُّ

1 النّاسُ تَرْقُبُ هِلالَ العيدِ عِندَ غُروبِ شَمسِ ذلكَ اليَومِ، بَعدَ صَلاةِ المَغربِ. وفي ذاكَ الهُدوءِ التّامِّ يُدَوّي صَوتُ المِدفَعِ، مُعلِنًا بِأنَّ غَدًا العيدَ. يَسمَعُ بَعدَهُ طَنينَ النّاسِ فَتَزدَحِمُ بِهِمُ الأسواقُ، بِمَن تَأخَّرَ في تَجهيزِ نَفسِهِ للْعيدِ، أو جاءَ لِلفُرجَةِ، هذا جاءَ لِشِراءِ ملابِسِ العيدِ، وَذاكَ يَنتَظِرُ دَورَهُ لَدى «الِمْحَسِّنِ» - أي الحلّاقِ، والآخَرُ جاءَ لِشِراءِ ما يَحتاجُهُ في تَقديمِ «الفِوالَةِ» وَهي ما يُقدَّمُ للضَّيفِ مِن حَلوى وَمنفوشٍ وبَشمَكٍ، يُصنَعُ مِن الطَّحينيَّةِ، الّتي تُستَخرَجُ مِن هَرسِ السِّمسِمِ، وَيُقالُ لَها «هَردَة». قِبالَةَ دُكّانِ الِمْحَلَّويِّ تَيْمور، وَهُو الّذي يَقومُ بِصُنعِ الحَلوى وَبَيعِها، هُناكَ دُكّانٌ بِهِ طاحونَةٌ، يَدورُ حَولَها حِمارٌ مَعصوبُ العَينَينِ، لا يَتَوقَّفُ عَنِ الدَّورانِ، يُقالُ لَهُ حِمارُ الهَردَةِ، فَصارَ ذلِكَ مَثَلًا، فإذا قُلتَ لِإنسانٍ: لا تُحَمِّلْ هذا العامِلَ فوقَ طاقَتِهِ، يَقولُ لَكَ: لا تَخَفْ! هذا حِمارُ الهَردَةِ!

2 صَباحَ يومِ العيدِ خَرَجَتِ النّاسُ في زينَتِها، واتَّجَهوا إلى المُصَلّى، والّذي كان يَبعُدُ عَنِ المَدينَةِ بِمقدارِ كيلومترٍ واحدٍ وَنصفِ الكيلومترٍ، بِهِ مِنبَرٌ إسمنتيٌّ بِثلاثِ دَرجاتٍ يَقفُ الخَطيبُ عَليهِ، مُواجِهًا الصُّفوفَ المُتراصَّةَ، وَخطيبُ الأعيادِ والجُمَعِ هُو الشّيخُ سيفُ بنُ مُحمَّدِ بنِ مِجلادٍ، صاحِبِ الصَّوتِ الجَهورِ.. الرِّجالُ والفِتيانُ في الصُّفوفِ الأماميَّةِ، وَفي مُقدِّمَتِهِمُ الشَّيخُ سُلطانُ بنُ صقرٍ القاسميُّ وإخوَتُهُ وذَووهُ وَأعيانُ البَلَدِ، أمّا النِّساءُ فَكُنَّ في الصُّفوفِ الخَلفيَّةِ، وَبِأعدادٍ قَليلَةٍ، فَإذا ما فَرَغوا مِن صَلاةِ العيدِ، تَوجَّهوا إلى البَلَدِ، فَإذا ما شاهَدَ أَحدُ الحُرّاسِ مِنَ الحِصنِ قُدومَ النّاسِ بِأثوابِهِمُ البَيضِ، أَمَرَ بإطلاقِ المِدفَعِ، فَيَتَيَقَّنُ مَن يَصِلُهُم صَوتُ المِدفَعِ قائلينَ: عَيَّدَتِ الشّارِقَةُ.

* مَنشوراتُ القاسِميّ، ص 26 - 30

3 يَتوافَدُ عَلى الحِصنِ المُهنِّئونَ للشَّيخِ سلطانَ بنِ صَقرٍ القاسميِّ بالعيدِ. وَمِن بَينِ مَن يَفِدُ كذلِكَ مَجموعَةُ الحَرَسِ التّابِعَةُ للشَّيخِ لِحراسَةِ الطّائِراتِ، وَهُم مِن أَصلٍ عُمانيٍّ، أُسكِنوا بِالقُربِ مِن مَحطَّةِ الطَّيرانِ في مَكانٍ يَقالُ لَهُ «المَناخُ» وَرَئيسُهُم يُسمّى ناصرَ الزُّيَديَّ؛ فَإذا كانوا في ساحَةِ الحِصنِ، أَخَذوا يُغَنّونَ، وَهُم يَرقُصونَ، وَيبرُزُ مِن بَينِهِمُ اثنانِ في أيادِيهِم سُيوفٌ وَتُروسٌ، وَيقومانِ بِتَمثيلِ مَشهَدِ مُبارَزَةٍ، وَفي آخِرِ المَشهَدِ يَطعَنُ أَحَدُهُما الآخَرَ، وَيقومُ بِذَبحِهِ، وَيبْقى مُمَدَّدًا على الأرضِ، فَيَخِزُهُ بِسَيفِهِ فَينهَضَ واقِفًا على رِجلِهِ، والأولادُ مُتَحلِّقونَ حَولَ المَشهَدِ، فإذا ما انتَهى، أَخَذوا يَجرونَ في السِّكَكِ، وَمِن بيتٍ إلى بَيتٍ، يَطلبونَ «العيديَّةَ»، وهي قَليلٌ مِنَ النُّقودِ تُعطى لِلأولادِ في ذلِكَ اليَومِ.

4 أمّا في مَساءِ ذلِكَ اليَومِ، فَيَتوافَدُ على شَجَرةِ الرّولَةِ، وارِفَةِ الظِّلِّ، الرِّجالُ والفِتيَةُ والفَتَياتُ والأطفالُ، وَتُعلَّقُ الحِبالُ على الأغصانِ الكَبيرَةِ مِن شَجَرَةِ الرّولَةِ، وَتَجلِسُ الفَتَياتُ في صَفَّينِ على الحِبالِ، وَتَشبِكُ كلُّ فَتاةٍ أَصابِعَ رِجلَيها بِالحِبالِ الّتي تَجلِسُ عَلَيها الفَتاةُ الّتي تُقابِلُها، فَتَتَكوَّنُ المُرجيحَةُ مِن ثَماني فَتَياتٍ، أمّا الفِتيانُ فَيقومونَ بِشَطِّ المُرجَيحَةِ، أَيْ إبعادُها إلى أَعلى بِكُلِّ عِفَّةٍ، وَتُباعُ تَحتَ الشَّجَرَةِ الحُلْوِيّاتُ والمُكَسَّراتُ.

5 أما شَيخُ الشّارِقَةِ، فَيجلِسُ عَلى الكُرسيِّ الكَبيرِ وَحَولَه أقرباؤهُ وَأعيانُ البَلَدِ، لتَلَقّي التَّهاني بِالعيدِ، وَإلى جانِبِهِم تُقامُ رَقصَةُ العَيّالَةِ.

دارُنا الدِّمَشقيَّةُ

نِزار قَبّانيّ

هَلْ تَعرِفونَ مَعنى أنْ يَسكُنَ الإنسانُ في قارورَةِ عِطرٍ؟ بَيتُنا كانَ تِلكَ القارورَةَ. إنَّني لا أُحاوِلُ رِشوَتَكُم بِتَشبيهٍ بَليغٍ، وَلكنْ ثِقوا أنَّني بِهذا التَّشبيهِ لا أَظلِمُ قارورَةَ العِطرِ، وَإنَّما أظلِم دارَنا. والّذينَ سَكَنوا دِمَشقَ، وَتَغَلْغَلوا في حاراتِها وَزَواريبِها الضَّيِّقَةِ، يَعرِفونَ كَيفَ تَفتَحُ لَهُمُ الجَنَّةُ ذِراعَيها مِن حَيثُ لا يَنتَظِرون؛ بَوّابَةٌ صَغيرَةٌ مِنَ الخَشَبِ تَنفَتِحُ. وَيَبدأُ السّيرُ عَلى الأخضَرِ، والأحمَرِ، واللَّيلَكيِّ، وَتَبدَأُ سيمفونيَّةُ الضَّوءِ والظِّلّ والرُّخام.

شَجَرَةُ النّارِنْجِ* تَحتَضِنُ ثِمارَها، والدّالِيَةُ حامِلٌ، والياسَمينَةُ وَلَدَت أَلْفَ قَمَرٍ أَبيَضَ وَعَلَّقَتهُم عَلى قُضبانِ النَّوافِذِ، وَأسرابُ السُّنونو لا تَصطافُ إلّا عِندَنا. أُسودُ الرُّخامِ حَولَ البِركَةِ الوُسطى تَملأُ فَمَها بِالماءِ، وَتَنفُخُهُ، وَتَستَمِرُّ اللُّعبَةُ المائيَّةُ لَيلًا وَنَهارًا. لا النَّوافيرُ تَتعَبُ، وَلا ماءُ دِمَشقَ يَنتَهي.

الوَردُ البَلَديُّ سَجّادٌ أحمَرُ مَمْدودٌ تَحتَ قَدَميكَ، واللَّيلَكَةُ تُمَشِّطُ شَعرَها البَنَفسَجيَّ، والشَّمشيرُ، والخُبَّيزَةُ، والشّابُّ الظَّريفُ، والمَنشورُ، والرَّيحانُ، والأَضاليا، وَأُلوفُ النَّباتاتِ الدِّمَشقيَّةِ الّتي أَتَذَكَّرُ أَلْوانَها وَلا أَتَذَكَّرُ أسماءَها، لا تَزالُ تَتَسَلَّقُ عَلى أصابِعي كُلَّما أَرَدْتُ أنْ أَكتُبَ.

القِطَطُ الشّاميَّةُ النَّظيفَةُ المُمتَلِئَةِ صِحَّةً وَنَضارَةً تَصعَدُ إلى مَملَكَةِ الشَّمسِ، وَحينَ تَعودُ وَمَعَها قَطيعٌ مِن صِغارِها سَتَجِدُ مَن يَستَقبِلُها وَيُطعِمُها وَيُكَفكِفُ دُموعَها. الأدْراجُ الرُّخاميَّةُ تَصعَدُ، وَتَصعَدُ عَلى كَيفِها، والحمائِمُ تُهاجِرُ وَتَرجِعُ عَلى كَيفِها، لا أَحَدَ يَسأَلُها ماذا تَفعَلُ؟ والسَّمَكُ الأحمَرُ يَسبَحُ عَلى كَيفِهِ، وَلا أَحَدَ يَسأَلُهُ إلى أَينَ؟

وَعِشرونَ صَحيفَةَ فُلٍّ في صَحنِ الدّارِ هيَ كُلُّ ثَروَةِ أُمّي. كُلُّ زِرِّ فُلٍّ عِندَها يُساوي صَبيًّا مِن أَولادِها، لِذاكَ كُلَّما غافَلْناها وَسَرَقْنا وَلَدًا مِن أولادِها، بَكَت، وَشَكَتْنا

* الكلمات الّتي تحتها ثلاث خطوط ستكون مجال عرض تقديمي في دروس المحادثة.

إلى اللّهِ.

ضِمنَ نِطاقِ هذا الحِزامِ الأخْضَرِ وُلِدْتُ، وَحَبَوتُ، وَنَطَقتُ كلِماتيَ الأولى. كانَ اصْطِدامي بِالجَمالِ قَدَرًا يَوميًّا. كنتُ إذا تَعَثَّرتُ أَتَعَثَّرُ بِجَناحِ حَمامَةٍ، وَإذا سَقَطتُ أَسقُطُ عَلى حُضْنِ وَردَةٍ.

هذا البَيتُ الدِّمَشقيُّ الجَميلُ اسْتَحْوَذَ على كُلِّ مَشاعِري وَأفْقَدَني شَهيَّةَ الخُروجِ إلى الزُّقاقِ.. كما يَفعَلُ الصِّبيانُ في كُلِّ الحاراتِ، ومِن هُنا نَشَأَ عِنديَ هذا الحِسُّ (البَيْتوتيُّ) الّذي رافَقَني في كُلِّ مَراحِلِ حَياتي. إنَّني أشعُرُ حتّى اليومِ بِنَوعٍ مِن الاكتِفاءِ الذّاتيِّ، يَجعَلُ التَّسَكُّعَ على أرْصِفَةِ الشَّوارِعِ، واصطيادِ الذُّبابِ في المَقاهي المُكتَظَّةِ بِالرِّجالِ، عَمَلًا تَرفُضُهُ طَبيعَتي. وَإذا كانَ نِصفُ أُدَباءِ العالَمِ قَد تَخَرَّجَ في أكاديميَّةِ المَقاهي، فَإنَّني لَم أكُنْ مِن خِرّيجيها. لقَد كنتُ أومِنُ أنَّ العَمَلَ الأَدَبيَّ عمَلٌ لَهُ طُقوسُهُ ومَراسِمُهُ وَطَهارَتُهُ، وَكانَ مِنَ الصَّعبِ عَلَيَّ أنْ أَفهَمَ كيفَ يُمكِنُ أن يَخرُجَ الأَدَبُ الجادُّ مِن نَرابيشِ النَّراجيلِ، وَطَقطَقَةِ أحجارِ النَّردِ.

طُفولَتي قَضَيتُها تَحتَ «مِظَلَّةِ الفَيْءِ والرُّطوبَةِ» الّتي هيَ بَيتُنا العَتيقُ في «مِئذَنَةِ الشَّحمِ». كان هذا البَيتُ هو نِهايَةُ حُدودِ العالَمِ عِندي، كانَ الصَّديقَ، والواحَةَ، والمَشْتى، والمَصيفَ. أستَطيعُ الآنَ أنْ أُغمِضَ عَينَيَّ وَأَعُدَّ مَساميرَ أَبوابِهِ، وأَستَعيدَ آياتِ القُرآنِ المَحفورَةَ عَلى خَشَبِ قاعاتِهِ، أَستَطيعُ الآنَ أنْ أَعُدَّ بَلاطاتِهِ واحِدةً واحِدَةً، وَأسماكَ بِركَتِهِ واحِدةً واحِدةً، وَسَلالِمَهُ الرُّخاميَّةَ دَرَجَةً دَرَجَةً.

أستَطيعُ أن أُغمِضَ عَينَيَّ، وَأَستَعيدَ، بَعدَ ثلاثينَ سَنَةً، مَجلِسَ أَبي في صَحنِ الدّارِ، وَأمامَهُ فِنجانُ قَهوَتِهِ، وَمِنقَلُهُ، وَجَريدَتُهُ. وَعَلى صَفَحاتِ الجَريدَةِ تَتَساقَطُ كُلَّ خَمسِ دَقائِقَ زَهرَةُ ياسَمينَ بَيضاءُ، كَأَنَّها رِسالَةُ حُبٍّ قادِمَةٌ مِنَ السَّماءِ.

على السَّجّادَةِ الفارِسيَّةِ المَمدودَةِ عَلى بَلاطِ الدّارِ ذاكَرتُ دُروسي، وَكَتَبتُ

فُروضي، وَحَفِظتُ قَصائِدَ عَمْرِو بنِ كُلثومٍ، وَزُهَيرٍ، والنّابِغَةِ الذُّبْيانيِّ، وَطَرَفَةَ بنِ العَبدِ. هذا البَيتُ/ المِظَلَّةُ تَرَكَ بَصَماتِهِ واضِحَةً عَلى شِعري. تَمامًا كَما تَرَكَتْ غِرناطَةُ وَقُرطُبَةُ وَإشبيليَّةُ بَصَماتِها عَلى الشِّعرِ الأَنْدَلُسيِّ.

القَصيدَةُ العَرَبيَّةُ عِندَما وَصَلَتْ إلى إسْبانيا/ الأندَلُسِ كانَت مُغطّاةً بِقِشرَةٍ كَثيفَةٍ مِنَ الغُبارِ الصَّحراويِّ، وَحينَ دَخَلَت مِنْطَقَةَ الماءِ والبُرودَةِ في جِبالِ (سييرا نيفادا) وَشَواطِئِ نَهرِ الوادي الكَبيرِ، وَتَغَلغَلَت في بَساتينِ الزَّيتونِ وَكُرومِ العِنَبِ في سُهولِ قُرطُبَةَ، خَلَعَت مَلابِسَها وَألقَتْ نَفسَها في الماءِ، وَمِن هذا الاصْطِدامِ التّاريخيِّ بَينَ الظَّمَأِ والرّيِّ وُلِدَ الشِّعرُ الأَندَلُسيُّ. هذا هُو تَفسيريَ الوَحيدُ لِهذا الانقِلابِ الجَذريِّ في القَصيدَةِ العَرَبيَّةِ حينَ سافَرَتْ إلى إسْبانيا/ الأندَلُسِ في القَرنِ السّابِعِ. إنَّها بِكُلِّ بَساطَةٍ دَخَلَت إلى قاعَةٍ مُكَيَّفَةِ الهَواءِ، والمُوَشَّحاتُ الأَنْدَلُسيَّةُ لَيسَت سِوى «قَصائِدَ مُكَيَّفَةِ الهَواءِ». وَكَما حَدَثَ لِلقَصيدَةِ العَرَبيَّةِ في إسْبانيا/ الأندَلُسِ حَدَثَ لي، امْتَلَأَتْ طُفولَتي رُطوبَةً، وامْتَلَأَتْ دَفاتِري رُطوبَةً، وامْتَلَأَتْ أَبْجَديَّتي رُطوبَةً. هذهِ اللُّغَةُ الشّاميَّةُ الّتي تَتَغَلغَلُ في مَفاصِلِ كَلِماتي، تَعَلَّمتُها في البَيتِ- المِظَلَّةِ الّذي حَدَّثتُكُم عَنهُ.

وَلَقَد سافَرتُ كَثيرًا بَعدَ ذلكَ، وابتَعَدتُ عَن دِمَشقَ مُوَظَّفًا في السِّلْكِ الدِّبلوماسيِّ نَحوَ عشرينَ عامًا وَتَعلَّمتُ لُغاتٍ كَثيرَةً أُخرى، إلّا أنَّ أَبْجَديَّتي الدِّمَشقيَّةَ ظَلَّت مُتَمَسِّكَةً بِأَصابِعي وَحَنجَرَتي، وَثيابي. وَظَلَلْتُ ذلِكَ الطِّفلَ الّذي يَحْمِلُ في حَقيبَتِهِ كلَّ ما في أحواضِ دِمَشقَ، مِن نَعناعٍ، وَفُلٍّ، وَوَردٍ بَلَديٍّ. إلى كُلِّ فَنادِقِ العالَمِ الّتي دَخَلتُها حَمَلتُ مَعي دِمَشقَ، وَنِمتُ مَعَها عَلى سَريرٍ واحِدٍ.

قلم زينب*

أمير تاج السر

اليوم التالي في العيادة، كان غريبًا ومربكًا بحق، عثرت بالكاد على ركن قريب أضع فيه عربتي، وكانت ثمة ثلاث حافلات من ماركة «روزا» اليابانية أمام باب العيادة مباشرة، ويتدفق منها العشرات بين رجال ونساء وأطفال، داخلين إلى العيادة، أو متجمهرين على بابها. توجست بشدة، وأكاد أوقن تمامًا أنهم معزون جاؤوا بهذه الكثافة، ولابد أن أحد أفراد أسرة عز الدين قد توفي فجأة، خاصة أنني لم أشاهده صباحًا في المستشفى، يقف أمام كشك التيجاني المغروس في وسط الحوش، يتناول فطوره المعتاد المكون من شطيرتين من الفول.

تخبطت وسط الجموع حتى دخلت، وعثرت على ممرضي العجوز بعيدًا تمامًا عن أي مأساة رسمتها في خيالي، كان مبتسمًا بشدة، وقد امتلأت صفحة كاملة من دفتره القديم ذي الغلاف الأزرق، بأسماء المراجعين، ومازال يعمل على التسجيل بنشاط غريب. كان ما لفت نظري في أولئك المرضى الفجائيين، أنهم جميعًا بملامح واحدة، كأنهم أهل أو أقارب، يرطنون بصخب، يرتدي رجالهم الصديري والسروال القصير، وترتدي نساؤهم ثيابًا ملونة رخيصة، وأساور من القصدير تحيط بالسواعد والأعناق، بينما أطفالهم شبه عرايا في ملابس شفافة. كانت رائحة عطر (الشاكوين) الذي يصنع في البيوت محليًا من الأعشاب، تضج في المكان.

سألت عن ذلك الزحام غير المتوقع، فأجابني الممرض وهو ينهض، ويتقدمني إلى غرفتي، بأنه رزق هبط علينا من السماء فجأة ولايعرف السبب. كان مخطئًا في اعتقاده، لأنني جلست على طاولتي أكثر من عشر دقائق أنتظر أن يبدأ دخول المرضى، طال انتظاري إلى عشرين دقيقة، ولم يدخل أحد. سمعت بعد ذلك صخبًا هائلًا بالخارج، سبابًا وصراخًا، وألفاظًا غريبة، وانفتح الباب فجأة، لأرى عز الدين موسى يدخل متورم الوجه، يدفعه نفر من أولئك المرضى الفجائيين، وقد أمسك أحدهم بيديه، لواهما خلف ظهره. وقفت مندهشًا أستطلع الأمر، ليتقدم مني أحد أولئك المرضى، كان شيخًا في نحو السبعين، يرتدي عمامة من

*) قلم زينب، قصة روائية، منشورات ضفاف

قماش الكرب الشفاف، وصندلًا من جلد الماعز، تطاير منه الوبر، كان كما يبدو متحدثًا رسميًا لتلك الفوضى الغريبة ولا بد أنه تدرّب على مخاطبة الأطباء من قبل، لأنه خاطبني قائلًا بلا مقدّمات:

- هل تبيعون الإنسانية ياطبيب؟

- لا أفهم ما تعني.

قلت ولم أكن أفهم بالفعل، ولاكان ممرضي عز الدين في لحظة غضبه وتورم وجهه تلك، قادرًا على إفهامي أي شيء. كان قد تحرر من قبضة الرجل الذي لوى ساعديه، وقف منتصبًا في مواجهتي، لكنّ صدره كان يعلو ويهبط بسرعة، ويصب من جسده العرق. وقد كان ذلك الممرض القديم الذي ينتمي لقبيلة (المحس) في أقصى شمال البلاد، واستوطنت أسرته الساحل منذ زمن بعيد، قليل الغضب فيما مضى، وصبورًا عرفت صبره شخصيًّا أثناء مساعدتي في الجراحة، ولم أره بهذه الصورة أبدًا من قبل.

- طالبنا ممرضك بأجرة حتى ندخل عليك. هل هذه إنسانية؟.. هل تتاجرون في آلام الناس ياطبيب؟

كانت فصاحة لم أتوقعها من شيخ في ذلك العمر، وتلك المتاجرة بآلام الآخرين بالذات، جملة شديدة الإيحاء، لم أسمعها حتى من ألسنة مرضى أصغر سنًا، وأقوى لسانًا..

نظرت إلى الرجل بتمعن، شممت في هيئته دماء المحتال (إدريس علي) ووجدت في صوته رنة كأني سمعتها من قبل، رنة الصوت الذي أهداني قلم زينب الرخيص، وقدّم لي داخل المستشفى، فتاة تحب زميلًا ولا تنام، ولم أستطع مساعدتها. لم تكن ثمة جدوى لأوضح له، أن العيادات المسائية ليست سبيلًا مفتوحًا، يرتوي منه العطشان متى ما أراد ويمضي بلا ثمن، لأوضح أن مولد الهندي (برد شاندرا)، تم شراؤه بلا إنسانية، ويعمل في إنارة المكان بلا إنسانية، إيجار المبنى نفسه، يؤخذ مني آخر الشهر بلا إنسانية، والطريق الذي تشقه العربة حتى تصل، يذبحها يوميًا بلا إنسانية، ثم ذلك الوقت الذي يقتطع من راحة الطبيب، يقتطع حتمًا بلا إنسانية، لم يكن ليفهمني، وقد جاء ممتلئًا بضغينة كبيرة، ومن خلفه شعب ربما يحمل المدى والخناجر، وينتظر نتيجة تلك المواجهة بيني وبينه.

كان بإمكاني أن أستدعي الشرطة، إن عثرت عليها في ذلك المكان، لكنني لم أفعل، وبدأت أحاور الرجل:

– هل أنتم من جماعة (إدريس علي) ؟

– نعم.. لقد أهداك قلمًا غاليًا، وترفض علاج أهله.

– وهل تقيمون هنا في حي النور؟

– لا.. قدمنا من (المرغنية).

كان حي (المرغنية) الذي ذكره، يقع في الطرف الجنوبي من المدينة، حي بعيد وشبه عشوائي، وممتلىء بالضجيج والفوضى، ولابد أن إدريس المسكين قد تعب في الدوران بين أزقته وحفره العميقة، حتى يلمّ ذلك الشعب، ينازلني به، ولم أفعل له شيئًا سوى أنني استقبلته في عيادتي، قبلت بقلم زينب هدية، من دون أن أعرف من هي زينب، وأسمع سيرة القلم ترد الآن على لسان ذلك الشيخ الفصيح بوصفه هدية غالية.

كان القلم موضوعًا أمامي على الطاولة، لم أمسّه قط منذ تسلمته، ولاكان مغريًا بتجربته في الكتابة حتى، التقطته في تلك اللحظة بعنف، لوّحت به أمام وجه الرجل، ثم كسرته من الوسط وألقيته أرضًا، وفوجئت بالرجل يلتقطه مرة أخرى، يخرج من جيبه شريطًا لاصقًا شفافًا، يلصق به القلم، ويعيده إلى الطاولة مرة أخرى، كأنه كان يعرف ماسيحدث واستعدّ له، وشعرت بالدهشة. قلت لعز الدين في صوت قاطع، إننا لن نتاجر بآلام أحد اليوم، وعليه أن يدخلهم واحدًا واحدًا، ونراهم بلا أجرة، إنه يوم الإنسانية الكبير.

كان الممرض قد صعق، أراد الاحتجاج، لكنني أسكتّه بنهرة قاسية، وسمعت الرجل الفصيح يرطن بعد أن فتح الباب كاملًا، وواجه الآخرين الذين يتكدسون في الصالة، والشارع أمام باب العيادة.

– واحدًا واحدًا من فضلكم وسنراكم كلكم.

قلت مرة أخرى، وعدت أجلس على طاولتي هادئًا، أضع سماعتي الطبية حول رقبتي، ولا ألتفت إلى انحناء عز الدين، ومشيته المترنحة وهو يغادر غرفتي، ولا إلى صوته المتحشرج

الـذي بـدأ ينـادي بـه على المرضى حتى يدخلـوا.

لابـد أنهـا الثانيـة عشـرة ليـلًا حيـن فرغنـا مـن معاينـة تلـك المظاهـرة المرضيـة الحاشـدة التـي أرسـلها (إدريـس علـي)، سـبعة وخمسـون مريضًـا يشـكلون كتابًـا مـن كتـب الطـب، فـي فهرسـته وتنـوع أمراضـه، عثـرت بينهـم علـى السـل الرئـوي واحتقـان المـرارة، والعمـى الليلـي، وتخبـط صمامـات القلـب، وتـورم السـاقين، ومضاعفـات مـرض الضغـط والسـكر، والربـو الشـعبي، وتليـف الرئـة، وأمـراض أخـرى أقـل شـأنا مثـل الملاريـا، والتيفوئيـد، والحمـى، ولـين العظـام عنـد الأطفـال، وكانـت ثمـة فتـاة فـي الثالثـة عشـرة مـن عمرهـا، اسـمها نوريـة، تملـك قلبًـا فـي الجانـب الأيمـن مـن الصـدر، ولـم تشـخص أبـدًا مـن قبـل، وجـاءت تشـكو مـن قمـل الـرأس الـذي يسـري فـي الليـل، ويمنعهـا النـوم، لكـن هيئتهـا الهزيلـة أغرتنـي بفحصهـا كامـلًا، ومـن ثـم عثـرت علـى ذلـك العيـب الخلقـي النـادر.

كنـت مغتبطًـا مـن ذلـك التنـوع الـذي لايتوافـر بسـهولة، بالرغـم مـن تعبـي الشـديد، ومحاولاتـي المجهـدة فـك رمـوز الرطانـة القبليـة التـي كانـت تصـدر مـن بعضهـم، ممـن لايجيـدون العربيـة أو يتصنعـون عـدم إجادتهـا حتـى يظلـوا مربوطيـن بهوياتهـم، خاصـة النسـاء المسـنات، وقـد اسـتفدت كثيـرًا مـن فصاحـة الشـيخ الـذي واجهنـي فـي البدايـة، عينتـه مترجمًـا فوريًـا فـي تلـك السـاعات، ولـم يكـن مريضًـا بـأي شـيء.

كان اسـمه حامـد رطـل، اسـم شـائع عنـد قبيلتـه، ولايوجـد تقريبًـا عنـد قبيلـة أخـرى، وقـد عمـل طـوال حياتـه، حمّـالًا بالميناء، حتـى تعـب ظهـره مـن حمـل الأجولـة والحقائـب، وازداد فقـرًا مـن تفاهـة العائـد الـذي كان يجنيـه، والآن يعتمـد علـى أبنائـه الذيـن يعملـون فـي وظيفتـه السـابقة، يجلـس نهـارًا علـى مقهـى شـعبي فـي حـي (المرغنيـة)، يراقـب الطريـق الضـاج، يـرد التحايـا ويمـازح المـارة، ويذهـب فـي المسـاء إلـى معالـج روحانـي اسـمه الشـيخ الحلمـان، يسـكن فـي ذلـك الحـي الفوضـوي أيضًـا، يسـاعده فـي إيقـاد بخـوره، وترتيـب دخـول مرضـاه النفسـيين، ويطمـح فـي الأيـام القادمـة أن يفتتـح عيادتـه الروحانيـة الخاصـة بعـد أن تعلـم كثيـرًا مـن الحيـل عنـد شـيخه.

لـم تـأت سـيرة (إدريـس علـي) مـرة أخـرى أثنـاء حـواري مـع الرجـل، ولا سـألت عـن كيفيـة لمّهـم هكـذا، وإرسـالهم إلـي، وهـل حملتهـم تلـك الباصـات مـن منطقتهـم البعيـدة، بإنسـانية أم لا؟...

كنت في الحقيقة قد أعجبت به، وفكرت أنه ربما ينفع شخصية في رواية قد أكتبها ذات يوم.

بالطبع كانت الحصيلة المادية في ذلك اليوم، صفرًا، وحتى أولئك المرضى المعتادون ممن يترددون علينا بشكل مستمر للكشف أو المقابلة الروتينية، لم يجدوا طريقة للدخول إلى العيادة بسبب الزحام، ومضوا إلى طبيب آخر، يملك عيادة قديمة في أول الحي.

كانت الباصات قد مضت تحمل شعب إدريس الفوضوي إلى مقره البعيد، ووقف عز الدين أمامي ساخطًا، ويطالبني في جرأة لم أتعوّدها منه، أن أدفع ثمن تلك الحقن التي كتبتها للمرضى، واستهلكوها عن آخرها، وكانت ملكه، اشتراها بماله الخاص، ويستخدمها في جني بعض الربح الإضافي، أيضًا خسر الكثير من الوقت، والمخدر الموضعي، والشاش المعقم، حين أجبرته على ختان صبي صغير، قدم برفقة أولئك المرضى الفجائيين.

حين وصلت إلى البيت، وجدت أسرتي كلها تقف في الشارع، مدهونة بالقلق، لقد تأخرت عن موعد وصولي.. تأخرت كثيرًا في ذلك اليوم، ولم تكن ثمة طريقة للبحث عني، وأنا أقود العربة الوحيدة التي تملكها العائلة لم تكن ثمة هواتف تعمل في المدينة ذلك الحين.

ألسنة النار تتكلم

محمد عبيد غباش

خرج أحد الأصدقاء بمفرده في رحلة صيد سمك. وعندما حاول العودة اكتشف أن وقود قاربه قد نفد. كان قريبًا من إحدى الجزر غير المأهولة. استخدم المجداف للوصول إليها وأمضى ساعات طويلة وحيدًا مع نفسه: لا إنسان يسامره. لا كتابًا أو جهاز تلفزيون يشغل وقته. لم تملأ ساعات انتظاره إلا رمال الجزيرة الصغيرة وهدير أمواج البحر وزعيق النوارس.

لم يقلق، فقد تواصل هاتفيًا مع أصحابه ليأتوا لنجدته. وكان هناك ما يكفي من الطعام والماء لعدة أيام، وكان يستطيع أن يصيد السمك. الأمر الذي وجده غير محتمل، كما روى لي، هو ابتعاده عن بيته.

بدل ركوب البحر ذهبت مع أصدقاء في رحلة بعيدة بسيارتي دفع رباعي إلى الصحراء. وحين اختفت مظاهر الحضارة بالكامل توقّفنا عند مكان قريب من جذوع شجرة غاف يابسة ونصبنا خيمتنا. لم ينفد وقودنا. لم نضع الطريق. لكن كنّا بعيدين عن بيوتنا.

أشعلنا النار، وبدلًا من مسامرة التلفزيون كل ليلة جلسنا على الرمل مباشرة وأخذنا كالأطفال نرقب النار مسحورين. أدركت لحظتها لماذا عبدها قدماء الفرس: كانت في خشخشتها تفشي الأسرار. وسط لهب أزرق تحفّ به أدخنة سوداء قليلة كانت تتشكل تكوينات لا نهاية لها من الألسنة النحاسية المتدرجة الألوان. لم أفتقد بيتي تلك الليلة كما افتقد صديقي بيته وهو الذي ساقت له الأقدار جزيرة مُلكه وحده. على كثيب الرمل ساد الشعور بين أصدقائي بأن بيوتنا التي تركناها وراءنا صارت سجونًا لنا.

يمثل البيت شيئًا عظيمًا لكل الناس. قلعة الرجل كما يقول المثل الإنكليزي: حصن يتمترس وراءه عدة عقود ليحارب لأجل لقمة العيش ولينجب أطفالًا تتواصل بهم السلالة.. لكن القلعة الانكليزية كثيرًا ما تتحول إلى سجن عثماني تضيع في أقبيته، و ينساك في غياهبه محبّوك بعد أن ييأسوا من تحريرك.

مثل كل الناس أحبّ الكثير مما بداخل البيت، الثلاجة العامرة بالماء البارد صيفًا والحمّام

بمائه الساخن شتاء، ومعهما الغنائم الصغيرة الكثيرة الأخرى. لكن هل تستحق هذه الأشياء أن نضحّي بالغنائم الأكبر التي يمنحها العالم؟ امتلاك ملايين النجوم التي تلمع في سماء الليل، وأحجار الجمر الكريمة التي تتوهج على الرمل؟

رواسب البداوة في نفوسنا تنتفض رغم الاستقرار في مدن، ورغم التعليم وكل «حيل المدينة الأخرى». البداوة الباقية فينا تجعلنا نتململ في بيوتنا، نختنق وراء جدرانها، ودون وعي نشتاق لتموجات السراب البعيد، لقوس قزح معلّق فوق رؤوسنا، لأفق لا تبلغه أبصارنا. أجدادنا وهم ينقلون الخيم وبيوت الشّعر من مكان لآخر كانوا يجدون سعادتهم في الترحال. اكتشفوا أن طول البقاء في مكان واحد يدفع بالحواس للتبلّد فإذا بغلالة تحيط الأشياء وتظهرها شاحبة. ويمتد التبلّد ليبتذل مشاعرنا لمن نحب.

مع شاعرنا أبي تمام كانت ألسنة النار تستنهضنا: ارتحل تتجدد! ارتحل عن وطنك حتى تحبّه أكثر، فعند المرتحل الحقيقي كل بقعة على الأرض هي وطن له. ارتحل مع المسافرين. اختر من تشاء: مع مغامرين يلهثون وراء الثروات، أو علماء يكتشفون. رافق الاختصاصيين في شؤون البراكين وارصد مع الباحثين عادات القبائل البدائية...

على ذلك الكثيب الرملي كانت عيدان الغاف وهي تحترق ترسل بخورها وتحذر:

–أنت لست شجرة لتحفر جذورًا في باطن الأرض! لست دودة لتغوص في التراب!

النسيم البري كان يلهب النار، وكنت أسمع حفيفه: كن ريشة في مهبّي!

كيف لم يسمع صديقي نوارس جزيرته وهي تناديه للرحيل؟ كيف لم ير الأمواج حوله ترشده لوجهة السفر إذ هي تتوالى الواحدة تلو الأخرى في طريقها الطويل للجانب الآخر من العالم؟.

على كثيبنا الرملي الأعين تلمع على ضوء النار والقمر. أصدقاء يتجاذبون الحديث ويتوجسون من أن كل شيء سينتهي بعد قليل. احتج أحدهم:

– ليس الترحال دائما فاتحًا للبصيرة، فأكثره تجوّل خاطف لا يتيح المجال للغوص في المكان ولا رصد معالمه.

أجابه آخر:

لكنه برغم ذلك مائدة سخية لكل الحواس. شكل وصوت ورائحة كل بلد فريدة لا تشبه غيرها، تمامًا مثل فرادة بصمة الإصبع.

– زرعوا في نفوسنا الجبن عن الترحال بالتخويف من الغربة..

تداولنا مطولًا.. لكن كيف يمكن ذلك؟ كيف تستطيع أن تهرب من هذه السجون دون أن تهرب أيضًا من الوظيفة إلا أن يكون أحدهم قد أورثك ما يكفي لتضمن عيشك؟ تبًا للأحلام التي لا يمكن تحقيقها! حسبة شيطانية: الحرية والجوع خارج الحبس والأمان المعيشي بداخله.

رحلة العودة. أطفال راجعون لبيوتهم من اللعب يملؤهم الحنق لأن الواجبات المدرسية تنتظرهم. كنا نحن السبعة في الصحراء، يسري علينا قول قديم لتشي غيفارا، 17 شخصًا يسيرون على ضوء القمر. دابّتنا الميكانيكية، وليست الخيول التي تدق الصخور الصّلبة، تهدر في الفضاء. ما العمل؟ سؤال لينين يدوّي كالمطرقة على أصداغنا.

تحركت البداوة في دمائنا وصرنا نحلم بالغنائم. في طريق العودة تدفقت أفكارنا. نحن المساجين أخذنا نفكر بالمهام المقبلة. كيف نبرد القضبان، نخادع الحرّاس، نرشو المراقبين، ونحفر الأنفاق كان لسان حالنا يردّد مع الشاعر: في كل سرداب خبيئة، وفي كل خبيئة أفعى.

لُغاتُ العالَمِ نُجومٌ تَتَلألأُ

(رسول حمزاتوف)

إذا كانَ هذا الكِتابُ يُشبِهُ سَجّادَةً، فأنا أَحيكُها مِن خُيوطِ اللُّغَةِ الآفاريَّة مُتَعَدِّدَةِ الألوانِ. وَإذا كان يُشبِهُ فَروةً مِن جِلدِ الخَروفِ فَأنا أَخيطُ الجِلدَ بِخيوطِ اللُّغَةِ الآفاريَّةِ، المَتينَةِ.

يُقالُ إنَّهُ لَم يَكن في اللُّغةِ الآفاريَّةِ في الماضي، الماضي البَعيدِ جِدًّا سِوى عَدَدٍ قَليلٍ جدًّا مِن الكَلماتِ. فَمَفاهيمُ كالحُرِّيةِ، وَالحَياةِ، والشَّجاعَةِ، وَالصَّداقةِ، وَالخيرِ كانَ يُعبَّرُ عنها بِكلِمَةٍ واحدَةٍ أَو بِكلِماتٍ مُتَشابِهَةٍ جِدًّا مِن حَيثُ لَفظِها وَمعناها.

لِيقُلِ الآخرونَ إنّ لغةَ شَعبِنا فَقيرةً. أمّا أَنا فأستَطيعُ أَن أقولَ بِلُغَتي كُلَّ ما أريدُهُ، وَلستُ في حاجَةٍ إلى لُغَةٍ أُخرى كَي أُعبِّرَ عن أَفكاري وَمَشاعِري....

لُغاتُ الشُّعوبِ بِالنِّسبَةِ لي، كالنُّجومِ في السَّماءِ. أنا لا أودُّ أَن تَذوبَ النُّجومُ كُلُّها في نَجمٍ كبيرٍ واحدٍ ضَخمٍ يُغَطّي نِصفَ السَّماءِ. الشَّمسُ كَفيلَةٌ بِذلكَ. لكنْ لِنَدَعِ النُّجومَ تَتَلألأُ هيَ الأُخرى، وَلْتَكُن لِكُلِّ إنسانٍ نَجمَةٌ/ وَلْيَكُن لِكُلِّ إنسانٍ نَجْمُهُ.

أنا أُحِبُّ نَجمي– لُغَتي (الآفاريَّةَ) الأُمَّ. وَأنا أُصَدِّقُ الجُيولوجِيّينَ الّذينَ يَقولونَ إنَّهُ قَد يوجَدُ في الجَبَلِ الصَّغيرِ ذَهَبٌ كثيرٌ. إحدى النِّساءِ صَبَّت على رأسِ امرَأةٍ أُخرى هذهِ الدَّعوةَ: لِيَحرِمِ اللّهُ أولادَكِ اللُّغَةَ الّتي تَتَكلَّمُ بِها أُمُّهُمُ... إلى هذا الحدِّ تَكونُ اللَّعناتُ مُرعِبَةً في بَعضِ الأَحيانِ، لكِن في الجِبالِ، وَحتّى بِدونِ لعَناتٍ، يَفقِدُ الإنسانُ الّذي لا يَحتَرِمُ لُغَتَهُ الأمُّ احتِرامَهُ، فالأمُّ الجَبليَّةُ لَن تَقرأَ أَشعارَ ابنِها إذا كانَت مكتوبَةً بِلُغَةٍ فاسِدَةٍ.

التقيتُ في باريسَ ذاتَ يومٍ بِرسّامٍ داغِسْتانِيٍّ كانَ قَد غادَرَ البَلَدَ إلى روما للدِّراسَةِ، وَهناكَ تَزوَّجَ إيطالِيَّةً وَلَم يَعدْ إلى بَلدِهِ. الدّاغِسْتانِيُّ الّذي اعتادَ قَوانينَ الجِبالِ يَصعُبُ عَليهِ أن يَألَفَ وَطَنَهُ الجَديدَ. أخذَ صاحِبُنا يَهيمُ في أرجاءِ الدُّنيا تارَةً، وَيَحطُّ الرِّحالَ في العواصِمِ المُتألِّقَةِ تارةً أُخرى. لكنَّهُ كانَ يَحمِلُ حَنينَهُ وَشَوقَهُ حَيثُما ارتَحَلَ. وَأَرَدتُ أنْ أَرى هذا الحَنينَ مُجَسَّدًا في الألوانِ فَطلَبْتُ إلى الفنّانِ أن يُرِيَني لَوحاتِهِ.

إحدى اللّوحاتِ تَحمِلُ هذا الاسْمَ «الحَنينُ إلى الوَطنِ» رُسِمَتْ على اللَّوحَةِ إيطاليَّةٌ في زِيٍّ

آفاريٍّ قَديمٍ. إنَّها عِندَ النَّبعِ الجَبليِّ، تَحمِلُ إبْريقَها الفِضِيَّ الّذي صَنَعَهُ حِرَفِيّو «غوتْساتْلين» المَشهورونَ، وَعلى سَفحِ الجَبَلِ تَقبَعُ كَئيبَةً قَريَةٌ آفارِيَّةٌ مِن حَجَرٍ، وَفَوقَ القَريةِ تَنتَصِبُ جِبالٌ أَكثَرَ اكتِئابًا، وَذُرا الجِبالِ يَلُفُّها الضَّبابُ.

قالَ الفنّانُ: الضَّبابُ هُو دُموعُ الجِبالِ. حينَ يَلفُّ الضَّبابُ سُفوحَ الجِبالِ، تَأخُذُ قَطراتٌ مُضيئَةٌ في الانسيابِ على تَجاعيدِ الصُّخورِ. الضَّبابُ هُو أنا. وَرَأيتُ على لَوحَةٍ أُخرى طائِرًا يَحُطُّ على عَضاهَةٍ شائِكَةٍ. الشُّجَيْرَةُ تَنمو بَينَ الصُّخورِ العارِيَةِ. الطّائِرُ يُغرِّدُ، وَمِن شُبّاكِ البَيتِ تُحدِّقُ فيهِ جَبَليَّةٌ حَزينَةٌ. وَحينَ رَأى الفَنّانُ اهتِمامي بِاللَّوحَةِ، أَوضَحَ يَقولُ:

– هذهِ اللَّوحَةُ اقْتَبَسْتُها مِن أُسطورَةٍ آفاريَّةٍ قَديمَةٍ.

– أيَّ أُسطورَةٍ؟

– اصْطادوا طائِرًا وَوَضَعوهُ في قَفَصٍ. أَخَذَ الطّائِرُ يُرَدِّدُ في قَفَصِهِ، لَيلًا نَهارًا: وَطَني، وَطَني، وَطَني، وَطَني، وَطَني، وَطَني.

هكذا أنا تَمامًا كلَّ هذهِ السَّنواتِ أُرَدِّدُ.. وَفَكَّرَ صاحِبُ الطّائِرِ في نَفسِهِ «أيَّ وَطَنٍ هُو وَطَنُهُ؟ وأينَ هُو؟ لا بُدَّ أنَّهُ بَلَدٌ رائِعٌ، زاهِرَةٌ أَشجارُهُ، وَطُيُورُهُ، مِن أَشجارِ الجَنَّةِ وَطُيورِها. هيّا فَلأُطلِقْ سَراحَهُ وَأَرى أينَ يَطيرُ. وَهُو سَيَدُلُّني على الطَّريقِ إلى هذا البَلَدِ العَجيبِ. وَفَتَحَ القَفَصَ فانطَلَقَ الطّائِرُ مُبتَعِدًا عَشْرَ خُطواتٍ، ثُمَّ حَطَّ على عَضاهَةٍ كانتْ تَنمو بَينَ الصُّخورِ العارِيَةِ، في أَحْضانِ هذهِ العَضاهَةِ كانَ عُشُّهُ. وَأَنْهى الفنّانُ كَلامَه قائِلًا: أنا أَيْضًا أَتَطَلَّعُ إلى وَطَني مِن شُبّاكِ قَفَصي.

– وَلِماذا لا تُريدُ أَن تَعودَ؟

– الوقتُ أصبَحَ مُتَأَخِّرًا. لَقَد حَمَلتُ آنَذاكَ مِن أرضِ وَطَني قَلبيَ الشّابَّ المُتَوَقِّدَ، فَهَلْ أَسْتَطيعُ أَن أُعيدَ إلَيْها الآنَ عِظامِيَ البالِيَةَ؟

حينَ عُدتُ مِن باريسَ بَحثتُ عَن أقارِبِ الفَنّانِ، وَلِدَهْشَتي تَبَيَّنَ أنَّ أُمَّهُ ما زالت على قَيدِ الحياةِ. وَبِحُزنٍ أَصْغى أقارِبُهُ الّذينَ اجتَمعوا في البَيتِ إلى حَديثي عَن ابنِهِمُ الّذي تَركَ وَطَنَهُ واستَبدَلَ بِه أرضًا غريبَةً. لكنَّهُم، كما يَبدو، كَأَنَّما غَفَروا لَه. كانوا مَسرورينَ لأنَّ ابنَهُم حَيٌّ

مَع هـذا. وَفَجْـأةً سَـأَلَتْني أُمُّـهُ:

– هل تَحَدَّثتُما بِالآفارِيَّةِ؟

– كَلّا. تَحدَثْنا بِواسِطَةِ مُتَرجِمٍ. كُنتُ أنا أتَكَلَّمُ الرّوسِيَّةَ، وابنُكِ الفَرَنسِيَّةَ.

غَطَّـتِ الأمُّ وَجْهَهـا بِطَرَحَـةٍ سَـوداءَ كَمـا تَفعَـلُ النِّسـاءُ حِيـنَ يَسـمَعنَ بِمـوتِ ابنِهـنَّ. كانَ المَطـرُ يَنقُـرُ على سَـطحِ البَيـتِ، وَكُنّـا نَجلِـسُ فـي آفاريـا. وعلـى الطَّـرَفِ الآخَـرِ، فـي باريـسَ، رُبَّمـا كانَ ابـنُ داغِسـتانَ الضّـالَّ يُصْغـي أيضًـا إلـى صَـوتِ المَطَـرِ. وَبعـدَ صَمـتٍ طَويـلٍ قالَـتْ أمُّـهُ:

– أنـتَ مُخطِـئٌ يـا رَسـولُ. لَقَـد مـاتَ ابْنـي مُنـذُ زَمـنٍ بَعيـدٍ. هـذا لَـم يَكـنِ ابْنـي. فابْنـي لَـم يَكُـنْ لِيَسـتَطيعَ أنْ يَنسـى اللُّغَـةَ الّتـي عَلَّمتُـه إيّاهـا. أنـا أمُّـهُ (الآفارِيَّـةُ).

أُمّي*

(مارك توين)

كانت والدتي في الثامنة والثمانين من العمر عندما توفيت في أكتوبر من عام 1890. وهو عمر يكشف مدى بأسها وقوتها، ويكشف عن معركة من أجل الحياة خاضتها وأبلت فيها بلاءً حسنًا، هي التي بلغ جسمها عندما كانت في الأربعين حدًّا من الرقة والضعف جعل من حولها من الناس يعتبرون أنها قد بلغت أسوأ الحالات وأنها قد تموت في أية لحظة. عرفتها جيدًّا في الخمس والعشرين سنة الأولى من حياتي، ولكني لم أكن أراها بعد ذلك إلا في أوقات متباعدة، فقد فرّقت بيننا الحياة طويلًا. وأنا لا أنوي الكتابة عنها لمجرد الكتابة، ولكني أحب الحديث عنها بالفعل.

ماالذي يحل بالصور التي يلتقطها الذّهن للآخرين؟ من بين ملايين الصور، تظل صورة والدتي كأول وأقرب صديقة إلى نفسي شديدة الوضوح، صورة تعود إلى زمن بعيد يمتدّ سبعًا وأربعين سنة. كانت وقتها في الأربعين، وكنت أنا في الثامنة. هي تمسك بيدي، وكلانا جاث على ركبتيه بجوار سرير أخي، الذي كان يكبرني بعامين، وهو ممدد على سريره، قد فارق الحياة، وعيناها تفيضان بالدموع.

كانت والدتي نحيلة ضئيلة الجسم، ولكن كان لها قلب كبير، قلب يتسع لأحزان الجميع، ويتسع لأفراحهم. الفارق الأكبر الذي وجدته بينها وبين بقية الناس ممن عرفت هو أنّ اهتماماتهم كانت قوية فقط تجاه أشياء قليلة ومحدودة، أما هي فقد ظل يشغلها أمر العالم بأسره بكل مافيه وبكل من فيه حتى آخر يوم من أيام حياتها. وطوال تلك الحياة التي عاشتها لم يظهر منها اهتمام بأمر أو شخص إلا وكان كاملًا، فهي لم تكن لتهتم بأمر وتترك أمورًا أخرى، أو تهتم بشخص وتهمل الآخرين.

كان اهتمامها بالبشر والحيوان صادقًا ينبع من داخلها، ويحمل الحب والود. وكانت تجد العذر لأكثر الناس فظاظة حتى لو تطلب ذلك أن تختلقه اختلاقًا، فمحبة الآخرين كانت هي القاعدة التي تنطلق منها. لقد جبلت على أن تكون صديقة لكل من حرم الصداقة.

---

*) سيرة ذاتية، ترجمة سعيد رضوان، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، 2014.

ذات يوم، وبينما كانت تسير في أحد الشوارع في سان لويس، وقع بصرها على أحد سائقي العربات وهو يضرب حصانه على رأسه بمقبض سوطه الثقيل، ففأجأته وأخذت السوط من يده، وانتزعت منه وعدًا بألاّ يقسو على حصان بعد ذلك، وهذا النوع من الإجراءات فيما يتعلق بالحيوانات التي تساء معاملتها كان أمرًا مألوفًا لديها مدى العمر، وكانت بحسن أسلوبها وطيب نيتها تحقق غايتها دائمًا، وأحيانًا كانت تفوز بصداقة الشخص ذاته الذي تتحداه . كانت تتبعها القطط الشريدة والضالة والمؤذية إلى البيت، فتستقبلها . ذات مرة عام 1845 وصل عدد القطط في بيتنا إلى تسع عشرة قطة، ولم يكن لأيّ منها ميزة أو حسنة واحدة .

لقد كانت تشكل عبئًا ثقيلًا علينا وعلى والدتي كذلك، ولكنّ وجودها كان صنيعة الحظ، وهذا يكفي ؛ فكان يجب أن تبقى . ومع كل هذا فقد كان وجودها أفضل من عدم وجودها، فالأطفال تلزمهم حيوانات في البيت يلاعبونها ويلاطفونها، إذ لم يكن مسموحًا لنا أن نقتني طيورًا أو حيوانات ونضعها في أقفاص، لانّ أمي لم تكن لتسمح بأن يُحبَسَ حتى الفأر.

الدراسة في الجامعة *
(هيلين كيلر)

استقرّ رأينا أخيرًا على أنه يحسن بي أن أدرس عامًا آخر تحت إشراف المستر كيث قبل التحاقي بالكلية، ولهذا لم يتحقّق حلمي في الذّهاب إلى الجامعة فعلًا إلا بحلول خريف عام 1900،ومازلت طبعًا أذكر يومي الأول في كليّة رادكليف؛ إذ كان يومًا مفعمًا بالإثارة بالنسبة لي لأنني ظللت أتطلّع إليه على مدى عدّة سنوات من عمري.

كانت بداخلي قوّة هائلة تدفعني وتجعلني راغبة في مواجهة الصعاب والاختبارات التي يواجهها عادة أولئك القادرون على السمع والبصر، وقد نصحني أصدقائي بألا أحاول ذلك، بل إنه حتى قلبي الذي بين ضلوعي كان يحاول في بعض الأحيان إقناعي بالتّخلّي عن تلك الرّغبة الملحّة. وكنت أدرك تمام الإدراك أنّني في سبيلي لمواجهة أمر ليس باليسير؛ ومن ثمَّ عزمت على قهر كلّ الصّعاب، وترسّخ في نفسي الشّعور بأنّني قادرة على التّعلّم بنفس القدر الّذي يمكن أن يتعلّم به أي شخص قادر على الرؤية والسّمع؛ فكلّ الفارق بيني وبينهم أنّ ظروفي كانت تحتّم عليّ تحصيل المعرفة بطريقة مختلفة، وخامرني شعور بأنّني في الكليّة يمكن أن أصبح وثيقة الصلة بالكثير من الفتيات اللاتي يفكّرن ويناضلن، ويبدين مشاعر الحب والأمل مثلي.

شرعت في دراستي بجدّ وشغف، وكنت في ذلك الوقت أرى عالمًا ينفتح أمامي..عالمًا مزدهيًا بالجمال، وسنيًّا بالضياء، وشعرت أنَّ باستطاعتي تعلّم كلّ شيء، اعتقادًا منّي بأنّه خليق بي في دنيا العقل والفكر أن أكونَ حرّة طليقة كأيّ شخص آخر،وأنّ ماتحفل به تلك الدّنيا من المشاهد المتنوّعة والطّرائف المتباينة، وألوان السّعادة والتّعاسة سوف تعينني جميعًا على تفهّم طبيعة العالم الحقيقي المحيط بي...بل إنّ الفصول الدّراسيّة بدت لي مأهولة بأرواح العظماء والحكماء، وبدا لي الأساتذة متسمون برجاحة العقل والحكمة.

لكنني سرعان ما اكتشفت أنّ الكليّة ليست هي تمامًا الطّريق الّذي تصوّرته أحلامي، شيئًا فشيئًا مضيت أكتشف أنّ ثمّة أشياء غير طيّبة تكتنف الذّهاب إلى الكليّة؛ فعلى سبيل المثال لم يكن لديّ مايكفي من الوقت... فأنا قد تعوّدت على أن يتوافر لديّ قدر كاف من الوقت

*) قصة حياتي العجيبة، ترجمة محمد وهدان.

لأفكّر، أو لأجلس على انفراد في المساء وأحلم، أو لأهيم مع إحدى القصائد الّتي أفضلها.. لكنني في الكليّة لم أكن أجد وقتًا لكلّ هذا! فالمرء يذهب إلى الكليّة ليتعلّم على مايبدو لا ليفكّر ويتأمّل... والمرء عندما يذهب إلى الجامعة يترك وراءه الكتب والخيال ومتعة الانفراد بذاته. وقد تعوّدت في ذلك الوقت على إراحة نفسي بفكرة أنّني أقوم بتحصيل الثّروات الآن لكي أستخدمها مستقبلًا...لكنّني في واقع الأمر كنت أفضّل السّعادة والبهجة في الوقت الحاضر على أيّة ثروات يمكن أن أمتلكها في المستقبل!

تمثّلت موادّ الدّراسة في العام الأوّل في اللغتين الفرنسيّة والألمانيّة، والتّاريخ، والإنشاء الإنجليزيّ، والأدب الإنجليزيّ، ومضيت في ذلك العام أقرأ الكثير من أعمال المؤلفين الفرنسيّين والألمان، كما درست في استعراض مجمل الفترة التّاريخيّة الممتدة من سقوط الإمبراطوريّة الرّومانية إلى القرن الثّامن عشر، وفي إطار مادّة الأدب الإنجليزيّ درست الشّاعر «ميلتون».

كثيرًا ما سألني النّاس كيف أتغلّب على الصّعوبات الّتي اعترضت مسار دراستي في الكليّة؟... وهاأنذا أجيب؛ فمن النّاحية العمليّة كنت بالطّبع وحيدة في الفصل، وكان الأستاذ بعيدًا عنّي كلّ البعد كما لو كان يتحدّث إليّ عن طريق الهاتف، وكانت المحاضرات تترجم لي بالهجاء على يدي بأسرع مايمكن، ومن ثمَّ كانت الشّخصيّة الذّاتية للأستاذ تغيب عنّي عادة بحكم عدم تواصلي معها؛ فالمحاضرات كانت تترجم لي بالطريقة الّتي يمكنني فهمها بها بسرعة بالغة، والأفكار كانت تتدافع إلى رأسي كما تتدافع الكلاب حين تطارد أرنبًا... فهي في بعض الأحيان لاتستطيع ملاحقته! لكن لست أعتقد أنّني من هذه النّاحية كنت أسوأ حالًا من سائر الفتيات اللاتي كنّ يدوّنّ المحاضرات، فحين يكون العقل مشغولًا بعملية الرؤية وملاحقة الكتابة على الورق بأسرع مايمكن فلا أعتقد أنّ المرء حينئذ يكون بوسعه أن يولي قدرًا أكبر من الاهتمام بالموضوع أو بالطريقة الّتي يقدّم بها، وأنا بصفة خاصّة لم يكن بمقدوري الكتابة أثناء المحاضرات لأنّ يديّ كانتا مشغولتين بعمليّة السّمع ! وعادة كنت أقوم بكتابة ما يمكنني تذكّره من نصوص المحاضرات حين أعود إلى المنزل، كما كنت أقوم بكتابة حلول التّمارين ومواضيع الإنشاء، وإجابات الاختبارات والامتحانات على آلتي الكاتبة ممّا كان يتيح للأساتذة أن يكتشفوا دون أدنى صعوبة أنّني لا أعرف سوى القليل. وكنت أستخدم آلة كاتبة من نوع يمكن تغيير نمط حروفه، وكانت لديّ حروف

يونانيّة وعلامات ورموز رياضيّة ومجموعة من الحروف مزوّدة بالنبرات الفرنسيّة، وبدون مثل هذه الآلة الكاتبة أشكّ أنّه كان بمقدوري الذّهاب إلى الكليّة أصلًا!

ولم يكن متوافرًا في طبعات (برايل) سوى القليل جدًّا من الكتب الّتي كنت بحاجة إليها في مجالات الدّراسة المختلفة، ومن ثمّ لم يكن يتسنّى لي معرفة محتوى الكتب الباقية إلّا عن طريق قيام شخص بتهجّيها لي على يديّ؛ ولهذا السّبب ذاته كنت بحاجة إلى وقت أكبر في استذكار دروسي ممّا تحتاج إليه زميلاتي الأخريات.وفي بعض الأحيان كنت أشعر بحزن شديد على حالي حين أجد نفسي مضطرّة لإنفاق ساعات طوال في قراءة عدد قليل من الفصول، بينما كانت الفتيات الأخريات ينعمن بالضّحك والمرح غير بعيد عنّي، ومع ذلك حرصت دائمًا على تبديد تعاستي بالضّحك منها لأنني كنت أدرك كلّ الإدراك أنّ كلّ امرىء راغب في تحصيل المعرفة الحقيقية لابدّ من أن تكون لديه من الصّعوبات مايتعيّن عليه مواجهتها وحده.. فليس هناك طريق سهل معبّد إلى المعرفة، بل الطّريق إليها وعر منحدر، وينبغي عليّ أن أتسلّقه بكلّ ما لديّ من مقدرة، وبأفضل طريقة أستطيعها. كنت كثيرًا ما أنزلق عائدة إلى الوراء، وكنت أسقط على الأرض أوأتوقّف عن التّقدّم، وكنت أتعثّر فجأة في صعوبات غير متوقعة، بل وكنت في بعض الأحيان أنقلب إلى حدّة المزاج وسوء الطّبع، لكنّني في جميع الأحوال كنت ما ألبث أن أستعيد سكينتي وأتمالك نفسي فأخرج للسير لبعض الوقت ليتبدّد مابي من الإحباط بعض الشّيء وأشعر بشجاعتي ترتدّ إليّ وأستردّ شغفي ودأبي فأعاود الصّعود وأبدأ في رؤية الأفق الرّحيب... ولم أكن وحيدة دائمًا في نوبات النّضال هذه، فالأصدقاء الطّيبون كانوا إلى جانبي يعينوني، ويوفرون لي الكثير من الكتب الّتي أحتاج إليها مطبوعة بطريقة (برايل)، وكان اهتمامهم بي ورعايتهم لي يسديان إليّ من العون والتّشجيع أكثر ممّا كان بوسعهم أن يتصوّروا.

وفي العام الماضي -وهو ثاني أعوامي في كليّة «راد كليف»- مضيت أدرس الإنشاء الإنجليزي والأدب الإنجليزي والنّظم الحكوميّة في أمريكا وأوروبا، وكذلك قصائد وأعمال فنيّة باللغة اللاتينيّة، وكانت أكثر الدّروس إضفاء للسّرور على قلبي هي دروس الإنشاء، فهي جذّابة رائعة، وكانت المحاضرات دائمًا مثيرة للغاية ومخاطبة للذّكاء، وكان أستاذ المادّة -وهو السيّد (تشارلز تاونستد كوبلاند)- حريصًا على حفز الطّلّاب على إدراك وتذوّق عذوبة وروعة الأدب، وكنّا في حصص الأدب ننهل من جمال التّعبير وروعة الأسلوب

لـدى كبـار الكتّـاب ودونمـا أيّـة شـروح إضافيّـة لاضـرورة لهـا.. فأنـت تقـرأ لتسـتمتع بأفكارهـم السّـامية،ثمّ تعـود إلـى منزلـك والشّـعور يخامـرك بأنّـك قـد رنـوت إلـى الكمـال ذاتـه.

وكان ذلـك العـام أسـعد الأعـوام بالنسـبة لـي لأننـي توفـرت فيـه علـى دراسـةمواد محببـة أثيـرة إلـى نفسـي، هـي الاقتصـاد، والأدب (الإليزاييثـي)، و(شكسـبير) الّـذي كان يلقـي علينـا دروسـه البروفيسـور (جـورج ل. ليتـردج)، وتاريـخ الفلسـفة الّـذي كان يلقـي علينـا دروسـه البروفيسـور (جوزبـا رويـس). ودروس الفلسـفة ذات أهميّـة خاصّـة لأنّ المـرء يتعلّـم منهـا كيـف يتفهّـم الأسـاليب الّتـي كان النّـاس يفكّـرون بهـا فـي الماضـي، وكيـف يتعاطـف معهـا، وبعـد دراسـتها يصبـح المـرء علـى ألفـة مـع أسـاليب التّفكيـر الّتـي كانـت قبـل ذلـك تبـدو غريبـة عليـه، وليـس لهـا مـا يبرّرهـا.

ومـع ذلـك فالكليّـة ليسـت المدينـة الفاضلـة للعقل كمـا كنت أتصـوّر من قبـل؛ ففيها لا يلتقـي المرء بالعظمـاء والحكمـاء وجهًـا لوجـه، ولا يستشـعر فيهـم لمسـة الحياة..صحيـح أنّهـم موجـودون فـي الكليّـة، لكنّـه وجـود محنّـط يبـدون مـن خلالـه فـي حالـة جفـاف وموت، حتّـى أنّـه يتعيّـن علينـا فصـل كلّ منهـم علـى حـدة وفحصـه بدقّـة قبـل أن يتسـنّى لنـا التّأكّـد مـن أنّ الّـذي أمامنـا هـو نـصّ لكاتـب عظيـم لامجـرد تقليـد بـارع. ويبـدو لـي أنّ الكثيـر مـن الدّارسـين المتعمّقيـن ينسـون أنّ متعتنـا الحقيقيّـة بالأعمـال الأدبيّـة العظيمـة تعتمـد علـى تعاطفنـا مـع الكاتـب أكثـر ممّـا تعتمـد علـى تفهمنـا لمـا يكتـب، وأنّ مـن الصّعـب علينـا أن نتذكّـر الشّـروح المعقّـدة لهـؤلاء الدّارسـين الّتـي يسـقطها العقـل عـادة كمـا يسـقط غصـن الشّـجرة ثمـرة ناضجـة رطبـة، ونحـن يمكننـا معرفـة كلّ شـيء عـن الزّهـرة وعمليّـة نموّهـا دون أن نرتفـع إلـى مسـتوى إدراك وتقديـر جمـال وروعـة تلـك الزّهـرة حيـن نراهـا فـي فيـض مـن أشـعّة الشّـمس. وكنـت مـرارًا وتكـرارًا أسـأل نفسـي بصبـر نافـذ «لمـاذا يتعيّـن عليّ الانكبـاب علـى تلـك الشّـروح والنّظريّـات؟» إنّهـا تحلّـق فـي عقلـي هنـا وهنـاك كأنّهـا طيـور عميـاء تضـرب الهـواء بأجنحتهـا دون أن يكـون لهـا هـدف محـدّد. ولسـت أقـول ذلـك علـى سـبيل الاعتـراض علـى الإحاطـة الشّـاملة بالكتـب الشّـهيرة الّتـي درسـناها فمـا أعتـرض عليـه فقـط هـو تلـك الشّـروح النّقديّـة المسـهبة الّتـي لا تعلّمنـا سـوى شـيء واحـد: أنّ هنـاك مـن الآراء المختلفـة بقـدر ماهنـاك مـن بشـر، ومـع ذلـك كان الأمـر يختلـف كثيـرًا حينمـا يقـوم أسـتاذ قديـر (كالبروفيسـور كيتـردج) بشـرح مايكتبـه هـؤلاء الجهابـذة؛ فالأمـر يبـدو حينئـذ وكأنّ شـخصًا ضريـرًا قـد ارتـدّ إليـه بصـره؛ لأنّنـا حيـن كان البروفيسـور يلقـي علينـا محاضراتـه كنّـا

نشعر وكأنّ (شكسبير) قد عاد بإذن اللّه إلى الحياة!

كانت تجيء علي أوقات أشعر فيها بالغربة في نسيان نصف ما كان مفروضًا عليّ أن أتعلّمه، إذ أعتقد أنّ من المستحيل قراءة أربعة أو خمسة كتب في يوم واحد، وبلغات مختلفة وفي موضوعات مختلفة دون أن أدرك الحكمة الماثلة وراءالقيام بل هذه القراءات؛ فالمرء حين يقرأ على عجلة وفي حالة من العصبيّة والارتباك دون أن يفكّر في شيء آخر غير الاختبارات والامتحانات التّحريريّة، يصبح ذهنه مثقلًا بقدر ضخم من المعلومات الّتي لاتبدو أكثر من مجرّد حشو لاطائل من ورائه ولافائدة! وكان عقلي في ذلك الوقت حافلًا بحشد هائل من الأشياء المختلفة إلى حدّ لم أكن معه أملك القدرة على تنظيم معلوماتي والتّنسيق بينها، وكنت كلّما خطوت نحو «مملكة العقل» شعرت كما لو أنّ الأرواح الشّريرة تطاردني وتتعقّب خطاي.

وكانت الامتحانات من دون شكّ تمثّل الجانب الأصعب من حياتي الجامعيّة؛ فبالرّغم من كوني واجهتها لعددكبير من، المرّات وتمكّنت في كلّ مرّة من قهرها، فقد كانت تنهض من جديد وتتحدّاني بالوعيد حتّى تهتزّ نفسي وتخونني شجاعتي. وأنت حين تواجه امتحانًا، فإنّك تقضي الأيّام السّابقة للامتحان في حشو ذهنك بأكبر قدر ممكن من الحقائق والتّواريخ... قدر كبير للغاية إلى حدّ تتنابك معه الرّغبة في أن تصبح أنت ومامعك من الكتب في قرار مكين تحت سطح البحر! وفي نهاية المطاف تجيء ساعة الفزع وتكون محظوظًا حقًّا حين تشعر بنفسك مهيّئًا للامتحان وبأنّك قادر على تذكّر المعلومات الّتي تحتاج إليها في الوقت نفسه الّذي تحتاج إليها فيه.

وأكثر مايثير الحنق والغيظ أن تبدو ذاكرتك وقد نما لها جناحان لتطير بهما في اللحظة ذاتها الّتي تكون فيها في أشدّ الحاجة إليها، فالحقائق الّتي تتعلّمها وتستذكرها بالجهد الجهيد غالبًا ماتقترف في حقّك جريمة الخيانة حينما تهرب منك في الوقت الّذي تكون فيه في حاجة ماسّة إليها.

قد تجد نفسك في الامتحان أمام سؤال كالتّالي: أكتب مقالًا مختصرًا عن «هَسْ» وإنجازاته. ياللعجب «هَسْ»؟ ومن يكون (هَسْ) هذا؟ وماهي إنجازاته؟ ... وبرغم المفاجأة فالاسم يبدو لك مألوفًا بعض الشّيء وإن كنت لم تدرك لأوّل وهلة من يكون ! فتأخذ في البحث

والتّفتيش في كلّ الحقائق التّاريخيّة الّتي تعرفها، ويصبح الأمر أشبه بالبحث في سلّة مليئة بقصاصات من القماش من أجل الحصول على قصاصة صغيرة من الحرير تريدها. ولاشكّ في أنّك تكون واثقًا في الوقت ذاته من أنّ المعلومة موجودة في مكان ما من الجهة العلويّة لذهنك، فأنت قد رأيتها هناك منذ يوم واحد فقط حين كنت تبحث عن شيء آخر... لكن أين هي الآن؟

وتشرع فيجرد كلّ مافي ذهنك من معلومات صغيرة: المعارك، الحروب، الثّورات، الأنظمة الحكوميّة.. لكن أين يوجد ذلك المدعو « هَسْ»؟ وتجد نفسك مندهشًا للغاية من أنّ كلّ الأشياء الّتي تعرفها لا وجود لها على ورقة الأسئلة!.. وفي نهاية المطاف، وبدافع من اليأس، تتناول السّلّة وتقلّب كلّ مابها لتجد ذلك الرّجل «هّسْ» قابعًا في أحد الأركان ومستغرقًا في تفكيره الخاصّ دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن ذلك القدر الكبير من الإزعاج الّذي سبّبه لك !

وفي هذا الوقت بالذّات ينطلق صوت المراقب ليخطرك بأنّ زمن الامتحان قد انقضى وحان موعد تسليم ورقة الإجابة.. وبكلّ مشاعر اليأس والاشمئزاز تترك ورقة الإجابة وتعود إلى منزلك ورأسك مليء بخطط ثوريّة تهدف إلى القضاء على حقّ الأساتذة في وضع أسئلة لا يقتنع بها الممتحنون!

تخطر ببالي الآن فكرة أنّ ماقلته خلال الصّفحتين أو الثّلاث السّابقة سوف يثير ضحك النّاس منّي، لكنّ كلماتي تلك تصف في حقيقة الأمر وبكلّ دقّة ذلك العالم الحافل بالأفكار المتزاحمة والمتدافعة في تسارع، الّذي أعيش فيه ولا أملك تبديل واقعه، وماقلته إنّما هو بالفعل أسلوبي في التّعبير عن حقيقة أنّ أفكاري عن الكليّة قد تغيّرت! فحين كان وجودي بكليّة «راد كليف» مجرّد أمل يراودني وأمر يخصّ المستقبل، كان ذلك الوجود يبدو لي ضربًا من الخيال كأنّه حلم ساحر جميل.. والآن برغم أنّ التحاقي بالكليّة فقد خصائصه الرّائعة تلك، فقد قدّر لي أن أتعلّم الكثير من الأشياء الّتي لم يكن من الميسور أن أعرفها لولا إقدامي على تجربة الالتحاق بالجامعة. ومن تلك المعارف «علم الصّبر» الثّمين الّذي يعلّمنا ضرورة التّعامل مع التّعليم على النّحو نفسه الذي نتعامل به مع نزهة في الرّيف؛ إذ ينبغي لنا أن نتروّى وألّا نمضي على عجل، وأن نفتح عقولنا من أجل تلقّي المؤثّرات من

كلّ نـوع، فمثـل هـذه المعرفـة تثـري النّفـوس بفكـر عميـق.. وقـد قـال أحـد الحكمـاء «المعرفـة قـوّة» أمّـا بالنسـبة لـي فـإنّ المعرفـة «بهجـة وسـعادة» لأنّـك حيـن تكـون لديـك المعرفـة تصبـح قـادرًا علـى التّمييـز بيـن ماهـو حقيقـيّ وماهـو زائـف، وبيـن ماهـو سـامٍ وماهـو وضيـع، وحيـن يكـون المـرء علـى درايـة بأفـكار ومآثـر النّـاس عبـر مختلـف عصـور التّاريـخ ومختلـف المواقـع الجغرافيّـة فإنّـه يستشـعر التّعاطـف والقربـى نحـو الإنسـان علـى مـرّ القـرون، وعلـى النّقيـض مـن ذلـك يكـون المـرء قـد أصيـب بالصّمـم تجـاه الحيـاة بأسـرها حيـن يفقـد الإحسـاس بـأنّ هنـاك شـيئًا سـاميًا وراء كلّ مايحـاول الإنسـان أن يفعلـه ويسـعى إلـى تحقيقـه.

نصوصُ الرّأي

المَقالاتُ

المقالةُ

المقالـة هـي قطعـة نثريـة ذات طـول معتـدل، يتنـاول فيهـا الكاتـب بعـض القضايـا الخاصـة أو العامـة مـن وجهـة نظـره الخاصـة، ولذلـك تصنّـف المقالـة على أنهـا مـن نصـوصُ الـرّأي؛ لأنهـا فـي الغالـب تعبّـر عـن رأي كاتبهـا فـي الموضـوع الّـذي يتناولـه بالكتابـة.

وعلـى الرغـم مـن أنّ المقالـة نـوع حديـث مـن الكتابـة، إلا أن لهـا بـذورًا موغلـة فـي القـدم فـي الآداب القديمـة؛ إذ يمكـن أن نلتمـس بـذور هـذا الفـن فـي الأدب الصينـي القديـم فـي أقـوال الحكيـم (كونفوشـيوس)، وفـي الأدب اليونانـي فـي كتابـات (سـقراط) و(أفلاطـون) و(أرسـطو).

أمـا فـي الأدب العربـي القديـم فقـد ظهـرت بـذور المقالـة فـي الأدب العربـي منـذ القـرن الثانـي للهجـرة فـي الرسـائل الأدبيـة ومـا تحويـه مـن موضوعـات مثـل الإخوانيـات ومـا تتضمنـه مـن مناظـرات ومسـامرات وموضوعـات أخـرى تفـرّد بهـا الشـعر كالغـزل والمديـح والهجـاء والفخـر والوصـف رغـم الأسـلوب الإنشـائي والصنعـة اللفظيـة. وتعتبـر رسـالة «صفـة الإمـام العـادل» للحسـن البصـري التـي كتبهـا إلـى الخليفـة عمـر بـن عبـد العزيـز بطلـب منـه واصفًـا فيهـا الإمـام (الخليفـة) العـادل مثـلًا جيـدًا علـى المقالـة الأخلاقيـة الوعظيـة.

يقول الحسن البصري:

«اعْلَـمْ يـا أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِيـنَ أَنَّ اللّـهَ جَعَـلَ الإِمَـامَ الْعَـادِلَ قِـوّامَ كُلِّ مَائِـلٍ، وَقَصْـدَ كُلِّ جَائِـرٍ، وَصَـلاحَ كُلِّ فَاسِـدٍ، وَقُـوَّةَ كُلِّ ضَعِيـف، وَنَصَفَـةَ كُلِّ مَظْلُـوم، وَمَفْـزَعَ كُلِّ مَلْهُـوف. وَالإِمَـامُ الْعَادِل-يَـا أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِيـنَ- كَالرَّاعِـي الشَّـفِيقِ عَلَـى إِبِلِـهِ، الرَّفِيـقِ بِهَـا الَّـذِي يَرْتَـادُ لَهَـا أَطْيَـبَ الْمَرْعَـى، وَيَذُودُهَـا عَـنْ مَرَاتِـعِ الْهَلَكَـةِ، وَيَحْمِيهَـا عَـنِ السِّـبَاعِ، وَيُكِنُّهَـا عَـنْ أَذَى الحَـرَّ وَالْقَـر».

وتعتبـر (رسـالة عبـد الحميـد الكاتـب) إلـى الكتّـاب التـي تضـع قواعـد للكتابـة الديوانيـة ولأخـلاق الكاتـب قريبـة الشـبه بالمقالـة النقديـة الحديثـة. ورسـالة (سـهل بـن هـارون) إلـى بنـي عمـه فـي مـدح البخـل وذم الإسـراف مثـال علـى المقالـة الفكاهيـة. ورسـالة (الصحابـة) لابـن المقفـع مقالـة فـي سياسـة الدولـة وإدارتهـا. ورسـائل (الجاحـظ) وكتبـه نمـوذج حـي علـى المقالـة فـي الأدب القديـم. ورسـائل (أبـي حيـان التوحيـدي) وفصـول مقابسـاته، وكتابـه (الإمتـاع والمؤانسـة) نموذج

للمقالات الفلسفية التأملية والهجائية.

يقول أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة في حوار بينه وبين الوزير بن سعدان حول الوزير الصاحب بن عباد وما يُقال في ذمه: «إنّ الرَّجُلَ كَثيرُ المحْفوظِ، حاضِرُ الجَوابِ، فَصيحُ اللسانِ. . . إنّهُ يَمْدَحُ نَفسَه بشِعْرٍ ثُمّ يُعْطيه لمَنْ يُلْقيه كأنَما هُوَ شِعْرٌ قِيلَ فِيهِ مِنْ سِواه، فَهُوَ مُحِبٌّ للثَّناءِ لدَرَجَةِ الإسْراف، وهُوَ مَزيجٌ من عَقْلٍ وحُمْق».

كل هذه الأمثلة محاولات يمكن أن تدرج تحت أدب المقالة. محاولات يمكن أن تدرج تحت أدب المقالة.

أمّا المقالة في العصر الحديث فقد ارتبطت بظهور الصحافة، ونشأت في حضنها، وقد ذكر محمود نجم للمقالة أربعة أطوار، هي:

الطور الأول: يضم كُتَّاب الصحف الرسمية، مثل رفاعة رافع الطهطاوي، وميخائيل عبد السيد، وعبد اللّه أبو السعود، ومحمد أنسي، وتمتدّ حتّى الثورة العرابية. وقد نشروا مقالاتهم في «الوقائع المصرية» و«وادي النيل» و«الوطن» و«روضة الأخبار» و«مرآة الشرق»، وتناولوا المواضيع السياسية، وتميز أسلوبهم بكثرة استخدام المحسنات البديعية والزخرف اللفظي.

الطور الثاني: تأثر بنشأة الحزب الوطني الأول، وبروح الثورة الّتي سبقت الحركة العُرابية، وبالأدباء السوريين الذين استقروا في مصر، ولعبوا دورًا كبيرًا في تطوير المقالة. من أبرز كُتَّاب هذا الطور: أديب إسحق، وسليم النقاش، وسعيد البستاني، وعبد اللّه نديم، ومحمد عبده، وإبراهيم المويلحي، ومحمد عثمان جلال، وعبد الرحمن الكواكبي، وبشارة تقلا. ومن أهم الصحف الّتي كتبوا فيها نذكر «الأهرام» و«مصر» و«الفلاح» و«الحقوق»، وقد تناولت مقالاتهم مواضيع اجتماعية، وقد تحللت من الصنعة اللفظية.

الطور الثالث: ظهرت في هذا الطور مدرسة صحفية حديثة، نشأت في عهد الاحتلال الانكليزي لمصر، من أبرز روادها: علي يوسف، ومصطفى كامل، وعبد العزيز جاويش، وولي الدين يكن، وسليم سركيس، ومحمد رشيد رضا، وخليل مطران، وأحمد لطفي السيد، كما ظهرت صحف ناطقة باسم أحزاب سياسية، فكان الزعيم مصطفى كامل الناطق باسم الحزب الوطني ينشر مقالاته في جريدة «اللواء»، وكان أحمد لطفي السيد يمثل حزب

الأمـة، وينشـر مقالاتـه السياسـية والفكريـة فـي جريـدة «الجريـدة».

الطـور الرابـع: المدرسـة الحديثـة الّتـي تبـدأ بالحـرب العالميـة الأولـى وبأحـداث ثـورة 1919 المصريـة، وقـد ظهـرت فـي هـذه الفتـرة صحـف تركـت أثرهـا فـي كتابـة المقالـة مثـل جريـدة «السـفور» لعبـد الحميـد حمـدي، و«الاسـتقلال» لمحمـود عزمـي، وقـد شـارك فـي تحريرهـا طـه حسـين، وجريـدة «السياسـة» لمحمـد حسـين هيـكل، وكانـت ناطقـة باسـم حـزب الأحـرار الدسـتوريين، وجريـدة «البـلاغ» لعبـد القـادر حمـزة، وجريـدة «الأسـبوع» لإبراهيـم عبـد القـادر المازنـي، وقـد تناولـت المقالـة فـي هـذا الطـور مواضيـع سياسـية، وتميـز أسـلوبها بالوضـوح والدقـة.

وواضـح أنّ هـذه الأطـوار تركّـز علـى تطـور المقالـة فـي مصـر، وقـد أشـار محمـود نجـم نفسـه إلـى أنّ المقالـة الصحفيـة فـي لبنـان كانـت أسـرع تطـورًا مـن المقالـة فـي مصـر.

ومنـذ ذلـك الوقـت قطعـت المقالـة، علـى اختـلاف أنواعهـا، شـوطًا كبيـرًا، فصـار لـكل بلـد كُتّابـه، وتنوّعـت موضوعـات المقالـة، وقضاياهـا، وتطـورت أساليبها، وصـارت المقالـة مـن أكثر أشـكال الكتابـة شـيوعًا وانتشـارًا.

ولا شـكّ أنّ لكتابـة المقالـة أصـولًا يلتـزم بهـا الكُتّـاب، منهـا: تحـرّي الدقـة فـي نقـل المعلومـات، والموضوعيـة فـي عـرض وجهـات النظـر، والصـدق والعدالـة، وعـدم التحيّـز، واللغـة السـليمة المشـرقة الواضحـة.

كمـا أنّ المقالـة قـد تتنـوّع بحسـب الغـرض مـن كتابتهـا، فالمقالـة الإقناعيـة سـتختلف بالتأكيـد عـن مقالـة سـردية يحكـي فيهـا الكاتـب عـن موقـف مـرّ بـه ليشـير، بعـد ذلـك، إلـى أمـر يـود أن يلفـت نظـر القـارئ إليـه؛ ففـي الأولـى سيسـتخدم الكاتـب الأدلـة والحجـج لدعـم وجهـة نظـره التـي يـود أن يقنـع الكاتـب بهـا، أمـا فـي الثانيـة فسيسـتخدم البنـاء القصصـي، وهكـذا.

وعلـى الرغـم مـن التنـوّع اللانهائـي لمضاميـن المقـالات وطرائـق عرضهـا، إلا أنّ الأصالـة تعـدّ شـرطًا أساسـيًّا مـن شـروط المقالـة الناجحـة، ونعنـي بالأصالـة أن تعكـس المقالـة روح كاتبهـا، وفكـره، فهـي ليسـت حشـدًا مـن المعلومـات، وليسـت نقـلًا حرفيًّـا للوقائـع، بـل هـي وجهـة نظـر خاصـة، تسـتحق أن تُقـرأ، وقـد نالـت هـذا الاسـتحقاق مـن مصداقيـة كاتبهـا، ونزاهتـه، وثقافتـه.

الاستِهتارُ بُرهانُ السَّأَمِ

سلامة موسى

كثيرًا ما نَنخَدِعُ بِرؤيةِ بعضِ النّاسِ يَلهونَ ويَستَهتِرونَ، ولسانُ حالِهم يقولُ: «نعيشُ اليومَ لأنَّنا لا نعرِفُ إذا كنّا سنَحيا في الغَدِ». والّذي يخدَعُنا في هؤلاءِ النّاسِ أنَّنا نعتقدُ أنَّهم سعداءُ قد حلّوا مشكلةَ الوجودِ، واستَقرّوا على أنَّ الأسلوبَ الأمثَلَ لِلحياةِ هُو أنْ نَحيا في مَسرّاتٍ مُتواليَةٍ نأكُلُ ونَشربُ، وغدًا نَموتُ. ولكنَّنا عندما نتأمَّلُ حالَهم ونتحدَّثُ إليهم نَجدُ أنَّهم في غَمرةٍ منَ التَّشاؤمِ والحُزنِ، قَد سَئمُوا الحياةَ وَضاقوا بها إذْ لا يَجِدونَ أَيَّةَ دَلالَةٍ لَها، وهُم كُلّما شَمِلَهُمُ السَّأَمُ والحُزنُ عَمَدوا إلى المَسرّاتِ الرَّخيصَةِ الّتي تُسَرّي عَنهُم تَفاهَةَ هذهِ الحياةِ الّتي يحيّونَها، واستِهتارَهم بِالأخلاقِ، وإقبالَهم على الشّرابِ أو الطَّعامِ، إنَّما يعودُ كلُّ ذلكَ إلى عجزِهم عن أن يَرفعوا أنفسَهُم إلى المقامِ الّذي يُشعِرُهُم بِالكرامَةِ والسُّمُوِّ، وإلى عَجزِهم عَن أنْ يُؤدّوا عَملًا أو يَقوموا بِنَشاطٍ يجعلُ لِحياتِهم دَلالةً. إنَّ خُلوَّ الحياةِ منَ الدَّلالَةِ هُو الّذي يَجعلُ الشّابَّ يَتَساءَلُ: لِماذا أعيشُ؟ ومتى سَألَ هذا السُّؤالَ ولَمْ يَجِدِ الجَوابَ الشّافيَ فَإنَّهُ عِندئذٍ يَستَهتِرُ، بلْ هُو قَد يَرتكِبُ الجَرائِمَ الأخلاقيَّةَ البَشِعَةَ لأنَّهُ لَمْ يَعُدْ يَجِدُ الدَّلالَةَ في الاستقامَةِ والشَّرفِ، ولا نقولُ العظمةَ والمجدَ.

كيفَ إذن نوجِدُ الدَّلالةَ لِحياتِنا؟ نوجِدُها بأن نُنشِئَ، نَبنيَ، نُشيِّدَ، نؤدّيَ منَ العملِ ما نرى نَتائِجَهُ تَنمو أمامَ أعيُنِنا فنَفرَحَ ونُحِسَّ أنَّ المُستقبلَ جُزءٌ مِنَ الحاضرِ؛ لأنَّ هذا العملَ سَيَطَّرِدُ في نموِّهِ في السِّنينَ القادِمَةَ، أيْ في هذا المُستقبَلِ. نَبني أَنفُسَنا، نَبني شَخصيَّتَنا، أو نَبني غَيرَنا بِالتَّربيَةِ والتَّثقيفِ. وتَجري عَمليّةُ البِناءِ يومًا بعدَ يومٍ فَتُشعِرُنا بِتَطوُّرِنا وارتِقائِنا وَعِندَئِذٍ نَجدُ الدَّلالَةَ، وَهيَ: مَشاعِلُ الطَّريقِ للشَّبابِ. أنا أَحيا لأنَّني أَرتَقي، وَلأنَّ لِنَفسي امتِدادًا في المُستَقبَلِ يَجعَلُني أَتفاءَلُ وأَفرَحُ، فلا أَحتاجُ إلى أَن أَقولَ: لِنَأكُلْ وَنشرَبْ وَغدًا نموتُ. إنَّ هذهِ الكلماتِ الّتي تَحملُ مَعنى التَّشاؤمِ بالمُستَقبلِ، وَمعنى التّفاهَةِ في حياتِنا الحاضِرَةِ، وَمَعنى الرُّكودِ والانحِلالِ، هذه الكلماتُ لا يُمكنُ أن تَخطُرَ بعقلِ الشّابِّ الّذي يَجدُ الدَّلالَة لِحياتِهِ؛ لأنَّهُ يَتَطوَّرُ وَيَرتَقي، وَلِأنَّهُ يَبني شَخصيَّتَهُ.

وَمِنَ الأخطاءِ الفادِحَةِ ظَنُّ الكثيرينَ مِنَ النّاسِ أنَّ الشُّبّانَ المُستَهتِرينَ أكثَرُ استِمتاعًا بِحياتِهِم،

*) جريدة البيان: 15 نوفمبر 2015.

وإنْ كانوا أَقلَّ انتِفاعًا مِنَ الشُّبّانِ الجادّينَ.

وَمَنشَأُ هذا الخِداعِ أنّنا نَرى الشّابَّ المُستَهتِرَ يَعيشُ في اللَّهوِ، يَسْهَرُ وَيتّبِعُ شَهواتِ الدُّنيا، وَيَنغَمِسُ في التَّدخينِ أو السُّكْرِ، وَلا يَتعَبُ في كَسْبٍ، وَلا يُؤَدّي خِدمَةً تَحتاجُ إلى الدَّرسِ والجُهدِ، وهُو ضاحِكٌ مِن هُمومِ الدُّنيا هازِئٌ بالمُستَقبَلِ، لا يُبالي بِالواجِباتِ الاجتِماعيَّةِ أو الرُّقيِّ الشَّخصيِّ. وَنَرى أَنَّ الشّابَّ الجادَّ في تَعبٍ، يَجهَدُ وَيَعرَقُ وَيُفَكِّرُ كَثيرًا، وَيَحمِلُ أعباءً مِنَ الهُمومِ والاهتِماماتِ، وَيضطَلِعُ بالمَسْؤوليّاتِ الماديَّةِ والرّوحيَّةِ، وهُو رَزينٌ في حَديثِهِ، يَقتَصِدُ في كَلِماتِهِ وابتِساماتِهِ، يَنامُ ليلَه، وَيسعى نَهارَهُ في طَلَبِ الرّزقِ أو تَرقيَةِ شَخصيَّتِه بِالدّرسِ.

والمقارَنَةُ بينَ هذينِ الاثنينِ توهِمُنا أنَّ الأوَّلَ سَعيدٌ باستِهتارِهِ، والثّاني شَقيٌّ بِجدِّهِ، ولكنَّ هذا خَطَأٌ فادِحٌ؛ لأنَّ استمتاعاتِ الشّابِّ الجادِّ تَسْري على مستوًى أعلى من استمتاعاتِ الشّابِّ المُستَهتِرِ، كما أنَّها تَمتَدُّ إلى عَشَراتِ السِّنينَ في المُستقبَلِ، في حينِ تَنقَطِعُ استِمتاعاتُ الشّابِّ المُستَهتِرِ قَبلَ أن يَبلُغَ الأربَعينَ أو الخَمسينَ.

إنَّ المُستَهتِرَ يَحيا بِلا حَياةٍ تَنتَظِرُهُ في النِّصفِ الثّاني مِن عُمُرِهِ، في حينِ يَحيا الجادُّ حَياتَهُ كُلَّها إلى يومِ وفاتِهِ، فالأوَّلُ – أي المُستَهتِرُ – يَقِفُ عِندَ الأربَعينَ أو الخَمسينَ بِلا اهتِماماتٍ روحيَّةٍ أو ثَقافيَّةٍ أو فَنيَّةٍ أو اجتِماعيَّةٍ، وَبِلا رِسالَةٍ، وَفي أَغلَبِ الأَحيانِ بِلا صِحَّةٍ، أمّا الثّاني — أي الجادُّ — فإنّهُ ربطَ نفسَه منذُ العِشرينَ أو قَبلِها بِروابِطِ الارتِقاءِ الشَّخصيِّ والخِدمَةِ الاجتِماعيَّةِ والاستِطلاعاتِ الثَّقافيَّةِ، فَهوَ شابٌّ يَرقُصُ قَلبُهُ طَرَبًا للحياةِ حتّى لو تَجاوزَ المِئَةَ مِنَ العُمُرِ. كثيرًا ما أجِدُ رَجُلًا في العَقدِ السّابعِ أو الثّامِنِ مِن عُمُرِهِ قَد تَعَدَّدتِ اهتِماماتُه فَتَوافَرَت لَهُ بِذلِكَ استِمتاعاتُهُ؛ لأنَّهُ أخَذَ حياتَه مُنذُ شبابِهِ مَأخَذَ الجِدِّ وَلَم يَستَهتِر، في حينِ أنَّ أولئكَ المُستَهتِرينَ أيّامَ شَبابِهِم لا يَكادونَ يَبلُغونَ السِّتينَ مِنَ العُمُرِ حَتّى يُحِسّوا الحيرَةَ وَحتّى يتَساءلوا في عَجبٍ: لِماذا هُم أحياءٌ؟ أيُّها الشّابُّ استَمتِع بِالجِدِّ الباقي، ولا تَستَمتِع باللَّهوِ الزّائِلِ.

نريدُها عادةً لا صرعةً

عوضُ بنُ حاسومٍ الدَّرمكيُّ

أوَدُّ أنْ أبـدأَ حديثـي بقاعـدةٍ كَونيّـةٍ ثابتـةٍ «أنَّ كُلَّ شـيءٍ يَتغيَّـرُ، وأنَّ الثّابـتَ الوحيـدَ فـي الحُـدوثِ هـوَ التَّغيُّـرُ»، ومَـنْ سَـبَرَ أحـداثَ التّاريـخِ مُنْـذُ بَـدْءِ الخَليقـةِ سـينتهي إلـى هـذهِ الحقيقـةِ مـعْ إضافـةٍ مُهمَّـةٍ وهـيَ أنَّ وتيـرةَ التَّغيُّـرِ تَتسـارَعُ مـعَ الوقـتِ تسـارعًا مُرعِبًـا، فمَـنْ تَكيَّـفَ مـعْ ذلـكَ التَّسـارُعِ حافَـظَ علـى وجـودِهِ، ومَـنْ نـامَ علـى أمجـادِ الماضـي وتَوقَّـفَ عـنِ الحركـةِ أو تَحـرَّكَ ولَكـنْ بوَتيـرةٍ أبطـأَ فاتَـهُ القطـارُ الّـذي لا يعـودُ للخَلْـفِ إطلاقًـا!

يُرجِّـحُ عـدَدٌ كبيـرٌ مِـنَ العلمـاءِ أنَّ العصْـرَ الحَجَـريَّ اسـتمرَّ ملاييـنَ السِّـنينَ، وهـوَ العهْـدُ الّـذي كانـتْ فيـهِ البشَـريّةُ فـي قِمَّـةِ بُدائيَّتِهـا، ثُـمَّ تَـلاهُ العصْـرُ البرونـزيُّ الّـذي اسـتمرَّ ألفَـيْ سـنَةٍ فقَـطْ، أمّـا العصْـرُ التّالـي وهـوَ الحديـديُّ فلَـمْ يُكمِـلِ الألْـفَ سـنَةٍ، وهكـذا كانـتِ البشَـريَّةُ تُسـابِقُ الزَّمـنَ فـي سَـعْيِها لحيـاةٍ أفضـلَ.

ولئِـنْ كانـتِ النِّقْـلاتُ النَّوعيّـةُ قَـدِ اعتَمـدَتْ فـي القديـمِ علـى تجـارِبِ «الصَّـحِّ والخطـأ»، واكتشـافِ النّـارِ واختـراعِ المِحـراثِ، فـإنَّ التَّعلُّـمَ والقـراءةَ سـاهَما -لاحقًـا- فـي إحـداثِ قَفَـزاتٍ هائلـةٍ فـي مسـيرَةِ المدنيّـةِ، وأضْحَـتِ المعلومـاتُ أعظَـمَ أسـلحةِ البشَـرِ وأوثَـقَ دعائـمِ بِنـاءِ المسـتقبَلِ.

قبْـلَ مُـدَّةٍ خَرجَـتْ دراسـةٌ لجامعـةِ كاليفورنيـا بيركلـي الشَّـهيرةِ UC Berkeley قُـدِّرَتْ فيهـا حَجْـمُ المَعلومـاتِ المُنتَجَـةِ عـامَ 2002 بخمسـةِ «إيكسـابايت»، وهـوَ مـا يُعـادِلُ سـبعةً وثلاثيـنَ ألْـفَ نُسـخةٍ إلكترونيّـةٍ مِـنْ مكتبـةِ الكونغـرسِ الأميركيّـةِ. وقبْـلَ أنْ تَسـتصغِرَ الرَّقْـمَ لا بُـدَّ مِـنَ الإشـارةِ إلـى أنَّ عـدَدَ الكُتـبِ فـي تلـكَ المكتبـةِ يزيـدُ علـى سـبعةَ عشـرَ مِليـونَ كتـابٍ، كُلُّ هـذا الحجْـمِ الكبيـرِ مِـنَ المعلومـاتِ كانَ قبْـلَ ثَـورةِ وسـائلِ التَّواصُـلِ الاجتماعـيِّ كـ «فيسـبوك» و«تويتـر» و«يوتيـوب» وأمثالِهـا. ثُـمَّ قامَـتْ شـركةُ هيولـت باكيـرد HP بدراسـةٍ قُـدِّرَتْ فيهـا حجْـمُ المعلومـاتِ المُتوقَّـعِ إنتاجُهـا عـامَ 2020، أيْ بعْـدَ أربـعِ سـنواتٍ، بقُرابَـةِ خمسـينَ «زيتابايتـس»، حيـثُ الزّيتابايتـس يُسـاوي ألْـفَ «إيكسـابايت»، بمَقْـدورِكَ هنـا أنْ تُمسِـكَ بآلـةٍ حاسِـبةٍ لتَعـرِفَ هـذا الحجْـمَ الهائـلَ!

*) جريدة البيان، 29 ديسمبر 2015.

لماذا أذكُرُ هذهِ الأُمورَ؟ ببَساطةٍ: حتّى نَتيقَّنَ أنَّهُ لا بُدَّ لنا مِنَ التَّحرُّكِ بسُرعةٍ عاليةٍ و«مُتسارِعةٍ» للتَّوافُقِ معْ مُتغيِّراتِ العالَمِ مِنْ علومٍ وتِقْنيّاتٍ ونَزعاتٍ، إنْ أرَدْنا أنْ نَبقى دومًا في السِّباقِ ضِمْنَ دُوَلِ النُّخْبةِ، كما تؤكِّدُ ذلكَ دومًا قيادتُنا الرَّشيدةُ، وأَحَدُ أَهَمِّ مُحرِّكاتِ السُّرعةِ تلكَ «القراءةُ» كعادَةٍ ثابتةٍ لا كصَرْعةٍ طارِئةٍ.

فمِنْ دونِ شَعْبٍ نَهِمٍ للتَّعلُّمِ الدّائمِ ستُعاني خُطَطُ الدَّولةِ كثيرًا لعَدَمِ كفاءةِ القُدُراتِ البشَريّةِ للوفاءِ بحجْمِ التَّحدي وعِظَمِ الطُّموحِ وكِبَرِ الأهدافِ المرسومةِ، وها نحنُ في الشَّهرِ الخامسِ مِنْ عامِ القراءةِ، ورَغْمَ المُبادَراتِ الكثيرةِ للحكومةِ ومؤسَّساتِ الدَّولةِ، إلّا أنَّ المُلاحَظَ أنَّ النّاتجَ حتّى الآنَ أَقَلُّ مِنَ الطُّموحِ، اللَّوْمُ هنا على النّاسِ أنفُسِهِمْ فما نحتاجُ إليهِ هوَ المبادَرةُ الذّاتيّةُ، وليسَ انتظارَ «الدّزّ» دائمًا لكَيْ نتحرَّكَ، وليسَ بِدْعًا مِنَ القَولِ أنَّ المُواطَنَةَ الحقَّةَ تَستلزِمُ مِنّا جميعًا إنجاحَ هذا التَّوجُّهِ والإحساسَ بـ«حُرْقَةٍ» فِعليّةٍ مِنْ أَجْلِ ترجمةِ رُؤيةِ القيادةِ في هذا الجانبِ إلى واقعٍ مُعاشٍ.

إنَّ القراءةَ ركيزةُ العِلْمِ، وعليها تُراهِنُ شعوبُ العالَمِ المُتحضِّرِ، وتلكَ الّتي تُحاوِلُ الوصولَ إلى عالَمِ النُّخْبَةِ، ففي آخِرِ إحصائيّةٍ لمُنظَّمةِ النّاشِرينَ الدَّوليّةِ IPA قدَّرَتِ الإنفاقَ السَّنَويَّ على شِراءِ الكُتبِ بمبلغِ مئةٍ وأربعةَ عشرَ مِليارَ يورو تُمثِّلُ السِّتَّةَ الكِبارَ (الولاياتِ المُتَّحدةَ، الصِّينَ، ألمانيا، اليابانَ، فرنسا، بريطانيا) نِسبَةً 60٪ مِنْ ذلكَ الإنفاقِ، وبلَغَ صافي العوائدِ لبَيعِ الكُتبِ في الولاياتِ المُتَّحدةِ عامَ 2013 أكثرَ مِنْ تسعةَ عشرَ مِليارَ يورو، وبقيمةٍ سوقيّةٍ تُقارِبُ سبعةً وعشرينَ مليارًا.

وفي عامِ 2014 كانتِ الكُتبُ الجديدةُ تُجاوِزُ ثلاثمئةٍ وأربعةَ آلافِ عُنوانٍ في السّوقِ الأميركيّةِ فقَطْ، بينما أعلى دَولةٍ عربيّةٍ وهيَ مِصْرُ لَمْ تصِلْ إلى عَشرةِ آلافِ كتابٍ في آخِرِ إحصائيّةٍ لها!

لا بأسَ هُنا إنْ لَمْ نَكُنْ نُنتِجُ حجمًا مساويًا مِنَ المعرفةِ فنحنُ في مرحلةِ بناءِ القُدُراتِ، وذلكَ وضْعٌ طبيعيٌّ للغايَةِ، بلِ المُهمُّ حاليًّا أنْ تكونَ لدينا مؤسّساتٌ مختصَّةٌ بترجمةِ المعارِفِ العالميّةِ الحديثةِ لرَفْدِ البلدِ بآخِرِ ما توصَّلَ إليهِ العِلْمُ.

أَقولُ المعارِفَ والعلومَ وليسَ ترجمةَ رواياتٍ لا تُسمِنُ ولا تُغني مِنْ جوعٍ أو كتُبٍ

ذاتِ موضوعاتٍ ضبابيّةٍ لا تَعرِفُ لماذا تُرجِمَتْ أصلًا، وقدْ تعلَّمْنا في الإدارةِ أنَّ 90٪ مِنْ نجاحِ أيِّ مشروعٍ تِجاريٍّ يَعتمِدُ على جَودةِ المُنتَجِ، وعليهِ فمِنْ أَجْلِ أنْ نكونَ أهلًا لطُموحاتِ وطَنِ المستقبَلِ وأكْفياءَ لتحدّياتِ الغَدِ وتقلُّباتِهِ لابُدَّ أنْ يَصِلَ الفردُ منّا إلى درجةٍ لا تَقلُّ إنْ لَمْ تَزِدْ على قُدراتِ ومعارفِ نظيرِهِ الأميركيِّ أو الياباني أو الألمانيِّ لتضييقِ الهُوَّةِ المعرفيّةِ Knowledge Gap، هنا أُعيدُ مِنْ جديدٍ أنَّ المسؤوليّةَ تَقعُ على الفرْدِ نفْسِهِ في المقامِ الأوَّلِ وهوَ مَنْ يَجِبُ عليهِ أنْ يُبادِرَ بالتَّعلُّمِ المُتواصِلِ كواجبٍ وطنيٍّ قبْلَ أنْ يكونَ تطويرًا للذّاتِ.

كمْ أتمنّى أنْ أرى قُدواتِ المجتمَعِ مِنْ كبارِ المسؤولينَ والأكاديميّينَ والإعلاميّينَ والرّياضيّينَ والفنّانينَ، يُسهِمونَ فِعلًا في بِناءِ هذهِ العاداتِ، لا بالمشارَكةِ في الفعاليّاتِ والخُطَبِ ولكنْ بحمْلِ كتابٍ بصفَةٍ دائمةٍ وتصفُّحِهِ في أماكنِ الجلوسُ العامّةِ. دَعوني أقولُها بصراحةٍ: الكثيرُ «يَخجَلُ» مِنْ حمْلِ كتابٍ، ولا أَعرِفُ لذلكَ سببًا، والبعْضُ يَبتسِمُ وهوَ يُمسِكُ بطَرَفِ شيشةٍ أو «يعمِّرُ مِدواخَهُ» ويرمُقُكَ بِنَظْرَةٍ، إنْ حمَلْتَ كتابًا، لذلكَ سيكونُ للقُدواتِ دَورٌ كبيرٌ في رَأْبِ هذا الصَّدْعِ الغَريبِ بتَرسيخِ و«تجميلِ» عادةِ القراءةِ في الأماكنِ العامّةِ.

سيُختَتَمُ غدًا معرِضُ أبوظبي الدَّوليُّ للكتابِ، وسيعودُ غالبيّةُ رُوّادِهِ مُحمَّلينَ بأكياسٍ مليئةٍ بالكُتبِ والمَراجِعِ، كُلُّ ما نتمنّاهُ ألّا يكونَ ذهابُ الكُتبِ إلى المنازِلِ لكيْ تكونَ قطعةَ ديكورٍ لا أكثرَ، وما نرجوهُ أكثرَ ألّا نَنسى القراءةَ بمجرَّدِ نهايةِ هذا العامِ. نحنُ نَناشِدُ بِناءَ عاداتٍ جديدةٍ تَترسَّخُ لتُصبِحَ جُزءًا مِنْ حياةِ الإنسانِ اليوميّةِ، وليسَ أمرًا عارِضًا تَمَّ لمُسايَرةِ المبادَرةِ ثُمَّ تنتهي بنهايتِها، فمطَرٌ لمرَّةٍ واحدةٍ لا يُخرِجُ حصادًا كما تقولُ حكمةُ الهنودِ الحُمْرِ، وليسَت كيفيَّةُ بدايتِنا للسِّباقِ أمرًا بالِغَ الأهميّةِ بلِ المُهمُّ كُلَّ الأهميّةِ هوَ كيفَ نُنهي هذا السِّباقَ.

1 الحلّاقُ المُثقَّفُ

ياسر حارب

قبْلَ سنواتٍ عدَّةٍ ذهبْتُ في زيارةِ عمَلٍ إلى مكتبةِ سنغافورةَ الوطنيّةِ، وصادفَ ذلكَ اليومَ مناسَبةٌ جميلةٌ اسمُها « سنغافورةُ تقرأُ». ذَهَبَتْ بِنا مُرافِقَتُنا إلى أَحَدِ مَحالِّ سلسلةِ مطاعمَ شهيرةٍ. دخَلْنا فوجَدْنا مجموعةً مِنْ كِبارِ السِّنِّ متحلِّقينَ حوْلَ طاولةٍ، وأمامَهمْ كتابٌ كانوا يتحدَّثونَ عنهُ. انتهى الحِوارُ فاتَّجَهْنا إلى مطعمٍ آخرَ مِنَ السّلسلةِ نفْسِها، وكانتِ المفاجأةُ؛ وجَدْنا أكثرَ مِنْ عشرينَ سائقَ أجرةٍ أَوقَفوا سيّاراتِهمْ في الخارجِ، وجلَسوا لساعةٍ يُناقِشونَ كتابًا!

وفي كُلِّ عامٍ تُعلِنُ المكتبةُ الوطنيّةُ يومًا للقراءةِ، وتُحدِّدُ مجموعةً مِنَ الكُتبِ الّتي تَنصَحُ النّاسَ بقراءتِها، وتقومُ بتوفيرِها بلُغاتِ الشَّعْبِ الأربعِ. ثُمَّ تُطلِقُ المكتبةُ حَملاتٍ تَرويجيّةً، بالتّعاونِ معْ أنديَةِ الكُتبِ في المدينةِ ووسائلِ الإعلامِ والمطاعِمِ والمحالِّ والمَراكزِ التِّجاريّةِ، لتَشجيعِ النّاسِ على قراءةِ تلكَ الكُتبِ، والمشاركةِ في مناقشتِها معَ زُملائهمْ في ذلكَ اليومِ.

وفي كثيرٍ مِنَ الولاياتِ المتَّحدةِ وبعضِ المُدُنِ الأستراليّةِ توجَدُ مناسَبةٌ سنويّةٌ اسمُها «مدينةٌ واحدةٌ، كتابٌ واحدٌ»، حيثُ تَختارُ المكتبةُ العامّةُ في كُلِّ مدينةٍ كتابًا واحدًا، وتُحدِّدُ يومًا لتقومَ جميعُ أَنديَةِ الكُتبِ والمؤسَّساتِ والشَّركاتِ الخاصَّةِ والجمعيّاتِ، بتَشجيعِ موظَّفيها وأعضائها على قراءةِ ذلكَ الكتابِ ومناقَشتِهِ في اليومِ المُحدَّدِ. وقدْ يَسألُ سائلٌ: ولماذا كتابٌ واحدٌ فقَطْ؟ الهَدفُ مِنْ ذلكَ هوَ خلْقُ هالةٍ مِنَ الاهتمامِ تَدفَعُ بالفُضولِ إلى حدِّهِ الأقصى، فيَتساءلُ النّاسُ عنْ ذلكَ الكتابِ، ولماذا اختارَتْهُ المكتبةُ، وماذا فيهِ، وغيرِ ذلكَ مِنْ تساؤلاتٍ تُشجِّعُهمْ على اقتنائهِ وقراءَتهِ. حيثُ وَجَدوا أنَّ اختيارَ كتابٍ واحدٍ فقَطْ أكثرُ إثارةً للنّاسِ مِنْ قائمةِ كُتبٍ.

اليومَ يَجتمِعُ صاحبُ السُّموِّ الشَّيخُ محمَّدُ ابنُ راشدٍ آلِ مكتومٍ معْ مئةِ شخصيّةٍ إماراتيّةٍ في «خَلْوَةِ المئةِ» ليُفكِّرَ معهمْ بصوتٍ عالٍ عنْ أفضلِ المبادَراتِ والأفكارِ الّتي مِنْ شأنِها أنْ تُشجِّعَ النّاسَ على القراءةِ، بمناسبةِ إعلانِ العامِ 2016 عامَ القراءةِ.

رسالتي لرُوّادِ الخَلْوَةِ، وللحكومةِ، ولكُلِّ المهتمّينَ، هيَ أنَّ مجرَّدَ التَّفكيرِ في تَشجيعِ النّاسِ على القراءةِ هوَ عمَلٌ نبيلٌ؛ ولكي نُحقِّقَ الهدفَ المطلوبَ نحتاجُ إلى الاحتفاءِ بالكتابِ والكاتبِ. ورَغْمَ أنَّ الإماراتِ مِنْ أكثرِ الدُّوَلِ العربيّةِ حِرْصًا على توفيرِ مِنَصّاتٍ للكُتّابِ والمثقَّفينَ، إلّا أنّ المطلوبَ الآنَ هوَ أنْ تضَعَ الحكومةُ ثِقَلَها خلْفَ فِكرةِ القراءةِ، فتُحدِّدَ يومًا سنويًّا لدَفْعِ المجتمعِ إلى ذلكَ، ولنبدأْ بكتابٍ واحدٍ لكُلِّ إمارةٍ؛ فنشجِّعَ أنديةَ الكُتبِ والمكتباتِ والمثقَّفينَ والأُدَباءِ، لا ليَعقِدوا مهرجانًا أو مؤتمَرًا في مكانٍ مُغلَقٍ - رَغْمَ أهميّةِ ذلكَ - بلْ ليَحتَفوا بيومِ القراءةِ في الأسواقِ والمطاراتِ والمؤسّساتِ الحُكوميّةِ والمَرافِقِ العامّةِ. نحتاجُ إلى أنْ يَتحوَّلَ الكِتابُ إلى حديثِ المُجتمعِ والإعلامِ، ويُقدَّمَ الكاتِبُ المُتميّزُ في المناسَباتِ العامّةِ تمامًا مِثْلَما يُقدَّمُ رجالُ السّياسةِ والإعلامِ.

بالمناسَبةِ، يوجدُ في سنغافورةَ نادي كِتابٍ للحلّاقينَ، وعندما سألْتُهمْ عنْ سببِ تشجيعِ الحلّاقينَ على القراءةِ قيلَ لي إنَّ الحلّاقَ مِنْ أكثرِ النّاسِ حديثًا معَ النّاسِ، وعندما تكونُ ثقافتُهُ عاليةً، يُسهِمُ في الارتقاءِ بثقافةِ المجتَمعِ.

2 لماذا نُثقِّفُ أنفُسَنا؟

سلامة موسى

يَعسُرُ على الرَّجُلِ المثقَّفِ أنْ يَتمالَكَ نفْسَهُ وهوَ يشرَحُ الأسبابَ الّتي تَحمِلُ النّاسَ على أنْ يكونوا مثقَّفينَ؛ لأنَّهُ في هذا الشَّرْحِ بمَثابَةِ مَنْ يَزْجُرُهمْ عنِ القَذَرِ أوِ التَّوَحُّشِ أوِ البَهيميّةِ، ويوضِّحُ لَهمْ قيمةَ النَّظافةِ أوِ الإنسانيّةِ أوِ التَّمدُّنِ. فنَحنُ هنا في حاجةٍ إلى أنْ نقولَ للشّابِّ المُتخَمِ بالفَراغِ والشَّبابِ إنَّهُ يَجِبُ عليهِ أنْ يُثقِّفَ نَفْسَهُ حتّى لا يَفسُدَ، ويَجِبُ أنْ نقولَ لغَيرِهِ إنَّ الحياةَ النّاضِجةَ تحتاجُ إلى ثقافةٍ، وإنَّ هناكَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَصِحُّ أنْ نُسمّيَهمْ بُقولًا بشَريّةً؛ إذْ ليسَ لهمْ مِنْ سِماتِ الحياةِ سِوى النُّموِّ الخَلَويِّ، كأنَّهمْ فُجْلٌ أو جَرجيرٌ، وسيَبقَونَ نفْسيًّا وإنسانيًّا في عِدادِ البُقولِ إلى أنْ يُثقِّفوا أنفُسَهمْ، وأنَّ الحياةَ الخاويةَ تُحدِثُ سَأَمًا لا نتخلَّصُ منهُ إلّا بالثَّقافةِ الّتي تَبعَثُ على الاهتماماتِ الذِّهنيّةِ وتَبسُطُ الآفاقَ.

فحياةُ الفَرْدِ قصيرةٌ محدودَةٌ، قلَّما تزيدُ على سبعينَ أو ثمانينَ سَنَةً. ولكنَّ حياةَ النَّوعِ البشَريِّ طويلةٌ. ونحنُ حينَ نَدْرُسُ إنّما نَنقُلُ حياةَ النّوعِ إلى حياةِ الفَرْدِ؛ أيْ إنَّنا عندَما نَدرُسُ التّاريخَ البشَريَّ، والثَّقافةَ القائمةَ في عصْرِنا مِنَ الثَّقافاتِ المُتعاقِبَةِ في العُصورِ الماضيةِ نَفهَمُ المَغزى مِنَ الحياةِ أكثرَ ممّا نَفهَمُهُ مِنْ حياتِنا الخاصَّةِ. وإحدى غاياتِ الثَّقافةِ هيَ أنْ نُكْسِبَ الحياةَ دَلالةً ومَغزًى. أيْ إنّنا نُحِسُّ أنّنا لا نحيا الحياةَ البَيولوجيَّةَ الّتي لا تَختلِفُ عنْ حياةِ الحَيوانِ، ليسَ لنا مِنْ معارِفَ سِوى ما يَكْفي للكَسْبِ الماديِّ، بلْ نعيشُ الحياةَ الرّوحيّةَ الّتي نُدرِكُ منها أنّنا حَلْقَةٌ في سِلسِلةٍ طويلةٍ مِنَ البشَريّةِ الّتي تَتمثَّلُ فينا أغراضُها وأهدافُها، وبهذا نَرتَقي إلى مُستوًى عالٍ لهُ لَذّاتُهُ الأنيقةُ، كما أنَّ لهُ أخطارَه الكبيرةَ الّتي يَجِبُ أنْ نواجِهَها.

ثُمَّ إنَّ نظامَ التَّعليمِ يُحيلُنا إلى مُتخصِّصينَ، نَعرِفُ فنًّا ونُمارِسُ حِرفَةً. وفي حُدودِ هذا الفَنِّ وهذهِ الحِرْفَةِ نعيشُ المعيشَةَ المحدودَةَ. فالثَّقافةُ هنا تُحيلُ هذا التَّضييقَ إلى تَوسُّعٍ، وتُكَبِّرُ العَقْلَ، وتُرَحِّبُ القلْبَ. فنَجِدُ عندَئذٍ التَّسامُحَ البشَريَّ بدَلًا مِنَ التَّعصُّبِ القَوميِّ، والنَّظَرَ العالِيَ بدَلًا مِنَ النَّظَرِ الضَّيِّقِ. وانتشارُ التَّخصُّصِ في أيّامِنا قدْ غَرَسَ عقيدةً فاسدةً بينَ الجمهورِ، هيَ أنَّ المعارِفَ -علومًا وفنونًا وآدابًا- لا يُمكنُ أنْ يَدرُسَها غيرُ المتخصِّصينَ، كُلٌّ في الفَرْعِ الّذي يَختارُ، وأنَّهُ ليسَ على الطَّبيبِ أنْ يَعرِفَ التّاريخَ، وليسَ على الأديبِ أنْ يَعرِفَ الفَلَكَ، وليسَ على المهندِسِ أنْ يَدرُسَ الاجتماعَ. وهذهِ عقيدةٌ مُخطِئةٌ، يَجِبُ أنْ

تُكافَحَ حتّى تُمحى.

ليسَ هناكَ شكٌّ في ضرورةِ التَّخصُّصِ، ولكنَّ الرَّجُلَ المثقَّفَ يَرفُضُ الحُدودَ والسُّدودَ، ويَستبيحُ لنفْسِهِ جميعَ المَعارفِ؛ لأنَّهُ يُحِسُّ أنَّهُ مُحتاجٌ إليها، وأنَّهُ يَنمو بالاغتذاءِ بِها. بلْ هوَ يتطوَّرُ بِها، والتَّطوُّرُ حَقٌّ، بلْ واجبٌ على كُلِّ إنسانٍ.

فنحنُ نثقِّفُ أنفُسَنا كيْ نُكَبِّرَ شَخصيَّتَنا، ونُنَمّيَ أذهانَنا، وكيْ نَتَطوَّرَ، فلا نَموتَ في سِنِّ السَّبعينَ ونحنُ على حالٍ ثَقافيّةٍ قدِ اكتسبناها مِنَ الجامعةِ أوِ المَدرسةِ في سِنِّ العشرينَ أوِ الخامسةِ والعشرينَ. بلْ نَظَلُّ عُمُرَنا ونَحنُ في دِراسَةٍ، لا تَفْتأُ تُغيِّرُنا التَّغيُّرَ الذِّهْنيَّ والنَّفْسيَّ؛ لأنَّهُ منْ دونِ هذا التَّغييرِ لا يَتطوَّرُ المُجتمعُ أوِ الفَرْدُ. بلْ إنَّ السَّعادةَ الشَّخصيَّةَ تَحتاجُ إلى الإحساسِ بالنُّمُوِّ والتَّغييرِ والتَّطوُّرِ. وأساسُ كُلِّ ذلكَ هوَ الفَهْمُ الّذي يُعَدُّ أعظَمَ أنواعِ السَّعادةِ.

إنَّ التَّقدُّمَ الآليَّ الّذي يَشهَدُهُ عصْرُنا قدْ جَعَلَ خَطَرَ الحروبِ، بلْ خَطَرَ الاستغلالِ كبيرًا جِدًّا، فلا يُمكنُ أنْ نَتَّقيَهُما إلّا إذا جَعلْنا كُلَّ فرْدٍ في أنحاءِ العالَمِ مُثقَّفًا مُستَنيرًا، يُميِّزُ بينَ المَعرفةِ المُرشِدَةِ والدِّعايةِ المُضلِّلةِ. فإذا ألْمَمْنا بجَميعِ هذهِ الاعتِباراتِ أمكنَنا في حقٍّ وصدقٍ أنْ نقولَ إنَّ التَّثقيفَ الذّاتيَّ هوَ واجبٌ دينيٌّ على كُلِّ إنسانٍ؛ لأنَّهُ الضَّمانُ للعَيْشِ الصّالحِ على هذا الكَوكبِ.

الاقتِدارُ الإنسانيُّ وَبناؤهُ*

يشكِّلُ مَفهومُ الاقتدارِ الإنسانيِّ أَحَدَ المحاورِ الكُبرى لِعِلْمِ النَّفْسِ الإيجابيِّ، ويتكوَّنُ الاقتدارُ الإنسانيُّ مِنْ عَددٍ مِنَ المُقوِّماتِ على مُختَلفِ صُعُدِ خَصائصِ الإنسانِ وسلوكِهِ، وإدارتِهِ لوجودِهِ. كما أَنَّهُ يُمثِّلُ الوَجهَ النَّقيضَ لحالاتِ الاضطِّرابِ والقُصورِ والعَجْزِ الّتي اهتمَّ بها عِلْمُ النَّفْسِ المَرَضيِّ. ويشكِّلُ بناءُ الاقتدارِ إحدى الغاياتِ الكُبْرى لِعِلْمِ النَّفْسِ الإيجابيِّ.

تعني المُفردةُ الإنجليزيَّةُ Human Strengths: الصِّفةَ أَوِ الحالةَ مِنْ كَوْنِ الشَّخصِ أوِ الشَّيءِ قويًّا، بمعنى القُدرةِ على التَّأثيرِ أوِ التَّحمُّلِ. كما تعني دَرجةَ قُوَّةِ التَّأثيرِ أَوِ التَّركيزِ. وكُلُّها تَصُبُّ في الدَّلالاتِ الّتي نَستخدِمُها في عِلْمِ النَّفْسِ الإيجابيِّ. أمّا عَربيًّا فيَرِدُ في قاموسِ (مُحيطُ المُحيطِ) أنَّ (اقتدار) مِنَ الفعلِ اقتدرَ بمعنى جَمَعَهُ واستوعبَهُ وأَمسَكَ بِهِ. والقدرةُ هيَ القوَّةُ على الشَّيءِ والتَّمكُّنُ منهُ، ومنها اقتدرَ عليهِ أَيْ قَويَ عليهِ وتمكَّنَ منهُ. وهذا المعنى الدَّقيقُ الّذي نَستخدِمُهُ في هذا المَقامِ.

ولقدْ مِلْنا إلى اعتمادِ صيغةِ المُفردِ بدلًا مِنْ صيغةِ الجَمْعِ؛ لأَنَّنا نهدِفُ إلى الحَديثِ عنْ عَمليَّةِ بناءِ حالةٍ كَيانيَّةٍ لدى الإنسانِ يُمكنُ تلخيصُها في تَعبيرِ «التَّمكينُ الوجوديُّ» في مُقابِلِ القهْرِ والهَدْرِ اللَّذَيْنِ يشكِّلانِ المَرَضَيْنِ المُزْمِنَيْنِ اللَّذَيْنِ فُرِضا على الإنسانِ وأرغماهُ على الانكفاءِ إلى حالةِ العَجْزِ والاستسلامِ.

لقدْ أمسى بناءُ الاقتدارِ الكُلِّيِّ للإنسانِ قضيَّةً مُلِحَّةً، إذا كُنّا نطمحُ إلى أخذِ مَكانةٍ وصِناعةِ مصيرٍ، في عالمٍ راهنٍ يَحكمُهُ قانونُ القُوَّةِ على جَميعِ الصُّعُدِ السّياسيَّةِ والاقتِصاديَّةِ والعَسكريَّةِ والتِّقنيَّةِ، ويُتوِّجُها جميعًا القوَّةُ المعرفيَّةُ الّتي تُشكِّلُ مَنبعَ كُلِّ القُوى الأخرى ومُرتكزَها؛ فالعَولَمةُ بتَنافُسيَّتِها اللّامحدودةِ، وتحوُّلاتِها المُتسارِعةِ، وما تَفرضُهُ مِنْ حالاتِ عدمِ تأكُّدٍ، حيثُ كلُّ شيءٍ يَتحوَّلُ بِسرعَةٍ، وحيثُ المُستقبَلُ يَحملُ مِنَ المُفاجآتِ أكثرَ مِمّا يَحملُ مِنْ يقينِ الاستِقرارِ والاستِمرارِ، وما يُسيِّرُ كلَّ عَمليّاتِها مِنْ قانونِ قُوَّةٍ لَمْ يَعُدْ فيها مكانٌ للضُّعفاءِ والمُستكينينَ. الشَّبابُ تَحديدًا وكلُّ شرائحِ مجتمعاتِنا –عُمومًا– بِحاجةٍ إلى

*) مِنْ كتابِ (إطلاقُ طاقاتِ الحياةِ: قراءاتٌ في عِلْمِ النَّفسِ الإيجابيِّ)، مصطفى حجازيّ، 2012، التَّنويرُ لِلطِّباعةِ والنَّشرِ، لبنان.

استردادِ نشاطِ طاقاتِها الحيَّةِ وإطلاقِها وبناءِ الاقتدارِ الكُلّيِّ.

وللاقتدارِ الكُلّيِّ للشَّخصيَّةِ عَددٌ مِنَ المقوِّماتِ يأتي في أوَّلها اللّياقةُ الجِسميَّةُ، تَليها الكَفاءَةُ النَّفسيَّةُ المُتمثِّلةُ في الاقتدارِ الشَّخصيِّ الّذي تَعرِضُ فصولُ هذا العملِ مختَلَفَ محاورِهِ، مضافًا إليها الصِّحةُ النَّفسيَّةُ النَّمائيَّةُ ومُقوِّماتُها المَعروفةُ الّتي تُوفِّرُ المَتانةَ النَّفسيَّةَ والقُدرةَ على الانفِتاحِ على العالَمِ، والظَّفَرَ في التَّعامُلِ مَعْ تَحدّياتِ العَولَمةِ المُتزايدةِ، سواءٌ للحصانةِ ضدَّ آفاتِها وضغوطاتِها وأزَماتِها، أَمْ لامتلاكِ قُدراتِ خوضِ غِمارِ تَحوُّلاتِها وفُرَصِها غَيرِ المَسبوقَةِ مِمّا يَتَطلَّبُ الخُروجَ مِنَ الحالةِ الطُّفَيليَّةِ والتَّبعيَّةِ، وإبداءِ القُدرةِ الأكبرِ مِنَ اللّياقةِ التَّكيُّفيَّةِ.

ويَحتلُّ الاقتِدارُ المَعرفيُّ مَكانةَ بَطلِ السّاحةِ في عَصرِ العَولمةِ، كما أنَّهُ يشكِّلُ الضَّمانَ الثّابتَ الأكيدَ لخوضِ غِمارِ المنافَسةِ؛ فقدْ حلَّ الاقتدارُ المعرفيُّ محلَّ قوَّةِ المالِ والمواردِ الأوَّليَّةِ وغيرِها مِنَ القُوى؛ إذْ إنَّهُ هوَ الَّذي يشكِّلُ العنصرَ الموجِّهَ لها، وصانِعَ فاعِليَّتِها جميعِها. إنَّهُ المَصدرُ المُتنامي وغيرُ القابلِ للنُّضوبِ أوِ التَّراجُعِ أوِ الانتِكاسِ. والاقتِدارُ المَعرفيُّ يُحصَّلُ ويُصَنَّعُ، فلا هوَ يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، ولا هُوَ يوهَبُ، بلْ يَقومُ على الجَدارةِ والجُهدِ الذّاتيَّيْنِ. إنَّ قَصَبَ السَّبْقِ في مُختَلَفِ مَناحي الحَياةِ المُعاصِرَةِ، في المالِ والأعمالِ كما في التِّقنيّاتِ، يَقومُ على قُوَّةِ المَعرفةِ، أوْ ما أسمَيْناهُ الاقتدارَ المَعرفيَّ الَّذي يَكمُنُ في كَسرِ الحُدودِ والقيودِ أمامَ انطلاقِ الأفكارِ وتَجاوُزِ التَّقليديِّ والمَألوفِ، وفي النَّظَرِ والمَنهَجِ والمُمارَسةِ وامتِلاكِ التِّقنيّاتِ. وبالطَّبعِ فإنَّ التَّفكيرَ الإيجابيَّ والتَّفاؤلَ والأملَ الفعّالَ تُشكِّلُ معًا مكوِّناتٍ قاعديَّةً في مُمارسةِ الاقتِدارِ المَعرفيِّ.

ويضافُ إلى ما سبقَ على الاقتِدارِ الكُلّيِّ للشَّخصيَّةِ الجَدارةُ المِهنيَّةُ الّتي تُشكِّلُ جَوازَ العُبورِ الأكيدِ والمَضمونِ إلى العُضويَّةِ الاجتِماعيَّةِ الكامِلةِ مِنْ خِلالِ الجَودةِ والنَّوعيَّةِ والتَّنافُسِ. وسَيكونُ جيلُ الشَّبابِ أمامَ تَحدٍّ فِعليٍّ لإثباتِ جَدارَتِهِ مِنْ خلالِ بناءِ اقتِدارِهِ المِهنيِّ. إنَّنا بصددِ بناءِ الجَدارةِ، أَيِ الحالةُ النَّقيضُ تَمامًا لحالةِ العَجْزِ والهَدرِ، أَوْ حالةُ رِضاعةِ المغانِمِ مِنْ خِلالِ التَّبعيَّةِ للعصبيَّةِ والعَشيرةِ.

ويشكِّلُ الاقتدارُ الاجتماعيُّ أو الكفاءةُ الاجتماعيَّةُ الركنَ الخامسَ مِنَ الكفاءةِ الكليَّةِ للشَّخصيَّةِ الَّتي يُطلَقُ عليها -أحيانًا- الذُّكاءُ الاجتماعيُّ، والَّتي أصبحَتْ- بما تَتضمَّنُهُ مِنْ

مهاراتٍ– مِنَ المُؤهِّلاتِ الأساسيَّةِ لِدخولِ عالَمِ العملِ والنَّجاحِ فيهِ، في عَصرِ الأسواقِ المَفتوحةِ وتَبادُلِ التَّفاعُلِ. إنَّ مهاراتِ التَّفاعُلِ في عَصرِ التَّنوُّعِ الثَّقافيِّ، كلُّها أصبحَتْ مِنْ متطلَّباتِ الاقتدارِ في عَصرِ العَولمةِ، عالميًّا ومحليًّا على حدٍّ سواءٍ؛ فقدِ انتهى عَصرُ العُزْلةِ والمجتمعاتِ الضَّيِّقةِ المُغلقةِ على ذاتِها، والشَّبابُ هوَ مِنْ حيثُ التَّعريفُ ابنُ العولمةِ واللّاعِبُ الأساسُ فيها، ولذا فلا بُدَّ مِنْ تَنميةِ اقتِدارِهِ الاجتِماعيِّ.

وتُستكمَلُ مُقوِّماتُ الاقتِدارِ الكلِّيِّ للشَّخصيَّةِ برسوخِ الهُويَّةِ والانتِماءِ؛ فَكُلُّ اقتدارٍ وفاعليَّةٍ يَندَرجانِ بالضَّرورةِ ضِمنَ الانتِماءِ والهُويَّةِ اللَّذَيْنِ يتحقَّقُ رُسوخُهما بالمواطَنَةِ المُشارِكةِ في تَحمُّلِ المَسؤوليَّةِ الوَطنيَّةِ، فالهُويَّةُ هيَ ما نَصنَعُهُ بِحياتِنا ومَصيرِنا، وما نُقدِّمُهُ مِنْ إنجازاتٍ، وليسَ مُجرَّدَ التَّغني بأمجادِ الأجدادِ؛ فالأممُ النّاهِضَةُ والرّائدةُ تُحدِّدُ هُويَّتها بما تُنجِزُ مِنْ إبداعاتٍ، وما تقدِّمُهُ للإنسانيَّةِ مِنْ أسبابِ التَّقدُّمِ ووسائِلِهِ.

وتُشكِّلُ الحَصانةُ الخُلُقيَّةُ أَحَدَ أهَمِّ أوجُهِ اقتدارِ الشَّخصيَّةِ، ولقدْ أصبحَتْ مُلِحَّةً أكثرَ مِنْ أيِّ وقتٍ مضى مَعْ ما حَملَتْهُ العولمةُ مِنْ آفاتٍ وأوجُهٍ مُظلمةٍ، فالمناعةُ الخُلُقيَّةُ – وَحدَها– هيَ الَّتي تُشكِّلُ الحِمايةَ الحَقيقيَّةَ مِنْ هذهِ الآفاتِ. وهُنا أيضًا لا تقومُ حَصانةٌ خُلُقيَّةٌ إلّا على أوجهِ الاقتِدارِ والاعتِزازِ بالقُدُراتِ والإمكاناتِ والإنجازاتِ الّتي تُعطي الذّاتَ مَعناها وقيمَتَها ومكانَتها. ولا تَقومُ على الإفراطِ في الحَظْرِ والحَجْرِ والمَنْعِ والتَّأثيمِ الّتي تُقيِّدُ الطّاقاتِ الحَيَّةَ، فلَقدْ أصبَحَ مَعروفًا أنَّ التَّخويفَ والزَّواجِرَ والرَّوادِعَ لا تُشكِّلُ حَصانةً خُلُقيَّةً؛ إذْ إنَّها سُرعانَ ما تَتهاوى أمامَ تَحدّياتِ الإغراءاتِ، بَينَما يُوفِّرُ التَّمكينُ الذّاتيُّ احتِرامَ الذّاتِ وتَقديرَها، وهذا أهمُّ مُقوِّماتِ الحَصانَةِ.

لقدْ أصبَحَ بناءُ الاقتدارِ أكثرَ إلحاحًا بمقدارِ تَزايدِ ضُغوطِ العَولَمةِ وتَحدّياتِها الَّتي تُهدِّدُنا أَنْ ندخلَ في التَّبعيَّةِ. إنَّ كُلَّ مقوِّماتِ الاقتدارِ الإنسانيِّ هيَ قدراتٌ تبنى مِنْ مشاريعِ صناعةِ الكيانِ، وبالتّالي فإنَّها تتوقَّفُ على جهودِنا وتعظيمِنا لفُرَصِنا.

أيُّ النّاسِ أسعَدُ؟ وكَيفَ تَحصُلُ على السَّعادةِ؟*

هلْ تُصبِحُ أسعَدَ حالًا، لَو أنَّكَ كُنتَ ألمَعَ ذَكاءً مما أنتَ فيهِ؟ أو لو أنَّكَ لَستَ مُضطَرًّا إلى أنْ تَبذُلَ في عَمَلِكَ الجُهدَ الّذي تَبذُلُهُ؟ أتَعرِفُ أيّ طَبقاتِ النّاسِ أوفرَ سَعادةً مِن سِواها؟ لقَدْ عُنِيَت نُخبَةٌ من عُلماءِ النَّفسِ والاجتِماعِ، ومِن العُلماءِ في كُبرَياتِ الجامعاتِ بإجراءِ أبحاثٍ في السَّعادةِ مِن زَوايا شتّى، فانتَبِهوا إلى آراء وأحكام جَمَعَتْ بينَ الفائدَةِ والمُتعَةِ والطّرافَةِ. ومَعَ أنَّهُم لا يَستَطيعونَ أن يُرشدوكَ إلى السّعادَةِ مِن طَريقٍ مُحدَّدِ المَعالِمِ، واضِحِ المسالِكِ، غَيرَ أنَّهُم يَستَطيعونَ أن يُزَوِّدوكَ بِنصائحَ ومَشورَةٍ، تُعينُكَ على الاهتِداءِ إلى تِلكَ الضّالَةِ المَنشودَةِ مُنذُ قَديمِ الأزَلِ.

فَهلِ السَّعادَةُ في العَمَلِ أو في الرّاحَةِ؟ هَل تكونُ أسعَدَ حالًا، لَو أنَّكَ لَم تَكنْ مُضطرًّا إلى أنْ تَبذُلَ في عَملِكَ الجُهدَ الّذي تَبذُلُهُ؟ الأرجَحُ، أنَّكَ لَن تَكونَ أسعدَ حالًا، فَقد ثَبَتَ مِن الدِّراساتِ الّتي اضْطَلَعَ بِها العالِمُ الاجتِماعيُّ «جاتسون لادنديس» أنَّ النّاسَ أدْنى إلى أنْ يَكونوا أهنَأَ بالًا عِندَما يَكونونَ أشَدَّ انهماكًا في العَمَلِ، وانكبابًا عليهِ. كِما دلّتِ استقصاءاتٌ أُخرى عَلى أنَّ أولئكَ الّذينَ يَتَطلَّعونَ إلى اليومِ الّذي يُتاحُ لَهم فيهِ أنْ يَعتَزِلوا العَملَ، لا يلبَثونَ أن يُحِسّوا بِخَيبَةِ الأمَلِ عِندَما تَتَحقَّقُ لَهم هذهِ الأُمنِيَةُ. ودَلَّت أيضًا على أنَّ مُعظَمَ النّاسِ يُضجِرُهُمُ الفَراغُ، ويُضايِقُهُمُ الإخلادُ إلى الرّاحَةِ، أكثرَ مِمّا يُسعدُهُم. وقَد قامَت الأدِلَّةُ على أنَّ أسعدَ النّاسِ في كلِّ زَمانٍ ومَكانٍ هُم أقلُّهُم فَراغًا.

وهل تَختلِفُ السَّعادةُ باختلافِ الجِنسِ؟ أيُّ الجِنسَينِ أسعدُ: الرِّجالُ أم النِّساءُ ؟ قَد تَبدو النَّتائِجُ الّتي أسفَرَت عَنها دِراساتُ الطَّبيبِ النّفسانِيّ المَعروفِ «دافيد. هـ. فينك» مُفاجِئةً لكَ؛ فقَد دَلَّت على أنَّ النِّساءَ أقدَرُ مِنَ الرِّجالِ عَلى استيعابِ السَّعادَةِ والتَّعاسَةِ كِلتَيهِما. ودَلّتْ بُحوثٌ عَلى أنَّ المرأةَ إذا تَوافَرَ لَها حَظٌّ مُناسِبٌ مِن مُقوِّماتِ حَياتِها كانَتْ أسعَدَ مِنَ الرَّجُلِ بِما لايُقاسُ، وأنَّها إذا أدبَرَت عَنها الدُّنيا تَجَشَّمَتَ مِن التَّعاسَةِ والبُؤسِ والحُزنِ أضعافَ ما يَتَجشَّمُهُ الرَّجُلُ. وقد أيَّدَتْ نتائجَ هذهِ البحوثِ دِراساتٌ أُخرى أثبَتَتْ أنَّ لِلمرأةِ مَشاعِرَ أرَقُّ مِن مَشاعِرِ الرَّجُلِ، وأنَّها أميَلُ إلى الانسِياقِ وراءَ العَواطِفِ.

*) مجلة «سايِنس دايجست»

وَلنَنظُرِ الآنَ إلى عَلاقَةِ الذَّكاءِ بالسَّعادَةِ؛ فَهل صَحيحٌ أنَّ مَنْ كانَ مُستوى ذَكائهِ مُرتَفِعًا يَكونُ أسعَدَ مِن غَيرِهِ؟ الإجابةُ هيَ لا؛ فقَد أسفَرَتِ البُحوثُ على أنَّ العَكسَ هُو الصَّحيحُ، فَالدِّراساتُ الّتي أشرَفَت عَلَيها جامِعَةُ «أوهايو وَسيليان» وكانَ طَلَبَتُها أنفُسُهم هُم مَوضوعُ هذهِ الدِّراساتِ، دَلَّت عَلى أنَّ الطَّلَبَةَ الحائزينَ عَلى دَرجاتِ ذَكاءٍ أعلى مِنَ المُتَوسِّطِ أقلَّ سعادَةً مِن زُملائِهِمُ الحاصِلينَ على دَرَجاتِ ذَكاءٍ مُتَوسِّطَةٍ. وفي تَعليلِ ذلكَ ذَهَبَ الباحِثونَ إلى أنَّ الأذكياءَ أرهَفُ إحساسًا بِما يَكتَنِفُ الحَياةَ مِنَ المُنَغِّصاتِ، وأدَقُّ تَقديرًا في وَزنِ الأمورِ، وَتَدبُّرِ العَواقِبِ. وكَشَفتْ دِراساتٌ أُخرى قامَتْ بِها كُليَّةُ الطِّبِّ بِجامِعَةِ كاليفورنيا عَن أنَّ ذَوي الذَّكاءِ فَوقِ المُتَوسِّطِ يَكونونَ أقلَّ استِعدادًا للتَّكَيُّفِ مَعَ المُضايَقاتِ والخَيباتِ وشَتّى ألوانِ الشَّدائدِ والضّائقاتِ الّتي يَلقَونَها في مُجرياتِ حَياتِهِم اليَوميَّةِ. وَقدِ اتَّضحَ مِن هذهِ الدِّراساتِ أنَّ الأذكياءَ أقلُّ رِضًى وقَناعَةً بِحظوظِهِم في الحَياةِ مِن أولئكَ الّذينَ هُم أدْنى مِنهُم ذَكاءً. ولَيسَ هذا فَحسبُ، بَلْ هُم -إضافَةً إلى ذلكَ- إذا أُصيبوا باضطِراباتٍ عاطفيّة أو بدنيّة كانوا أبطَأَ مِن هؤلاءِ شِفاءً.

هناكَ أمورٌ لا حَصرَ لَها يُمكِنُ أنْ يُبحَثَ في عَلاقَتِها بِالسَّعادَةِ وتَأثيرِها في إحساسِ الإنسانِ بالرّضا، كالجَمالِ، ومُمارَسَةِ الرِّياضَةِ، والتَّفاؤُلِ وغَيرِها. ولكنْ إذا نَظَرنا إلى الأمرِ مِن مَنظورِهِ الواسِعِ، وتَساءَلنا ما خَيرُ وَسيلَةٍ للظَّفَرِ بِالسَّعادَةِ؟ فَإنَّ مُعظَمَ الدِّراساتِ في هذا الشَّأنِ تَقولُ: إنَّهُ لا سَبيلَ إلى الظَّفَرِ بِالسَّعادةِ إذا التَمستَها بِالبَحثِ عَنها، وَإنَّما سَبيلُك إلى نَيلِها هُو أنْ تَجعَلَها تَلحَقُ بِكَ؛ بِأن تُثابِرَ عَلى العَمَلِ في جِدٍّ ودَأْبٍ، وَلا تَدَّخِر وُسعًا في أداءِ واجِبكَ، وأنْ تَعيشَ حَياتَكَ عَلى أحسَنِ ما في مُستَطاعِكَ، وأنْ تَرضى بِما هُو في يَديكَ، ولا تَأسَفَ عَلى ما فاتَكَ، وأنْ تُدرِكَ إدراكًا عَميقًا أنَّكَ لا تَستَطيعُ تَحقيقَ السَّعادَةِ لِغَيرِكَ، ما لَم تَتَلألَأْ إشراقَةُ السَّعادَةِ عَلى وَجهِكَ، وَأنْ تُصغيَ إلى مَشورَةِ ذلكَ الصَّوتِ الهادِئِ الضَّئيلِ الجَميلِ، المُنبَعِثِ مِن أعماقِكَ الّذي يُسمّى الضَّميرَ، أوِ الوِجدانَ، أو الشُّعورَ الباطِنِيَّ، وألّا تَصرِفَ كُلَّ هَمِّكَ إلى الأمورِ المادِيَّةِ، فَتُلهيكَ عَن تَنميَةِ ثَروَتِكَ الرُّوحيَّةِ الّتي هِي أداتُكَ لتَحقيقِ طُمأنينَةِ الفِكرِ، وسُكونِ النَّفسِ، وراحَةِ البالِ.

المعنى السياسي في العيد

مصطفى صادق الرافعي

تمّ ترشيح هذا النص من قبل الطالبة فاطمة عبدالله احمد عبدالله اليماحي
مدرسة الماسة للتعليم الثانوي للبنات في الفجيرة.

ما أشد حاجتنا نحن -المسلمين- إلى أن نفهم أعيادنا فهمًا جديدًا، نتلقاها به ونأخذها من ناحيته، فتجيء أيامًا سعيدة عاملة، تنبه فينا أوصافها القوية، وتجدد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى، أكبر عملها تجديد الثياب، وتحديد الفراغ، وزيادة ابتسامة على النفاق.

فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليوم نفسه، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم؛ وكان العيد في الإسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبح عيد الفكرة العابثة؛ وكانت عبادة الفكرة جمعها الأمة في إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة؛ له مظهر المنفعة وليس له معناها.

ليس العيد إلا إشعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغيير الأيام، لا إشعارها بأن الأيام تتغير؛ وليس العيد للأمة إلا يومًا تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعي، فيكون يوم الشعور الواحد في نفوس الجميع، والكلمة الواحدة في ألسنة الجميع؛ يوم الشعور بالقدرة على تغيير الأيام، لا القدرة على تغيير الثياب.

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتد، حتى يرجع البلد العظيم وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملي، وتظهر فضيلة الإخلاص مستعلنة للجميع، ويُهدي الناس بعضهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة؛ وكأنما العيد هو إطلاق روح الأسرة الواحدة في الأمة كلها.

وليس العيد إلا إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي، مفصولة من الأجانب، لابسة من عمل أيديها، معلنة بعيدها استقلالين في وجودها وصناعتها، ظاهرة بقوتين في إيمانها وطبيعتها، مبتهجة بفرحين في دورها وأسواقها؛ فكأن العيد يوم يفرح الشعب كله بخصائصه.

وليس العيد إلا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة في طريقها، وترك الصغار يلقون درسهم الطبيعي في حماسة الفرح والبهجة، ويعلِّمون كبارهم كيف توضع المعاني في بعض الألفاظ التي فَرَغَتْ عندهم من معانيها، ويُبصّرونهم كيف ينبغي أن تعمل الصفات الإنسانية في الجموع عمل الحليف لحليفه، لا عمل المنابذ لمنابذه؛ فالعيد يوم تسلط العنصر الحي على نفسية الشعب.

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف توجه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت؛ فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتُخرِّج عليها الأمثلة، فتجعل للوطن عيدًا ماليًّا اقتصاديًّا تبتسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدها، وتوجد للعلم عيده، وتبتدع للفن مجالَي زينته.

هذه المعاني السياسية القوية هي التي من أجلها فُرض العيد ميراثًا دهريًّا في الإسلام، ليستخرج أهل كل زمن من معاني زمنهم فيضيفوا إلى المثال أمثلة مما يبدعه نشاط الأمة، ويحققه خيالها، وتقتضيه مصالحها.

الأعمدةُ الصّحفيّةُ

العَمودُ الصّحفيُّ

يعدّ العمود الصّحفيّ من أكثر أشكال الكتابة الصحفية انتشارًا، ومقروئية؛ وذلك لأنه يجمع بين قصر المساحة وواقعية القضايا الّتي يتحدث عنها، وملاصقتها لمشكلات المجتمع، وقضايا الناس.

ولذلك فالعمود الصّحفيّ من أهم المصادر الّتي تمنح القارئ فكرة واسعة عن طبيعة المجتمع، وأهم قضاياه الحيويّة، فهو يشبه المرآة في أنه يعكس ما تمور به الحياة في مجتمع من المجتمعات في فترة زمنية معينة.

ويمكن تعريف العمود الصّحفيّ بأنه نوع خاص من نصوصُ الرّأي، ينشر بانتظام في صحيفة أو مجلة في مكان ثابت، وتحت مسمى ثابت، وبمساحة ثابتة لا تتغير، ويعبّر عن فكر كاتبه، وشخصيته، وتوجهاته، ويكون الهدف منه –في الغالب– توعية القراء، أو مناقشة فكرة أو قضية يراها الكاتب مهمة.

ولعلّ أكثر ما يتميّز به العمود الصّحفيّ أنه ملتصق بكاتبه، يُسَمّى باسمه في الغالب، ولذلك تكتسب الأعمدة الصحفية مكانتها من مكانة كاتبها، وما اشتهر به من فكر نَيِّرٍ، وموضوعية في عرض القضايا ومناقشتها، وامتلاك لناصية اللغة وأسرارها. ولذلك صار من المتعارف عليه في عالم الصحافة والنشر أنّ العمود الصّحفيّ يعبّر عن رأي كاتبه، وليس شرطًا أن يعبّر عن موقف الصحيفة.

ولذلك يعرّف بعضهم العمود الصحفي بأنه «حوار شخصي بين كاتبٍ وَقُرّائه، يعبر الكاتب من خلال هذا الحوار عن اتجاهاته النفسية، ومكنوناته الداخلية، ويبدو واقعيًّا وصريحًا وذاتيًّا، ويروي ذكرياته وخبراته وتجاربه، ويقدم نصائحه» .

وبسبب ارتباط العمود الصّحفيّ بكاتبه، وانتظامه في الظهور في الصحيفة أو المجلة كل يوم أو كل أسبوع فإنّ نوعًا من علاقة المودّة والتقدير تنشأ بين الكاتب وقرائه، خاصة حين يحرص الكاتب على المصداقية في الطرح، والموضوعية في المعالجة، وأن يكون عادلًا وصادقًا، وأمينًا وحريصًا على أن ينقل للقراء خلاصة تجربته أو فكره من دون تحيّز أو ميل.

وأهم سمات العمود الصحفي أنه يعبّر عن فكرة واحدة مركزة، وأنه ينقل للقارئ خلاصة تجربة الكاتب، ومواقف مرّ بها انطلاقًا إلى الفكرة التي يود الكاتب أن يعبر عنها ويقنع القارئ بها. وغالبًا ما يستعين الكاتب فيه بالأقوال والحكم والأمثال والاقتباسات.

ويمكن تقسيم الأعمدة الصفحية إلى نوعين كبيرين، هما:

1. **الأعمدة المتخصصة**: وهي التي يقتصر اهتمامها على مجال واحد فقط، كالمجال السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو الثقافي، أو الرياضي، أو الفني.
2. **الأعمدة العامة**: وهي التي يكتب صاحبها في معظم القضايا، وينوّع في الموضوعات التي يتناولها.

أما من حيث اللغة وأسلوب التناول فإنّ الأعمدة تتنوّع بتنوّع كتّابها، فبعضهم يعتمد الأسلوب الجاد الرصين، وبعضهم يميل إلى الأسلوب الساخر، وبعضهم يميل إلى الافتتاح بالأسئلة، وبعضهم يحبذ البدء باقتباس أو ذكر موقف شخصي. وعلى الرغم من أنّ باب الاختلاف والتنوّع مفتوح على مصراعيه للكتّاب إلا أنّه يفضّل أن تكون لغة الكتابة لغة بسيطة، تعتمد على الجمل القصيرة، وتبتعد عن التعقيد والتقعّر؛ لأنها موجهّة -في الغالب- لكل شرائح المجتمع. ومع ذلك فإنّ التمسك بأصول الكتابة، والحرص على التدقيق والصحة اللغوية يعدّ أمرًا يميّز كاتبا عن كاتب.

إنّ قراءة الأعمدة الصحفية ومتابعتها عن كثب تزيد من وعي القارئ، وتكشف له الكثير مما يحدث في مجتمعه، وتجعله على علم بمجريات الأمور، وتضعه أمام تنويعات من وجهات النظر والأفكار والتجارب.

صَديقي الهاتِف! *

عائشة سلطان

أُنصِتُ إلى مجموعةٍ مِنَ الرِّجالِ يَتحلَّقونَ حوْلَ طاولةٍ بأحَدِ المَطاعِمِ الفاخرةِ بالمدينةِ، يُركِّزُ كُلٌّ واحدٍ منهمْ عينَيهِ في هاتفِهِ النَّقّالِ، يَبتسِمونَ جميعًا للشّاشاتِ وليسَ لبعضِهمْ، يَضحَكُ أحَدُهمْ فيَنظُرُ إليهِ الآخرونَ فجأةً، لا يُعيرُهمُ اهتمامًا، ويواصِلُ ضَحِكًا طويلًا لا أَحَدَ يَعرِفُ سَبَبَهُ، وَحدَهُ الهاتِفُ يَعرِفُ، بينَ وقتٍ وآخرَ يقولُ أَحَدُهمْ لِرفاقِهِ «يا جماعة مَلَل، اتركوا (المُوبايلات) دعونا نتحدَّث»، يَستقبِلُ رِفاقُهُ العبارةَ بِلا تأثُّرٍ ويُكمِلونَ معَ (الموبايلِ)!!

أَستَمِعُ إلى مجموعةٍ مِنَ الفَتياتِ اتّفَقْنَ فيما بينَهنَّ- على ما يَظهرُ- على قضاءِ وقتٍ لطيفٍ بصُحبةِ بعضِهنَّ في أحَدِ محلّاتِ بيْعِ المُثلَّجاتِ، دخَلْنَ بمَرَحٍ، جميلاتٍ، أنيقاتٍ، وتَفوحُ مِنهنَّ رائحةُ الرَّفاهيّةِ، جلَسْنَ في رُكْنٍ قَصيٍّ، سريعًا اندسَّتْ أيديهنَّ في حقائبِهنَّ الباذِخَةِ وأخرَجْنَ الهواتفَ، وبدأَتِ الحكايةُ نفْسُها، في عالَمِ الهاتفِ لكُلِّ واحدةٍ منهُنَّ حكايتُها، رفاقُها، صديقاتُها، (جروبّاتُها)، وعَوالِمُها الافتراضيّةُ الحَميمةُ، تلكَ واحدةٌ مِنْ مُسلَّماتِ واقِعنا، وإذَنْ فلِماذا يتَّفِقُ الأصدقاءُ على اللِّقاءِ لِقضاءِ وقتٍ لطيفٍ بصُحبةِ بعضِهمْ طالَما هناكَ صديقٌ أهَمُّ يَستحوِذُ على الوقتِ كُلِّهِ؟

حِكايةُ العَلاقةِ الغريبَةِ الّتي أصبحَتْ تَربِطُ مُعظمَنا بهاتِفِهِ ليسَتْ مُجرَّدَ حكايةٍ عابرةٍ، ليسَتْ بسيطةً أو تافهَةً كما نعتقِدُ. إنَّها حكايةٌ جادَّةٌ وقدْ تَصِلُ إلى اعتبارِ الهاتفِ صديقًا حَقيقيًّا بديلًا، صديقًا مُتفهِّمًا وحَميمًا ومُريحًا، لا تَضحَكوا! فحينَ سألْتُ مَجموعةً مِنَ الطُّلّابِ والطّالباتِ في دورةٍ تَدريبيّةٍ عَنِ الشَّخصِ أوِ الشَّيءِ الّذي لا يُمكِنُهمُ الحياةُ دونَهُ أوِ الاستغناءُ عنهُ، كنْتُ أتمنّى أنْ يكونَ الجوابُ: عائلتي، أصدقائي، أُمّي، جيراني،... لكنَّني كما توقَّعْتُ كانَ الجوابُ هوُ: (الموبايل)!! لكنْ لماذا (الموبايل)؟ قالَ أَحَدُهمْ: لأنَّه يَفهمُني أكثرَ مِنْ أيِّ شخصٍ آخرَ، يُعطيني كُلَّ ما أريدُ وبسهولةٍ، لا

*) صحيفةُ البيانِ، 02 فبراير 2016

يُلزِمُني بأيِّ شيءٍ، إنَّهُ صديقٌ مُريحٌ ومُفيدٌ وغيرُ مُتطلِّبٍ، الصَّديقُ مُتطلِّبٌ والعائلةُ مسؤوليّةٌ، والجيرانُ عِبْءٌ!! بينَما (الموبايل) لا يَجعلُني أحتاجُ لأيِّ شيءٍ عندَما يكونُ معي!

تساءَلْتُ بعْدَ أنْ تركْتُهمْ: هلْ لذلكَ عَلاقةٌ بالعُمُرِ، فهؤلاءِ - أيًّا تكُنْ أعمارُهمْ- صغارٌ بِلا تَجرِبةٍ ومَزهوّونَ بِالحياةِ وبطريقةِ نَظْرَتِهمْ لَها؟ أمْ أنَّ السَّببَ يعودُ إلى انعدامِ الحِوارِ واللُّغةِ المُشترَكةِ والحَميمةِ بينَ المُراهِقينَ وأُسَرِهمْ، وبينَ الطُّلابِ ومُعلِّميهمْ، وبينَ البناتِ وأُمَّهاتهنَّ وبينَ مُعظَمِ النّاسِ في المُجتمَعِ بعضِهمْ بعضًا؟ إنّ الرُّكونَ إلى الصَّمتِ بصُحبةِ الهاتفِ يقودُنا إلى عَلاقاتٍ غيرِ مُحايِدةٍ ومَنقوصةٍ أوّلًا، وإلى أشخاصٍ متوحِّدينَ يُمكنُ الإيقاعُ بِهِمْ ثانيًا!! القضيَّةُ هنا ليسَتْ في مُواكَبةِ ثورةِ التِّقنيَّةِ، ولكنَّها في تَحوُّلِ مفاهيمَ عَميقةٍ في العَلاقاتِ الاجتماعيّةِ!!

الشّبابُ سُفَراءُ الإماراتِ *

ميساء غدير

جميعُنا نَعلَمُ أنَّ النِّسبةَ الأكبَرَ مِن سُكانِ دولةِ الإماراتِ هم مِنَ الشّبابِ، وهؤلاءِ الشَّبابُ هم قادَةُ المُستقبَلِ الّذينَ يُعوَّلُ عليهِم في التَّنميَةِ والتَّطويرِ، وهوَ ما يَستدعي احتواءَهُم وتوجيهَهُم والاستِثمارَ الأمثَل فيهِم، ليَكونوا قادِرينَ على تَحمُّلِ المسؤوليَّةِ تِجاهَ أنفُسِهِم وَمُجتمَعِهِم وَوَطَنِهِم.

مُنذُ يومَينِ استَقبَلَ الفريقُ أوّلُ صاحبُ السُموِّ الشَّيخُ مُحمَّدُ بنُ زايدٍ آلِ نهيانَ، مجموعَةً مِنَ الشَّبابِ والشّابّاتِ الإماراتيّينَ الّذينَ أنهَوا زيارَةً قاموا بِها إلى الصّينِ وكوريا الجَنوبيَّةِ ضِمنَ بَرنامَجِ «سُفراءُ شبابِ الإماراتِ» الّذي يُنظَّمُ برعايَةِ ديوانِ وليِّ عهدِ أبوظبي، وَيهدِفُ إلى تَطويرِ الإمكاناتِ والمَهاراتِ العلميّةِ والثّقافيّةِ والقياديَّةِ للطَّلَبَةِ الجامعيّينَ.

عرَضَ الشَّبابُ خِلالَ هذا الاستقبالِ الأنشِطَةَ والبَرامِجَ والأعمالَ الّتي قاموا بِها خلالَ الزّيارَتينِ، وأهَمَّ المَعالِمِ والجِهاتِ الّتي زاروها، والمَشاريعَ الّتي تَمَّ تنفيذُها في أثناءِ رحلتِهِمُ العِلميّةِ والنّتائِجَ الّتي خَرجوا بِها، وناقَشَهُم سُمُوُّهُ في كلِّ ما قدّموهُ، وَأكّدَ لَهم أنَّ بَرنامَجَ «سفراءُ شبابِ الإماراتِ» الّذي انطلقَ بتَوجيهاتِ صاحبِ السُّمُوِّ الشَّيخِ خليفةَ بنِ زايدٍ آلِ نهيانَ رئيسِ الدَّولَةِ، حفِظَهُ اللّهُ، لَمْ يوضَعْ إلّا لِدَعمِهِم وَتَمكينِهِم.

اعتبارُ الطَّلَبَةِ الجامعيّينَ من أبناءِ الإماراتِ سُفراءَ للشّبابِ، مَدعاةً للفَخرِ ولِتحمُّلِ المَسؤوليَّةِ معًا، فالطّالِبُ الجامعيُّ عندما يجدُ أنَّ دولَتَهُ تُصَمِّمُ وتُخَطِّطُ وتُنَظِّمُ لَه بَرامِجَ هادِفةً يُمَثِّلُ فيها وَطَنَهُ في الخارجِ، وَيتواصَلُ مِن خِلالِها معَ شُعوبٍ وثقافاتٍ أُخرى، يُدرِكُ أنَّهُ أولَويَّةٌ، وَيدرِكُ حجمَ المسؤوليّاتِ الكُبرى المُنتَظَرَةِ مِنهُ مُستقبلًا، والّتي تَستَوجِبُ مِنهُ تَطويرَ مَعرِفَتِهِ ومَهاراتِهِ وتَحقيقَ المزيدِ مِنَ الانضباطِ، دونَ الاعتمادِ على البرامِجِ الدِّراسيَّةِ وَحدَها.

---

*) صحيفةُ البيانِ، 11 سبتمبر 2013

حديثُ الفريقِ أوّلِ صاحبِ السُّمُوِّ الشّيخِ محمَّدِ بنِ زايدٍ معَ سُفراءِ الإماراتِ مِنَ الشَّبابِ، لمْ يَترُكْ أثرًا في المُنْضَمّينَ لِهذا البَرنامَجِ فَحَسبْ، بَلْ تَجاوَزَهُم إلى غيرِهِم مِنَ الطُّلّابِ والطّالِباتِ الّذينَ وَجَدوا أَنفُسَهُم يَتَحَمَّلونَ مَسؤوليّاتٍ دِبلوماسيَّةً بِصِفَةٍ غيرِ رَسميّةٍ، لِتَمثيلِ دولةِ الإماراتِ مِنْ خِلالِ ما يُبدونَهُ مِنْ سُلوكاتٍ، وما يَكْتَسِبونَهُ مِن مَعارِفَ لابدَّ مِنَ البِناءِ عَليها لِمُواصَلَةِ مَسيرَةِ الإنجازاتِ والنّجاحاتِ، وَمِن خِلالِ قراءَتِهِم لِلواقِعِ وَمُجرَياتِ الأحداثِ فيهِ.

للشّبابِ أدوارٌ لا يُمكِنُ إغفالُها، وَما التَّغييراتُ الّتي يَشهَدُها العالَمِ العَربيُّ إلّا شاهِدٌ على فِكرِهِم وَإرادَتِهِم، وهُو ما دعا الفَريقُ أوَّلُ صاحبُ السُموِّ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ زايدٍ «سُفراءُ شبابِ الإماراتِ» للتّمَعُّنِ فيهِ، مِن خِلالِ استقراءِ واقعِ المِنْطَقَةِ والمَخاطِرِ فيهِ، والاعتزازِ بالانتِماءِ العَربيِّ والإسلاميِّ، والأهمُّ من ذلِكَ كُلِّهِ الاستفادَةُ مِنَ التَّحدّياتِ في واقِعِنا، دونَ أَنْ نَغفَلَ عَن واجِبِنا جَميعًا في الإبقاءِ على الإماراتِ قُدوَةً حَسَنةً لِلآخرينَ.

نَتمنّى بِالفِعلِ أنْ يكونَ شبابُ الإماراتِ سُفراءَ لوطَنِهِم، وَأن يَبقَوا كَما عَهِدناهُم مُتَحمِّلينَ لِلمسؤوليَّةِ، فالوَطَنُ يُعَوِّلُ عليهِم وَيَنتَظِرُ مِنهُمُ الكَثيرَ، لِأَنَّهُم عِمادُ المُستَقبَلِ، والحاضِرُ يَسعى لِتَمكينِهِم.

يوجِعُني نِصفُ الإنسانِ *

صالِحَة عُبيد

«أيوجِعُكَ البَردُ؟ .. أَنا يوجِعُني نِصفُ الدِّفءِ ونِصفُ المَوقفِ أكثَر» .. أَتَذَكَّرُ دائمًا هذا البَيتَ للشّاعِرِ العِراقيّ (مُظفَّر النَّوّاب) كُلَّما أتى أيُّ حديثٍ على ذِكرِ أنصافِ الأشياءِ .. تَمامًا كَما أَتَذَكَّرُ اللُّبنانيَّ (جُبران خَليل جُبران) يومَ كتَبَ «لا تَجالِس أنصافَ العُشّاقِ، ولا تُصادِق أنصافَ الأصدِقاءِ، لا تَقرأْ لأنصافِ المَوهوبينَ، لا تَعشْ نِصفَ حياةٍ، ولا تَمُت نِصفَ مَوتٍ، لا تَختَرْ نِصفَ حَلٍّ، ولا تَقِفْ في مُنتَصفِ الحقيقَةِ، لا تَحلَمْ نِصفَ حُلمٍ، وَلا تَتَعلَّقْ بِنصفِ أمَلٍ، إذا صَمَتَّ.. فاصمُتْ حَتّى النِّهايَةِ، وإذا تَكلَّمتَ .. فتكلَّمْ حتَّى النِّهايةِ».

وتُلِحُّ عليَّ هذهِ الكَلِماتُ بِشدَّةٍ كُلَّما تَأمَّلتُ حالَ كُلِّ أولئكَ الّذينَ يَتحدَّثونَ عَنِ القِراءَةِ باستِمرارٍ دونَ أن أجِدَ أنَّهم فِعلاً يَخرُجونَ بِما يُعوَّلُ عَليهِ فِكريًّا مِن تِلكَ القِراءاتِ، وأعني بِـ «فِكريًّا» هُنا هُو ذلِكَ التَّغييرُ الواعي الَّذي يُخرِجُ الكِتابَ مِن جُمودِهِ، ليُصبِحَ بَشريًّا مِن لَحمٍ ودَمٍ، ذلكَ البَشريُّ هُو القارِئُ الّذي يَمُرُّ بِما يَقرأ على مَعمَلِ الاستيعابِ والاستِنتاجِ، ومِن ثَمَّ مُحاولَةُ التَّغييرِ الَّتي تَتَعدّى الفَردَ إلى ما حَولَهُ ومَن حَولَهُ، ومِنْ دونِ الشَّرطِ الأوَّلِ لا يَحدُثُ الثّاني.

مَن هُو القارئُ؟ هَل هُو شَخصٌ مُطمَئِنٌّ مُستكينٌ لِأَنَّهُ يَعرِفُ كَثيرًا؟ أم هُو ذلكَ القَلِقُ المَهمومُ جَرّاءَ حِملِ المَعرِفَةِ الثَّقيلِ؟

لا أعلَمُ تَحديدًا إنْ أمكَنَنا حَصرُهُ بِتعريفٍ واحِدٍ بينَ حالتَينِ .. لكنَّني قَد أقولُ إنَّ القارئَ، هُو الّذي يَقرأُ ليُريدَ أن يَفعَلَ شَيئًا، ليقولَ شَيئًا، وليُنتِجَ شَيئًا كامِلًا، وليسَ نِصفًا، وذلك بما يَتوافَقُ مَع ما تَراكَمَ في قَلبِهِ وعَقلِهِ، مِن أسماءٍ وأوراقٍ وأحداثٍ وتَواريخَ وجُغرافيا. وَهُو أيضًا ذلكَ الّذي يَعرِفُ أنَّ المِساحَةَ الرَّماديَّةَ الّتي تُغطّي العالَمَ بِكُلِّيَّتِهِ، هيَ أكبَرُ من عالَمَي الشَّرِّ والخيرِ اللَّذينِ يُصوِّرانِ الحَياةَ حَولَهُ نَحوَ المَوتِ والخَرائِبِ. وإذا لَم تَقُدهُ تِلكَ المَعرِفَةُ إلى نَبذِ المَوتِ والتَّدميرِ والتَّعصُّبِ بِكُلِّ أشكالِهِ الماديَّةِ والمَعنَويَّةِ، فإنَّهُ –على ما أظنُّ– ليسَ أكثرَ مِن نِصفِ قارئٍ، نِصفِ إنسانٍ.

هَل هُناكَ بِدايَةٌ مُعيَّنَةٌ لِتُصبِحَ قارئًا؟ هَل هُناكَ قارئٌ فِطريٌّ وآخرُ لا؟ لِماذا تَجِدُ كَثيرًا مِنَ

الّذين يُطالِبونَ الآخرينَ باعتِبارِهِم قُرّاءً مَشروعينَ اختيارَ قوائمَ ليَبدَؤوا بقراءَتِها؟ وهَل هذهِ القَوائِمُ تُحَفِّزُ فِعلًا؟.. هذهِ الأسئلَةُ وغَيرُها جاءَت الإنجليزيّةُ «فيرجينينا وولف» لِتَبسُطَ عِقدَها لي، في مَقالٍ طَويلٍ حَولَ القراءةِ والكتابَةِ، أقتَطِعُ مِنهُ «النَّصيحَةَ الوَحيدَةَ الّتي يَستَطيعُ أَن يُسديَها شَخصٌ لآخَرَ حَوْلَ القراءةِ هي ألّا يتّبع أيَّ نصيحَةٍ، أن تتَّبِعَ حواسَّكَ، أنْ تَستَخدِمَ عَقلَكَ، وأنْ تَتَوصَّلَ إلى استِنتاجاتِكَ الخاصَّةِ» ..

فالأفكارُ كثيرًا ما تُشبِهُ البَصَماتِ الجينيَّةَ. لِكلِّ شَخصٍ في الوُجودِ قَلَقُهُ وَأسئلَتُهُ وَمَخاوِفُهُ. إنَّها، أيِ الأفكارُ، الّتي تَقودُنا لِلقِراءَةِ لا تُباعُ على الأرفُفِ، ولا تُعرَضُ في واجهاتِ مَحالِّ الأزياءِ، إنَّها تَنبُعُ مِن مَكانٍ ما عَميقٍ بِداخِلِكَ حَيثُ تَبرُزُ المَعرِفَةُ كَعَلامَةِ استِفهامٍ ضَخمَةٍ، أو كشَجَرَةٍ بِلا أوراقٍ تَنتَظِرُ مِنكَ رِيًّا مُستَمِرًّا، واستمرارُكَ بِطَلَبِ النُّصحِ مِنَ الآخرينَ مِرارًا، دونَ أنْ تَسلُكَ طَريقَكَ المُستَقِلَّ نَحوَ مَكتَبَتِكَ الرّوحيَّةِ الأولى، يَعني عَدمَ جدّيَّتِكَ مُنذُ البِدايَةِ، وَعَدَمُ وُجودِ هَمٍّ مَعرِفيٍّ مُلِحٍّ يَجعَلُكَ تَبدَأُ بِالبَحثِ بَعيدًا عَن أيّ نَصيحَةٍ، وَمُتَحرِّرًا من أيّ وِصايَةٍ فِكريَّةٍ قَد يُمارِسُها الآخَرُ تِجاهَكَ، مُحدِّدًا لَكَ ما يُناسِبُكَ وَما لا يُناسِبُكَ في مَرحَلَتِكَ هذهِ.

هَل هُناكَ قارِئٌ استثنائيٌّ؟ .. سُؤالٌ آخَرُ قَدْ يَأتي ليُجيبَ عَنهُ سُؤالٌ أكبرُ مِنهُ .. هَل يَجِبُ أن يَتبَعَ أيُّ شَيءٍ صِفَةَ القِراءةِ وَحدَها؟ .. كالقارِئِ الاستِثنائيِّ والقارِئِ المُتَفرِّدِ والقارِئِ النَّهِمِ وغَيرِها. إنَّها صِفاتٌ تَرتَبِطُ بالآخَرِ ولا تَرتَبِطُ بذاتِ القارِئِ فِعلًا، وهُو ما قَد يُحَوِّلُ شَغَفَ القِراءَةِ الأثيرِ إلى واجِهَةٍ أُخرى مِنَ الأشياءِ الّتي تَحتَمِلُ المَظهَرَةَ، في حينِ أنَّ القِراءَةَ هي فِعلٌ ذاتيٌّ جِدًّا في أوَّلِهِ، تَمامًا كَكونِهِ طَبيعيًّا ومُباشِرًا، لِكي يَكتَمِلَ نِصفُ الإنسانِ التّائِهِ والجاهِلِ والمُرتَبِكِ والخائِفِ.

المَسؤوليَّةُ المُجتمعيَّةُ*

سامي قرقاش

ظَهرَ مُصطلحُ المسؤوليَّةِ المُجتمعيَّةِ أو الاجتِماعيَّةِ للشَّركاتِ مُنذُ عدَّةِ سنواتٍ، وبدأَ بالتَّطوُّرِ تَدريجيًّا إلى أن أصبحَ عِلْمًا قائمًا بذاتِهِ يُدَرَّسُ في الكُلّياتِ والمعاهدِ، وتُقامُ لَه المَعارِضُ والمُؤتَمراتُ والنَّدواتُ ويَكبُرُ شَيئًا فشيئًا معَ الأيّامِ. واطَّلَعنا على الآلافِ من قِصَصِ النَّجاحِ في هذا الفَنِّ سَواءً في المَحافِلِ المُختَلِفَةِ أو مِن خِلالِ الكتبِ والمُؤَلَّفاتِ.

وتُعَرَّفُ المَسؤوليَّةُ المُجتمعيَّةُ على أنَّها ما يُقدِّمُهُ أيُّ كَيانٍ: شركةٍ أو مؤسَّسةٍ حكوميَّةٍ أو خاصَّةٍ، لِلمجتَمَعِ في أيِّ مجالٍ، كدَعمِ رُوّادِ الأعمالِ، أو دَمجِ ذَوي الإعاقَةِ، أو الاستِدامَةِ، أو تَنميَةِ الشَّبابِ، وتَشمَلُ أيضًا تَرشيدَ الطّاقةِ وإعادَةَ تَدويرِ النُّفاياتِ واستِخدامَها، ودَعمَ الأنشِطَةِ الثَّقافيَّةِ والفَنّيَةِ وغَيرِها، وتَحتَ كُلِّ فَرعٍ مِن هذهِ الفُروعِ أبدَعَتِ الشَّركاتُ في تَطويرِ وتَطبيقِ أفكارٍ مُبتكَرَةٍ تَخدِمُ المَسؤوليَّةَ المُجتمعيَّةَ لِتُخرِجَها مِن بدايَتِها المُتَواضِعَةِ إلى آفاقٍ رَحبَةٍ لا مُتَناهيَةٍ.

المَسؤوليَّةُ المُجتَمَعيَّةُ مَجالٌ واسِعٌ وخِصْبٌ ومُنفَتِحٌ عَلى أيَّةِ فِكرَةٍ إبداعيَّةٍ، وسَأُعَرِّجُ هُنا على نَماذجَ ثلاثَةٍ للمسؤوليَّةِ المُجتَمعيَّةِ وَقَفتُ عَليها. النّموذَجُ الأوَّلُ يَخُصُّ إحدى شَركاتِ الأحذيَةِ الّتي التزَمَتْ بالتَّبَرُّعِ بِزوجٍ مِنَ الأحذيَةِ لشخصٍ فقيرٍ لا يَجِدُ ما يَنتَعِلُهُ في إحدى الدُّوَلِ الفَقيرَةِ، وذلكَ عندَ بيعِها أيَّ زوجٍ مِن أحذيَتِها. أمّا النّموذَجُ الثّاني فَيَخُصُّ شَركَةً لِبَيعِ المَلابِسِ، وقَد التَزمَت من جانِبِها بِزراعَةِ عَشرِ شَجراتٍ عندَ بيعِ أيِّ منتَجٍ مِن مُنتَجاتِها حتّى بَلَغَ عَدَدُ الأشجارِ الّتي قامت بزراعَتِها أكثرَ مِن ستّةِ ملايينَ شَجرةٍ (حتّى كتابةِ هذا المقالِ)، وقد قامت بوضعِ حاسِبَةٍ على مَوقِعِها الإلكترونيِّ تُظهِرُ الزّيادَةَ في عَدَدِ الأشجارِ بزيادَةِ المَبيعاتِ. وأمّا النّموذجُ الأخيرُ فَهوَ قيامُ أحَدِ المَصارِفِ العالَميَّةِ بِتَمويلِ تَجهيزِ إحدى قاعاتِ مُتحَفِ ماليزيا للفُنونِ الإسلاميَّةِ، وهذا غَيضٌ مِن فَيضٍ.

والمُتأمِّلُ للمسؤوليَّةِ المُجتَمَعيَّةِ يُلاحِظُ مُلاحَظَتَينِ جَوهَريَّتَينِ، الأولى في مِنطَقَتِنا العَربيَّةِ والثّانيةَ على المُستَوى العالَميِّ، أمّا الأولى: فَهيَ عَدَمُ تَطوُّرِ مَفهومِ المَسؤوليَّةِ المُجتَمَعيَّةِ في مِنطَقَتِنا ليَبلُغَ درجَةَ الكِفايَةِ، كذلكَ عَدَمُ مواكَبَتِهِ لِما هُو عَليهِ الآن في العالَمِ المُتَقدِّمِ، فما

*) بتصرف من لجنة التأليف، جريدة البيان 14 أكتوبر 2015.

زالَ بعضُ رُؤساءِ الشَّركاتِ وخُصوصًا العائليَّةَ مِنها، يَحصِرونَ مَسؤوليَّتَهُمُ المُجتَمعيَّةَ في أداءِ الزَّكاةِ الواجِبَةِ عَلَيهِم فَقَط، ويرجع ذلكَ إلى قِلّةِ الوعي لَديهِم أو درءًا للمسؤوليَّةِ. وبالرّغمِ من عِظَمِ شَأنِ الزَّكاةِ وأهَميَّتِها كَرُكنٍ مِن أركانِ الإسلامِ، ودورِها المُهِمِّ في المُجتَمَعِ، إلّا أنَّ حَصرَ المَسؤوليَّةِ المُجتَمعيَّةِ فيها يُعَدُّ خطأً شديدَ الخُطورَةِ، لِما فيهِ مِن تَحجيمٍ وتَضيقٍ لِمسؤوليَّةِ الشَّركاتِ تِجاهَ المُجتَمعِ.

أمّا المُلاحظةُ الثّانيَةُ فَهيَ ما نراهُ مِن بعضِ الشَّركاتِ العالَميَّةِ، مِنَ استِخدامِها مبدَأَ المَسؤوليَّةِ المُجتَمَعيَّةِ كَفُرشاةٍ لِمَسحِ أخطائها وتَجاوُزاتِها، أو لِذَرِّ الرَّمادِ في العُيونِ، أو أنّها جَعَلَتهُ واجِهَةً جَميلةً لِواقعٍ داخِليٍّ مُتهالِكٍ خَربٍ. هناك مثلًا شركاتٌ تعملُ في مَجالِ النِّفطِ، أدَّت أعمالُها إلى كَوارِثَ بيئيَّةٍ مَعروفةٍ ومُسجَّلَةٍ عالميًّا، وبالمُقابِلِ فَهيَ تَحملُ لواءَ حِمايَةِ البيئَةِ والمُحافَظَةِ عَلَيها مِن خِلالِ تَوفيرِ الطّاقَةِ في مَبانيها على سبيلِ المِثالِ، وهوَ أمرٌ على أهمّيَتِهِ يبقى ضئيلًا جدًّا مقابِلَ ما أحدثَتهُ هذهِ الشّركاتُ من أضرارٍ وما زالتْ.

ورغمَ كلّ ما سبقَ، فأنا لا زِلتُ مُتَفائلًا بأنّ الجيلَ الجديدَ من رُوّادِ الأعمالِ والقياديينَ الشَّبابِ مِن وَرَثَةِ الشَّركاتِ العائليَّةِ قد نشأَ في عصرٍ برَزَ فيهِ مفهومُ المسؤوليَّةِ المُجتمعيَّةِ وأصبَحَ أكثرَ وضوحًا، كما تشرّبَ هذا الجيلُ مبادِئَها بِصورَةٍ أفضَلَ، ومِمّا ساعَدَ على ذلِكَ إطلاقُ جوائزَ محلّيَّةٍ وعالَميَّةٍ تَختَصُّ بتحقيقِ المسؤوليّةِ المجتمعيّةِ، وتُذكي روحَ المُنافَسةِ، وتُسهِمُ في نَشرِ الوَعيِ بالمَسؤوليَّةِ المُجتَمعيَّةِ بِصورَةٍ مُؤسَّسيَّةٍ مُمَنهَجَةٍ. ولَنا في صاحبِ السُّموِّ الشّيخِ مُحمَّدِ بنِ راشدٍ آلِ مَكتوم -حَفظَهُ اللّهُ- قدوَةٌ حسنَةٌ، إذ بدأَ سُموُّهُ مُنذُ سَنواتٍ بإطلاقِ مُبادَراتٍ مُجتَمعيَّةٍ وخَيريَّةٍ بَلَغَ عَدَدُها ثمانٍ وعشرينَ مبادَرَةً تَخدِمُ شَتّى المَجالاتِ في صورةِ مُؤسَّساتٍ لَها مَجالِسُ إدارةٍ وَمديرونَ ومُوظَّفونَ، وتَعمَلُ على تحقيقِ أهدافٍ وغاياتٍ واضِحَةٍ وَفْقَ خِطَطِ عملٍ وبَرامِجَ زَمنيَّةٍ محدّدةٍ.

ونَرى أنّ سُمُوَّهُ لم يكتفِ بِما حقَّقتْهُ هذهِ المؤسّساتُ من إنجازاتٍ، بل حَرَصَ على استِدامَتِها وتَطويرِها مِن خِلالِ إطلاقِ (مبادراتُ محمّدِ بنِ راشدٍ آلِ مكتومٍ) تحتَ مجلس إدارَةٍ برئاسةِ سُموِّهِ وَعُضويَّةِ أنجالِهِ الكرامِ؛ لتكونَ أوَّلَ مؤسَّسةٍ إنسانيَّةٍ مجتَمعيَّةٍ قابِضَةٍ تَنضَوي تَحتَها مجموعةُ مؤسَّساتٍ مُتَخصِّصَةٍ، لا تَخدِمُ إمارَةَ دُبيّ أو دولَةَ الإماراتِ فقط؛ بل يَفيضُ خَيرُها وجُهودُها على شَتّى بقاعِ الأرضِ دونَ النَّظرِ إلى دينٍ أو لونٍ أو عرقٍ أو جِنسٍ أو حدودٍ

جُغرافيَّـةٍ، وإنّمـا تُركِّـزُ علـى الإنسـانِ كإنسـانٍ، مُقَدِّمًـا سـموُّهُ فـي ذلـكَ أروَعَ مِثـالٍ عَملـيٍّ علـى أنَّ خِدمَـةَ وتَنميَـةَ المُجتمعـاتِ وأبنائِهـا ليـسَ أمـرًا عارِضًـا أو عَشـوائيًّا، إنّمـا هـوَ هَـدفٌ سـامٍ يَتِـمُّ تَحقيقُـهُ مِـن خـلالِ عَمـلٍ مُؤسَّسـيٍّ طَمـوحٍ وَدَؤوبٍ ومُسـتدامٍ. ورَجاؤنـا أنْ يكـونَ (النّـاسُ علـى ديـنِ مُلوكِهِـم) فـي تحمُّلِهِـم مسـؤوليّتَهُمُ المُجتَمعيَّـةَ.

قـلْ (لا) واستَمتِع

شَهد العبدولي

مـن أصعـبِ الكلمـاتِ الّتـي قـد تُواجِهُنـا فـي حياتِنـا معَ أنَّهـا لا تَتكـوَّنُ سِـوى مِـن حَرفَيـنِ، كَلمَـةٌ نَقولُهـا بأعلـى صَـوتٍ غيـرِ مَسـموعٍ فـي دواخِلنـا، ولكنَّنـا نخـافُ مِـن قَولِهـا عَلانِيَـةً، لِمـاذا الخَـوفُ مـن قـولِ كَلِمَـةِ (لا) والانجـرافُ وراءَ عَواطِفِنـا لِمجامَلَـةِ الآخريـن، رافضيـنَ مـن الدّاخـلِ، ولسـانُ حالِنـا يَقـولُ نَعـم؟

لنتَعَلَّـمَ معًـا كيـفَ نَقـولُ (لا) ولكـنْ دونَ خسـارَةٍ مـن نحـبَّ، فلنَسـتَمتِع ونَحـنُ نُحقِّـقُ رغَباتِنـا لَا رغَبـاتِ غيرِنـا، فكثـرةُ (نعـم) تُضيـفُ إلـى عاتِقـكِ حِمـلًا كَبيـرًا أنـتَ فـي غِنًـى عنـهُ. عِندمـا تَقـومُ بربـطِ نَفسِـك بِشـيءٍ مُعيَّـنٍ نظيـرَ المجاملـة وحفاظًـا علـى العلاقـاتِ وكَسـبِها، فأنـتَ بِذلـكَ تفتَـحُ علـى نَفسَـك أبـوابَ جهنَّـمَ، وقَـد تَكـونُ (نَعـم) الَّتـي قلتَهـا قَـد حلَّـت مَـكانَ أمـرٍ مُهِـمٍّ وضَـرورِيٍّ فَتُؤَجِّلَـهُ إلـى أجَـلٍ غيـرِ مُسـمًّى، فـي حيـنِ تَنفيـذِكَ لِتلـكَ الـ (نعـم) قـدْ لا يُسـمِنُ ولا يُغنـي مـن جـوعٍ.

الشّـجاعةُ فـي قـولِ كَلمـةِ (لا) تفتـحُ لـكَ آفاقًـا كثيـرَةً وتَشـقُّ لَـكَ طَريقَـكَ الخـاصَّ بَعيـدًا عـنِ التّكـرارِ والرّوتيـنِ وبعيـدًا عـن تَسييرِكَ فـي هـذهِ الحَيـاةِ. عَلَينـا أنْ نتعلَّـمَ فنـونَ قـولِ كلمـةِ (لا) وأنْ نُكَرِّسَـها فـي حَياتِنـا بالصّـورةِ الإيجابيَّـةِ والبَنّـاءَةِ. دَعونـا فـي بِدايَـةِ الأمـرِ نُوضِّـحُ أساسِـيّاتِ قَـولِ هـذهِ الكلمَـةِ فـي هـذهِ النِّقـاطِ الخَمسِ:

1- دَوّن قَولَـكَ لِكَلِمَـةِ (نَعـم) خِـلالَ أسـبوعٍ وإذا كُنـتَ مِـن مُدمِنيهـا سـتتفاجَأُ مِـن كَثرَتِهـا، إذَن عَلَيـكَ بِتَغييرِهـا حـالًا.

2- اهتَـمَّ بالطرائـق والأسـالِيبِ الّتـي تُـوزِّعُ فيهـا طاقَتَـكَ، فَـلا تُعْـطِ جُـلَّ جُهـدِكَ لـ (نعـم) أنـتَ غَيرُ راضٍ عَنهـا، فقولُـكَ لِكمـةِ (لا) لَـن تَجعَلَـكَ تَخسَـرُ أهلَـكَ وأصدِقـاءَكَ ومَـن يُحبّونَكَ.

3- رتِّـب أولويّاتِكَ وابدَأ دائِمًا بِالأهَمِّ، ثُمَّ المُهِمِّ، فالأقَلِّ أهميَّةً ؛لِتُحقِّقَ الإنجازَ المطلوبَ.

4- اعـرِفْ حـدودَكَ جيّـدًا وابـدَأ فـي وَضعِهـا وتَحديدِهـا مِـنَ الآنِ لِتَتَجنَّـبَ الإحـراجَ فـي قَـولِ (نَعـم).

5- أَعـطِ الآخريـنَ بَعـضَ الصَّلاحيّـاتِ فـي إبـداءِ الـرَّأيِ وَلَيـسَ اتِّخـاذِ القَـرارِ، فالـرَّأيُ الأوَّلُ والأخيـرُ يعـودُ لَـكَ أنـتَ لا لِغيـرِكَ.

واحـذَرْ مـن أن تُغَلِّـفَ كَلِمـةَ (لا) بِكِذبَـةٍ عابـرَةٍ أو تُبَطِّنَهـا بأعـذارٍ لا وجـودَ لهـا، فذلِـكَ لِوَحـدِهِ سَيُشـعِرُكَ بِالذَنـبِ وتَأنيـبِ الضَّميـرِ، وهـذهِ الأحاسيسُ هـي الّتي نُحـاوِلَ جاهِدَيـنَ الابتعـادَ عَنهـا.

أعـطِ لنَفسِـكَ فُرصَـةً لِتغييـرِ حَيثيّـاتِ الأمـورِ والنَّظـرِ إليهـا مِـن كافَّـةً الجَوانِـبِ، فَلعَـلَّ «لا» هـذِهِ هِـي مِفتـاحُ سَـعَادَتِكَ. فَقبولُـكَ بِكلِّ الأمـورِ ليـسَ شَـطارَةً، ولكنَّهـا قَـد تَكـونُ فـي أغلَـبِ الأحيـانِ لعنَـةً توقِعُـكَ فـي كَثيـرٍ مِـنَ الأزمـاتِ.

النّصوصُ المعلوماتيّةُ

النّصوصُ المعلوماتيّةُ

تُعَدُّ معرفة نوع النص المقروء من أهم الإستراتيجيات الّتي تساعد القارئ على فهم النصوص، والتنبّه إلى النقاط الجوهرية فيها، والتعمق في أفكارها ومضامينها؛ فقراءة قصيدة من الشِّعر تختلف عن قراءة قصة، وهذه تختلف عن قراءة نص معلوماتي، فلكل نوع من النصوص الطريقة الّتي تناسبه، وتناسب الغايات الّتي من أجلها كُتِبَ، وبسببها يقرؤها القراء.

ويعد النص المعلوماتي من أكثر النصوص انتشارًا وتنوّعًا في عصرنا الحاضر، ومعظم الناس يعتمدون عليه في حياتهم اليومية في أبسط الأمور وأكثرها تعقيدًا؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر، كلنا نحتاج أن نعرف حالة الطقس، أو مواعيد الصلاة، أو مواعيد الرحلات في المطارات للمسافرين، أو موقع مؤسسة ما نود أن نزورها، فمثل هذه الجداول والخرائط تسمى نصوصًا معلوماتية، فما النص المعلوماتي؟ وما الفرق بينه وبين سائر النصوص؟

النص المعلوماتي: هو أي نصٍّ هدفه أن يُقدّم معلومات للقارئ بطريقة مباشرة وواضحة، تتصف بالدقة، وتعتمد على الأدلة العلمية والحقائق. ولأن هدف النص المعلوماتي هو تقديم المعلومات فإنك ستجده في مجالات العلوم والفنون كلّها، كالفيزياء، والكيمياء، والطب، والرياضة، والصحة، والبيئة، والجغرافيا، والتاريخ، واللغة، والرسم، وتطوير الذات، وغيرها.

وهذا لا يعني أنّ النص المعلوماتي هو النوع الوحيد الذي يقدم معلومات للقارئ، ولكنّ النص المعلوماتي ليس له أي هدف إلا تقديم المعلومات، بخلاف النصوص الأخرى. ولكي تتضح الفروق بين النص المعلوماتي وغيره من النصوص يحسن أن نتحدث عن التصنيف العام للنصوص، حيث تنقسم إلى نصوص خياليّة (Fiction) ونصوص غير خياليّة (Non-Fiction)

1. **النص الخيالي:**

هذا المصطلح هو ترجمة لكلمة (Fiction)، وهي مشتقة من كلمة لاتينية تعني «يُشَكَّل» أو «يُصَنَّع» ويشير إلى تأليف أدبي متخيّل ومبتدَع. وهو مصطلح يعبّر عن الفن القصصي بأشكاله المختلفة: الرواية، والرواية القصيرة، والقصة القصيرة، مع أنّ هناك من يرى أنّ

مصطلح (Fictional) يشمل كل ما هو أدبي، أو كل الأجناس الأدبية مثل الشعر والدراما وألوان السرد إلى جانب الرواية والقصة.

فهذا العمل هو من خيال الكاتب، حتى لو اعتمد على وقائع من الحياة، أو من التاريخ. وهدفه في الغالب الإمتاع والمشاركة.

2. **النص غير الخيالي:**

هو ترجمة لمصطلح (Non-Fiction) بالإنجليزية، بمعنى أنه خال من الخيال، ويشير إلى كل النصوص التي تعتمد على الحقائق والوقائع والأدلة. وليس للخيال دور فيها، وهدفها في الغالب تقديم معلومات للقارئ حول موضوع ما. وتحت النصوص غير الخياليّة تندرج النصوص المعلوماتية بأشكالها كافّة، كما تندرج أيضًا نصوص السِيّر، الذاتيّة والغيرية، والكتابات الفلسفية والتاريخية والجغرافية، وغيرها كثير.

ويمكن توضيح هذا التقسيم في الشكل التالي:

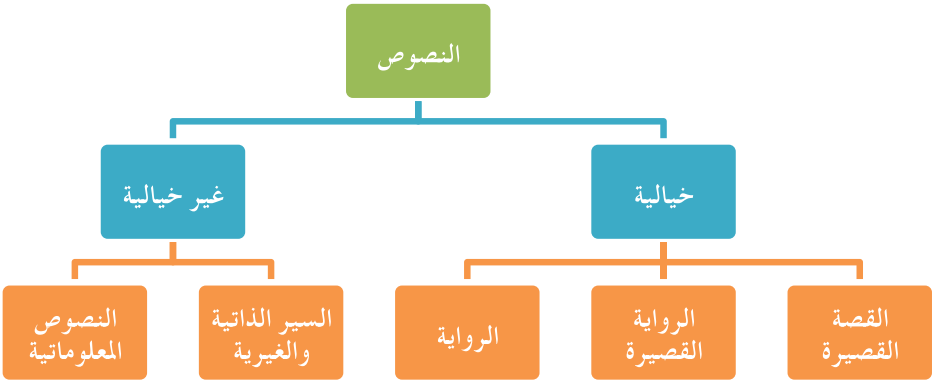

ولكي نوضح الفرق بين النص المعلوماتي والنصوص الأخرى التي تندرج تحت مسمى «نص غير خيالي» يمكن أن نعقد هذه المقارنة البسيطة بين النص المعلوماتي ونصوص السّيرة الأدبية مثلًا، فعلى الرغم من أنّ كليهما يندرجان تحت قسم النصوص غير الخياليّة إلا أن معظم نصوص السّيرة الأدبية تبنى بناء يشبه بناء القصة والرواية، فتعتمد على الشخصيات، ووجود إطار زماني ومكاني، وأحداث، وتشويق وغيرها. وتكتب بأسلوب سردي في الغالب يشبه أسلوب كتابة القصص. أما النصوص المعلوماتية فتقتصر فقط على تقديم المعلومات؛ فلو أننا أردنا أن نكتب نصًّا معلوماتيًّا عن الشيخ زايد بن سلطان -رحمه اللّه، فإننا سنقتصر على ذكر

الحقائق فقط، تاريخ ومكان ميلاده، فترة حكمه، أخلاقه، إنجازاته، سنة وفاته، وهكذا. ولكن إذا أردنا أن نكتب عنه سيرة أدبية فإننا سنعنى بتقديم صورة دقيقة عن شخصيته، واهتماماته، وأفكاره، وكيف كان يرى العالم، وبعض المواقف المؤثرة في حياته، وبعض الحكايات التي تعكس حكمته، وقربه من شعبه، وحرصه على توحيد الكلمة.. وهكذا.

إنّ النص المعلوماتي غير معني من قريب أو بعيد بالتأثير في القارئ تأثيرًا عاطفيًّا، بل هو يصب كل تركيزه على المعلومة، والتحقق من صحتها، والحرص على أن تصل إلى القارئ من مصادر موثوقة، وأن تقدم له في شكل واضح وبسيط، يساعده على تمثّلها وتنظيمها وتذكرها.

وأكثر ما تجد النصوص المعلوماتية في المعاجم، والموسوعات، والأطالس، وكتب التعليم، والكتب المدرسية على اختلافها، والخرائط، والمقالات العلمية الّتي تنشر في المجلات، كما نرى في مجلة (ناشيونال جيوغرافيك) على سبيل المثال.

وأهم ما يميّز النصوص المعلوماتية اعتمادها على الحقائق والأرقام، ونتائج الدراسات العلمية، ولذلك يعتمد تقييم النص المعلوماتي على الصحة والدقة في نقل المعلومات، والتوثيق العلمي الّذي يحيل إلى المصادر، وعلى الجِدّة والتحديث، فلا ينقل النص نتائج دراسات قديمة، ويترك الحديثة منها.

ولكتابة النصوص المعلوماتية أصول وطرق معتمدة، فلا يجوز للكاتب أن يتصدى لكتابة نص معلوماتي من دون أن يلتزم بهذه الأصول التزامًا تامًّا. وقد تطوّرت طرق كتابة النصوص المعلوماتية في العصر الحديث، وصار المؤلفون يعتمدون على وسائل كثيرة تساعد القارئ على فهم المعلومات، وتنظيمها، وحفظها، وتذكرها، كالجداول، والقوائم، والأشكال والرسومات التوضيحية، والصور.

إنّ قراءة النصوص المعلوماتية تتطلب من القارئ الانتباه، والتدقيق، وإعادة تنظيم المعلومات بما يناسب أغراضه الخاصة، وهي من أكثر المهارات أهمية للطلاب، خاصة في المرحلة الجامعية.

لغاتُ العالَمِ مرايا النّاسِ *

تُؤثِّرُ الضّغوطُ العالميَّةُ للاندِماجِ والاستيعابِ تَأثيرًا حاسِمًا على اللُّغاتِ الّتي يوجَدُ مِنها في العالَمِ الآنَ مِن خَمسَةِ آلافٍ إلى عِشرينَ أَلفَ لُغَةٍ، تُعبِّرُ كُلٌّ مِنها عَن نَظرَةٍ فَريدَةٍ مِن نَوعِها لِلعالَمِ وَنَمَطٍ مِن أَنماطِ التَّفكيرِ والثَّقافَةِ؛ فكثيرٌ مِن اللّغاتِ الآنَ مُعرَّضٌ لِخَطرِ الانقِراضِ في المُستقبَلِ المَنظورِ.

يُعَدُّ تَناقُصُ عدَدِ الأطفالِ الّذينَ يَتكَلَّمونَ بِلُغَةٍ ما أوَّلَ مُؤشِّرٍ عِلميٍّ على أنَّ هذِهِ اللُّغَةَ تَسيرُ سَيرًا حَثيثًا نَحوَ الانقِراضِ أو التَّهميشِ، أمّا المُؤشِّرُ الثّاني فَهُو ما يُمكِنُ أنْ نُسمّيَهُ (بالهِجرةِ الصّامِتَةِ داخِلَ المُجتَمعاتِ اللُّغَويَّةِ) وَنَعني بِها اتِّخاذَ اللُّغاتِ العالميَّةِ الّتي حقَّقتْ لِنَفسِها وُجودًا شاسِعًا في العالَمِ بِسبَبِ تَفوُّقِ أَهلِها عِلميًّا واقتِصاديًّا، بَديلًا عن اللّغَةِ الأمِّ في لُغَةِ التَّعامُلِ اليَوميِّ، وَلُغَةِ التَّعليمِ، وَغَيرِها مِن سياقاتِ التَّواصُلِ الحَيويَّةِ في حَياةِ المُجتَمَعِ.

وَهذا الوَضعُ يُمثِّلُ استِنزافًا لِلمَوارِدِ على نَفسِ القَدْرِ مِنَ انقراضِ فصيلةٍ مِن فَصائلِ الحَيَوانِ أو النَّباتِ؛ فكلُّ لُغةٍ يُنطَقُ بِها في العالَمِ تُعبِّرُ عَن طَريقَةٍ فَريدَةٍ لِلنّظَرِ إلى التَّجرِبَةِ الإنسانيَّةِ وإلى العالَمِ نَفسِهِ؛ فَفي اللُّغةِ اليابانيَّةِ مَثَلًا هناكَ فِعلٌ حَركيٌّ يُعبِّرُ عَن كُلِّ خَلْجَةٍ لِلعَضلاتِ، وكُلِّ حدَثٍ في الطَّبيعَةِ، وكلِّ فِعلٍ إنسانيٍّ، وفي العَربيَّةِ مَثلًا هُناكَ ما يزيدُ على خَمسينَ اسمًا لِلمَطَرِ، ونَجِدُ في بَعضِ اللُّغاتِ اسمَينِ مُختَلِفَينِ لِلأزرَقِ الفاتِحِ والأزرَقِ الغامِقِ، وَبعضُ اللُّغاتِ لَيسَ فيها كلماتٌ مِثلُ: أمامَ وخَلفَ، ويعبّرونَ عَن مِثلِ هذا المَفهومِ بِكلماتٍ مِثلِ شَرقٍ وَغربٍ وَشَمالٍ وَجَنوبٍ فَقط. إنّ هذا التَّنوُّعَ في اللُّغاتِ، هُو تنوُّعٌ في الثّقافاتِ وطرائِقِ التَّفكيرِ، إنَّهُ يُمِدُّ التّجرِبَةَ الإنسانيَّةَ بالغِنى والتَّنوُّعِ. ولِذا يُشبِه مَوتُ لغةٍ منَ اللُّغاتِ أو تهميشُها اختفاءَ لونٍ منَ الألوانِ الّتي تُضفي الجَمالَ على الكونِ والحياةِ. ولكنَّ كثيرًا مِن اللّغاتِ اختَفى عَلى مَرِّ التّاريخِ البَشَريِّ، وَلا يُمكِنُ المُحافَظَةُ على أيَّةِ لُغَةٍ بِمَرسومٍ حُكوميٍّ أو بِالاهتِماماتِ الفُلكُلوريّةِ، وإنَّما يتحقَّقُ ذلكَ فقط بِقرارِ واختيارِ المتكلِّمينَ بِها.

واللُّغاتُ كلُّها مُتساويَةٌ مِن حَيثُ إنَّها أدَواتٌ للاتِّصالِ، كما أنَّ لِكُلِّ لُغَةٍ الإمكانيَّةُ لِتكونَ لُغَةً عالَميَّةً، ويتوقَّفُ تَحقيقُ هذا الأمرِ على الفُرَصِ الّتي تُتاحُ لَها. وقَد سادَ اعتِقادٌ في الماضي

* من كتاب التّنوعِ البشريِّ الخلّاقِ، تقريرُ اللّجنةِ العالميّةِ للثّقافةِ والتّنميةِ (الطّبعةُ العربيّةُ) إشرافُ وتقديمُ: جابر عصفور، المجلسُ الأعلى للثّقافة، 1997، مصر (بتصرف وإضافات).

بِـأنَّ اللُّغـاتِ تُشـبِهُ الكائِنـاتِ الحَيَّـةَ؛ فهـيَ تولَـدُ وتَنمـو، وتَضْمَحِـلُّ وتَمـوتُ، ولكـنَّ هـذا التَّصـوُّرَ غيـرُ صَحيـحٍ؛ فاللُّغـاتُ بالكامِـلِ هـيَ أدَواتٌ وَنَواتِـجُ للمُجتَمَعـاتِ الّتـي تَسـتَخدِمُها أو تَتْرُكُهـا، وَمصيـرُ كُلِّ اللُّغـاتِ وَقفٌ على البيئَةِ الاجتِماعيَّةِ والسّياسيَّةِ الّتي تَعيـشُ فيهـا، وعَلى علامـاتِ القُـوَّةِ والسّـيادَةِ الّتـي يَتَمتَّـعُ بهـا المُجتَمَـعُ الّـذي يَتكَلَّـمُ بهـا.

إنَّ أهَـمَّ سِـمَةٍ ثَقافيَّـةٍ لأيِّ مُجتَمـعٍ هـيَ لُغَتُـهُ المنطوقَـةُ والمَكتوبَـةُ، ولِذلِـكَ يُعـدُّ التَّنـوُّعُ اللُّغَـويُّ مَصـدَرًا ثَمينًـا مِـن مَصـادِرِ البَشـريَّةِ. واختِفـاءُ أيّـةِ لُغَـةٍ يُعَـدُّ إفقـارًا لِمَخـزونِ الإنسـانيَّةِ مِـن المَعرِفَـةِ وَأدواتِ الاتِّصـالِ داخِـلَ الثَّقافـاتِ وبينَهـا؛ فَمَثـلًا نَجِـدُ الكَثيـرَ مِـن النَّباتـاتِ الطِّبِّيَّـةِ غيـرَ معروفَـةٍ إلّا عنـدَ الشُّـعوبِ فـي ثقافاتِهـمُ التَّقليديَّـةِ، حيـث يُعطـى كلٌّ منهـا اسـمًا محـدَّدًا فـي لُغـاتِ هـذهِ الشُّـعوبِ، ومَـعَ ضيـاعِ ثقافاتِهـم وَلُغاتِهـم فَـإنَّ المَعرِفـةَ بهـذهِ النَّباتـاتِ وَخَواصِّهـا العِلاجيَّـةِ تَضيـعُ كَذلِـكَ، إلّا إذا تَمكَّـنَ أَحَـدُ اللُّغَويّيـنَ أَوِ الأشـخاصِ المُهتَمّيـنَ مِـن تَسـجيلِ أسـمائِها وَوَصـفِ خَواصِّهـا قَبـلَ ضَيـاعِ اللُّغَـةِ. وَقَـدْ عَـرَفَ السُّـكّانُ الأصليّـونَ فـي جنـوبِ أمريـكا الخَـواصَّ الطِّبِّيَّـةَ لِنبـاتِ الكينـا قَبـلَ اتِّصالِهـم بِالأوربّييـنَ بِوقـتٍ طويـلٍ. وَفـي شَـمالِ أستُراليا عولِجَـتْ أمـراضٌ مِثـلُ قُرحَـةِ الجِلـدِ الحـادَّةِ والّتـي لَـم تَسـتَجِب لِلعقاقيـرِ الطِّبِّيَّـةِ بِخلـطِ بعـضِ سَـوائلَ مُسـتَخلَصَةٍ مِـن نباتـاتٍ أسـماها أفـرادُ جماعـاتِ السُّـكّانِ الأصليّيـنَ، وَقَـد فَتـحَ نَجـاحُ هـذا العِـلاجِ وغيـرِه مِـنَ العِلاجـاتِ التَّقليديَّـةِ المُشـابِهَةِ البـابَ أمـامَ بَحـثٍ واسـعٍ عَـنِ النّباتـاتِ الطِّبِّيَّـةِ بِمسـاعدَةِ السُّـكّانِ الأصليّيـنَ، وَبِفضـلِ الكَلمـاتِ الّتـي يَسـتَعمِلونَها فـي لُغَتِهـمُ الّتـي هـيَ مُعَرَّضَـةٌ للانقِـراضِ.

واللُّغَـةُ المَهـدَّدَةُ عِنـدَ اللُّغَويّيـنَ هـيَ اللُّغَـةُ الّتـي لا يَتَعلّمُهـا الأَطفـالُ فـي المُجتَمَـعِ الّـذي يَتَكَلَّـمُ هـذهِ اللُّغـةَ. وَيَمكِـنُ أنْ تُصبِـحَ اللُّغَـةُ مُهـدَّدَةً لأسـبابٍ أُخـرى أيضًـا، مثـلِ تقسـيمِ الجماعَـةِ اللُّغويَّـةِ الواحـدةِ قسـرًا، أو وضعِهـا فـي مجتَمعـاتٍ تَسـتَخدِمُ لُغَـةً أو لغـاتٍ أُخـرى. ومِـنَ الأسـبابِ القويَّـةِ الّتـي قَـد تُهـدِّدُ وَجـودَ اللُّغَـةِ وَحُضورَهـا فـي حيـاةِ النّـاسِ تَشـجيعُ الآبـاءِ أبناءَهُم على استخدامِ لُغةِ جماعَـةٍ ثَقافيّـةٍ أُخـرى أَقـوى وأكثـرَ حضـورًا، مُفضِّليـنَ إيّاهـا علـى لُغَتِهـم، بَـلْ وقَـد يَتكلَّـمُ الآبـاءُ أَنفسُـهُم مَـعَ الأبنـاءِ بِهـذهِ اللُّغَـةِ المُفضَّلَـةِ، وَسُـرعانَ مـا يَتَخلّـى الجيـلُ الشّـابُ عَـن لُغَتِـهِ نَتيجَـةً لذلِـك؛ فَتَصيـرُ لُغـةُ الآخـرِ هـي الأسـهَلُ والأقـربُ، وتصيـرُ لُغتُهـم هـيَ الأصعـبُ والأبعـدُ. وليـسَ للأمـرِ علاقـةٌ باللُّغـةِ ولا بِخصائِصِهـا، وإنَّمـا الأمـرُ مرتَبِـطٌ بِتَفـوُّقِ الأُمَـمِ، وتمكُّـنِ المُجتَمَعـاتِ، وتَحقيقِهـا السَّـبقَ والتَّقـدُّمَ العِلمـيَّ والسَّـيطَرَةَ الاقتِصاديَّـةَ والثَّقافيَّـةَ.

لقد بَدأتِ الكثيرُ مِنَ المجتمعاتِ اللُّغويَّةِ اتِّخاذَ خُطُواتٍ، واعتمادَ إستراتيجيّاتٍ للحِفاظِ على لُغَتِهم، وَمواجَهَةِ ضُغوطِ اللُّغاتِ الأُخرى الأَقوى والأَكثرِ انتشارًا. ويُعَدُّ استِخدامُ اللُّغَةِ الأمِّ أَحدَ أَهمِّ هذهِ الخُطواتِ وأكثَرِها فاعِليَّةً؛ بل إنَّ بعضَ المُجتَمَعاتِ صارت تَستَخدِمُ صِفَةَ صُعوبَةِ لُغَتِها وتَعقيدِها لِرَفعِ الكِبرياءِ القوميِّ واحتِرامِ الذّاتِ كما لوحِظَ مَعَ لغاتِ الباسك الفِنلنديَّةِ والتُّركيَّةِ وَلُغاتِ القَوقازِ. وَيُمكِنُ لِسياسَةٍ لُغويَّةٍ مُستَنيرَةٍ إبطاءَ اختِفاءِ اللُّغَةِ أو إيقافَهُ تَمامًا، ولا بدَّ في هذهِ الحالَةِ مِنَ التَّأكيدِ على الجانِبِ العِلميِّ، وَتوسيعِ مفهومِ الحِفاظِ على اللُّغةِ ليَشمَلَ التّركيزَ على المَعاجِمِ والنُّصوصِ القديمَةِ، واستِحضارِها، وَتَعلُّمِها وَحِفظِها. كما يَشمَلُ تَربيَةَ النَّشءِ على الاعتِزازِ بِها وعَدمِ الشُّعورِ بِالنّقصِ تِجاهَ الآخرِ صاحِبِ اللُّغَةِ الأقوى، بَلْ مُعامَلَتِه معاملةَ النَّظيرِ المُساوي، لا المُتَفوِّقِ المُتَسَيِّدِ.

إنَّ اللُّغةَ هيَ المُكَوِّنُ الجَوهَريُّ في الثَقافَةِ، وَقدْ وَصَفَ الفَيلسوفُ الفَرنسيُّ (جان بول سارتر) اللُّغاتِ بأنَّها الأُذُنُ الّتي نَسمَعُ بها والعَينُ الّتي نَرى بِها.

حُضنُ الطَّبيعةِ*

عندما تكونُ مُنطلِقًا بالسّيارةِ في رُبوعِ الصَّحراءِ، فإنَّ (ديفيد ستراير) هوَ مِثالُ الرَّجُلِ الّذي ستَرغَبُ في أنْ يَتوَلّى قيادةَ السّيارةِ؛ ذلكَ أنَّهُ يَتحاشى تمامًا إجراءَ مُكالمةٍ هاتفيّةٍ، أوْ كتابةَ رسائلَ قصيرةٍ على هاتفِهِ النَّقّالِ، أوْ تناوُلَ الطَّعامِ. وعالِمُ النَّفْسِ هذا مُتخصِّصٌ في عِلْمِ الانتباهِ، وهوَ يَعلمُ أنَّنا عندما نُنجِزُ عدَّةَ مَهامٍّ في آنٍ واحدٍ فإنَّ أدْمِغَتَنا تميلُ إلى ارتكابِ الأخطاءِ؛ لأنَّها تكونُ في حالةٍ مِنْ مُقاوَمةِ التَّشتُّتِ، وقدْ أظهرَتْ دِراستُهُ أنَّ استعمالَ الهاتفِ النَّقّالِ يوهِنُ أداءَ جُلِّ السّائقينَ بقَدْرِ ما يفعلُهُ تناوُلُ المشروباتِ الكحوليّةِ.

يقولُ (ستراير): إنَّ أدْمِغَتَنا ليسَتْ آلاتٍ حاسِبةً لا تَعرِفُ الكَلَلَ، بلْ إنَّها مُعرَّضةٌ للإصابةِ بالإعياءِ بسهولةٍ، لكنَّنا عندَما نَتمهَّلُ، ونتهي عمّا يَشغَلُنا، ونغمُرُ أنفُسَنا في أجواءِ الطَّبيعةِ الجميلةِ الّتي تُحيطُ بنا، فإنَّنا لا نَشعُرُ بأنَّنا قدِ استعَدْنا عافيتَنا ونشاطَنا فحسْبُ، بلْ نكونُ قدْ حسَّنّا أداءَنا الذِّهنيَّ كذلكَ.

وهذا ماعرضَهُ (ستراير) عمليًّا معَ مجموعةٍ مِنَ الطَّلبةِ المُخيِّمينَ: إذْ إنَّ أداءَهمْ تحسَّنَ بمقدارِ 50٪ في مَهامَّ مُتعلِّقةٍ بحَلِّ المُشكِلاتِ بطرائقَ إبداعيَّةٍ بعْدَ ثلاثةِ أيّامٍ مِنَ التِّرحالِ، وهُمْ يَحمِلونَ أمتِعَتَهمْ على ظُهورِهِمْ.

إنَّ القُدرةَ على تركيزِ الانتباهِ بصِفَةٍ إراديّةٍ، وتجاهُلِ عواملِ التَّشتُّتِ وصَرْفِ النَّظَرِ مسألةٌ حاسمةٌ لحَلِّ المُشكِلاتِ، وإتمامِ المَهامِّ، لكنَّ الحياةَ العصريّةَ تتطلَّبُ أحيانًا مِنْ هذهِ القُدرةِ أكثرَ ممّا نمتلِكُ، وما إنْ تُستَنزَفُ حتّى يؤدّيَ المجهودُ المُطوَّلُ والمُركَّزُ إلى إرهاقِ الذِّهْنِ، وفُقدانِ الفعاليّةِ والإجهادِ. الطَّبيعةُ تتعهَّدُنا، ثُمَّ إنَّها تَرفَعُ معنويّاتِنا، وتُحَسِّنُ مِزاجَنا، وتَقْضي نظريّةُ استعادَةِ الانتباهِ بأنَّ قضاءَ بعْضِ الوقتِ في أحضانِ الطَّبيعةِ يُريحُنا مِنَ التَّوتُّرِ والإجهادِ الذِّهنيِّ النّاتِجَيْنِ عن «الانتباهِ المُوجَّهِ» الّذي يتطلَّبُهُ العملُ وحياةُ المُدنِ.

وفي عامِ 1865، نَظَرَ مُهندِسُ المَناظِرِ الطَّبيعيَّةِ العظيمُ (فريدريك لو أومستد) مِنْ فوقِ «وادي يوسيميتي» فَرَأى مكانًا جديرًا بأنْ يُحافَظَ عليهِ، وكانَ على قناعةٍ بضرورةِ وجودِ طبيعةٍ

* مَجلَّةُ (ناشيونال جيوغرافيك)، عدَدُ يناير 2016، النُّسخةُ العربيَّةُ، ص 30 – 47، بتصرُّفٍ بسيطٍ.

خضـراءَ جميلـةٍ كـيْ يَسـتمتِعَ بهـا النّـاسُ، فكَتَـبَ فـي ذلـكَ يقـولُ: «إنّهـا لَحقيقـةٌ علميّـةٌ أنَّ تأمُّـلَ المناظـرِ الطّبيعيّـةِ الخلّابـةِ بيـنَ حيـنٍ وآخـرَ... مُستحسَـنٌ لِصحَّـةِ الرِّجـالِ ونشـاطِهِمْ، وبخاصَّـةٍ لِصحَّـةِ أذهانِهِـمْ وتَحسُّـنِ وظيفتِهـا».

كانَ (أومستد) يُبالِـغُ حينَهـا، فمـا زَعَمَـهُ لـمْ يَكُـنْ مُرتكِـزًا علـى العِلْـمِ، بقَـدْرِ مـا كانَ مُسـتنِدًا إلـى حَدْسِـهِ الشَّـخصيِّ، لكـنَّ حَدْسَـهُ ذاكَ كانَ لـهُ تاريـخٌ طويـلٌ؛ فقـدْ عبَّـرَ (باراسيلسـوس) الجـرّاحُ السّويسـريُّ الألمانـيُّ فـي القـرْنِ السّـادسَ عشـرَ عـنْ ذلـكَ الحَـدْسِ نفْسِـهِ عندمـا كَتَـبَ: «إنَّ فـنَّ الشِّـفاءِ هـوَ مِـنَ الطَّبيعـةِ، لا الطّبيـبِ»، وفـي عـام 1798 تعجَّـبَ الشّـاعرُ الإنجليـزيُّ (ويليـام وردسـميث)، وهـوَ يجلِسُ علـى ضِفـافِ نهـرِ (واي) كيـفَ أنَّ «العَيْـنَ الّتـي تُقِـرُّ بتأثيـرِ الانسـجامِ الموجـودِ فـي الطَّبيعـةِ توفِّـرُ الخـلاصَ مِـنْ حُمّـى العالَـمِ»، كمـا وَرِثَ كُتّـابٌ آخـرونَ وجهـةَ النَّظـرِ تلـكَ، وجنبًـا إلـى جَنْـبٍ (أومسـتد) «مُهنـدِسِ المَناظِـرِ الطَّبيعيَّـةِ»، فقَـدْ أوجـدَ هـؤلاءِ الأسـاسَ الرّوحانـيَّ والعاطفـيَّ للمُطالَبـةِ بإنشـاءِ المُتنزَّهـاتِ الوطنيّـةِ الأولـى فـي العالَـمِ، زاعميـنَ أنَّ للطَّبيعـةِ قُـوًى شـافيةً.

لـمْ تكُـنْ هنـاكَ أدلَّـةٌ دامغـةٌ حينَهـا، أمّـا اليـومُ فالأدلَّـةُ موجـودةٌ، فمَشـاكِلُ الصِّحَّـةِ العامَّةِ المُستشـريَةِ مِثْـلِ البَدانـةِ، والاكتئـابِ، وظاهـرةِ قِصَـرِ النَّظَـرِ واسـعةُ الانتشـارِ، جميعُهـا مُرتبِـطٌ ارتباطًـا واضحًـا بالأوقـاتِ الّتـي يُمضيهـا النّـاسُ فـي الأماكـنِ المُغلقَـةِ.

تلـكَ الأمـراضُ قـدْ حفَّـزَتْ (سـترايـر) وغيـرَهُ مِـنَ العلمـاءِ علـى البحْـثِ باهتمـامٍ مُتجـدِّدٍ فـي موضـوعِ تأثيـرِ الطَّبيعـةِ فـي أدْمِغَتِنـا وأجسـامِنا، وتأسيسًـا علـى بعـضِ التَّطـوُّراتِ فـي مجالَـيِ العلـومِ العَصبيّـةِ وعِلْـمِ النَّفْـسِ، فقَـدْ بَـدؤوا بقيـاسِ مـا كانَ سـابقًا مُقدَّسًـا وغامضًـا، وهـذهِ القياسـاتُ-الّتي تَشـمَلُ كُلَّ شـيءٍ ابتـداءً مِـنْ هرمونـاتِ الإجهـادِ مـرورًا بمُعـدَّلِ نَبْـضِ القلـبِ، فالأمـواجِ الدِّماغيّـةِ، وانتهـاءً بعلامـاتِ البروتيـنِ- تُشـيرُ إلـى أنَّنـا عندمـا نُمضـي بعـضَ الوقـتِ فـي الطَّبيعـةِ فـإنَّ «شَـيئًا عظيمًـا يَنتُـجُ عـنْ ذلـكَ» علـى حـدِّ قَـوْلِ (سـترايـر).

وقـدْ حلَّـلَ باحثـونَ مِـنْ كُليَّـةِ الطِّـبِّ فـي جامعـةِ (إكسـتر) بانجلتـرا مؤخَّـرًا بيانـاتِ الصِّحَّـةِ النَّفْسـيّةِ لِعَشَـرةِ آلافِ شـخصٍ مِـنْ سُـكّانِ المُـدنِ، واسـتعمَلوا خرائـطَ شـديدةَ الدِّقَّـةِ لِتَتَبُّـعِ المناطـقِ الّتـي سـكنَها هـؤلاءِ الّذيـن شـملَتْهمُ الدِّراسـةُ علـى مـدى ثمانـيَ عشْـرةَ سَـنةً، وقـدْ توصَّلـوا إلـى أنَّ الأشـخاصَ الّذيـن يعيشـونَ فـي مَناطـقَ أقـربَ للمِساحاتِ الخضـراءِ كانـوا أقـلَّ شـكوى مِـنَ الغَـمِّ،

وذلكَ بعدَ تعديلِ النَّتائجِ ليأخذوا في الاعتبارِ مستوياتِ الدَّخْلِ والثَّقافةِ والوظيفةِ (وكُلٌّ منها عاملٌ مؤثِّرٌ في الصِّحَّةِ).

وفي عام 2009 وَجدَ فريقٌ مِنَ الباحثينَ الهولنديّينَ مُعدَّلاتٍ أقَلَّ لظهورِ خمسةَ عشرَ مرضًا- تَشمَلُ الاكتئابَ والقلقَ ومرضَ القلبِ والسُّكَّريَّ والرَّبوَ والصُّداعَ النِّصفيَّ - لدى النّاسِ الّذينَ لا تَبعُدُ منازلُهمْ أكثرَ مِنْ كيلومترٍ واحدٍ عنِ المِساحاتِ الخضراءِ.

وفي عام 2015 جَمعَ فريقُ بحْثٍ دوليٍّ الإجاباتِ الواردةَ في استِبانَةٍ صحيَّةٍ شَمِلَتْ واحدًا وثلاثينَ ألفَ شخصٍ مِنْ سُكّانِ مدينةِ تورنتو الكنديّةِ، فربطوا تلكَ الإجاباتِ معَ خريطةِ المدينةِ-مُربَّعًا سَكَنيًّا بمُربَّعٍ سَكَنيٍّ- ووَجَدوا أنَّ مَنْ يعيشونَ في مُربَّعاتٍ سَكَنيّةٍ تَضُمُّ عددًا أكبرَ مِنَ الأشجارِ كانوا يُظهِرونَ ارتفاعًا في مستوى صحَّتِهمُ القلبيّةِ والأيْضيّةِ تُعادِلُ ما يَشهَدُهُ المرءُ عندما يَحصُلُ على زيادةِ دَخْلٍ بواقعِ عشرينَ ألفَ دولارٍ، كما وُجِدَتْ علاقةٌ بينَ مُعدَّلاتٍ أدنى للوفيّاتِ، وهرموناتِ إجهادٍ أقَلَّ في الدَّمِ، والعَيشِ إلى جَنْبِ المِساحاتِ الخضراءِ.

ويَصعُبُ على المرءِ أنْ يَستخلِصَ مِنْ هذهِ الدِّراساتِ الشَّيءَ الّذي يَجعَلُ النّاسَ يَشعُرونَ بمزيدٍ مِنَ السَّعادةِ: أَتُراهُ الهواءُ النَّقيُّ؟ أَمْ أنَّ بعْضَ الألوانِ والأشكالِ المُتشعِّبةِ تُحفِّزُ على تَشكُّلِ مَوادَّ كيميائيّةٍ عصبيّةٍ مُحدَّدةٍ في القِشرةِ البَصَريّةِ لأدْمِغَتِنا؟ أَمْ أنَّ الموضوعَ ببساطةٍ هوَ أنَّ النّاسَ الّذينَ يعيشونَ في أحياءٍ أكثرَ خُضرَةً يَستعمِلونَ الحدائقَ العامَّةَ لمُمارَسةِ الرّياضةِ أكثرَ ممّا يَستعمِلُها غيرُهمْ؟ وكانَ هذا ما يَعتقِدُهُ (ريتشارد ميشيل) وهوَ اختصاصيٌّ وبائيّاتٍ لدى جامعةِ (جلاسكو) في اسكُتلندا، أوّلَ الأمرِ.

يقولُ: «لقدْ كنتُ أشُكُّ بوجودِ أسبابٍ أُخرى» ولكنَّهُ أَجرى بعْدَ ذلكَ دراسةً كبيرةً أظهرَتْ مُعدَّلاتٍ أقلَّ للوفيّاتِ والأمراضِ لدى النّاسِ الّذينَ يعيشونَ على مَقرُبةٍ مِنَ الحدائقِ العامّةِ والمِساحاتِ الخضراءِ الأُخرى، حتّى إنْ لَمْ يكونوا يَستعمِلونها، ويضيفُ ميتشيل: «تُظهِرُ دِراستُنا فضْلًا عنْ دِراساتِ غيرِنا وجودَ هذهِ التّأثيراتِ المُجدِّدةِ للصِّحَّةِ سواءٌ أكانَ هؤلاءِ النّاسُ يُمارِسونَ المشيَ في الطَّبيعةِ أَمْ لا يُمارِسونَهُ»، علاوةً على ذلكَ، فقَدْ بدا أنَّ أكبرَ المنافعِ كانتْ لدى النّاسِ الأدنى دَخْلًا؛ إذِ اكتَشفَ ميتشيل أنَّ وجودَ المرءِ إلى جَنْبِ الطَّبيعةِ في المُدنِ يَرفعُهُ درجاتٍ في السُّلَّمِ الاجتماعيِّ.

ما يَظنُّهُ ميتشل وباحثونَ آخرونَ هوَ أنَّ الطبيعةَ تؤَثِّرُ فينا بالدَّرجةِ الأولى بخَفْضِ مستوياتِ الإجهادِ لدَينا. وقدْ أظهرَ النّاسُ الّذين يستطيعونَ رؤيةَ الشَّجرِ والعُشْبِ مِنْ نوافذِهِمْ -مُقارَنَةً بمَنْ لَديهِمْ مَشاهِدُ رديئةٌ- سُرعةً أكبرَ في استعادةِ عافيتِهِمْ في المستشفياتِ وأداءً أفضلَ في المدارسِ، بلْ وسُلوكًا أقَلَّ عُدوانيّةً في الأحياءِ الّتي يَكثُرُ فيها العُنْفُ، وتَنسِجمُ هذهِ النّتائجُ معْ مُحصِّلاتِ الدِّراساتِ التَّجريبيّةِ للجهازِ العَصبيِّ المَركزيِّ؛ إذْ تشيرُ قياساتُ كُلٍّ مِنْ هرموناتِ الإجهادِ والتَّنفُّسِ ونبْضِ القلبِ والتَّعرُّقِ إلى أنَّ جُرعاتٍ قليلةً مِنَ الطَّبيعةِ- بلْ وحتّى صُوَرٍ مِنَ عالَمِ الطَّبيعةِ - لدَيها القُدرةُ على تهدئةِ نفوسِ النّاسِ وتَحسينِ أدائِهِمْ.

وقدْ قامَتِ الطَّبيبةُ (ماتيلا فان دن بوش) في السُّوَيْدِ، بدراسةِ مجموعةٍ مِنَ الأشخاصِ كانَتْ قدْ كلَّفتْهُمْ بحَلِّ مسألةٍ رياضيّةٍ مُجهِدةٍ، فاكتشفَتْ أنَّ تفاوُتَ مُعدَّلِ خفَقانِ قلوبِهِمُ (الّذي يَنقُصُ عادةً عندَ الإجهادِ) كانَ يعودُ إلى طبيعتِهِ بسُرعةٍ، عندما كانَتْ تُجلِسُهُمْ خمسَ عشْرةَ دقيقةً في غُرفةِ للواقعِ الافتراضيِّ، تَعرِضُ فيها صُوَرًا ثلاثيّةَ الأبعادِ لِمشاهدَ طبيعيّةٍ مصحوبةٍ بتغريدِ الطُّيورِ بدلًا مِنَ الجلوسِ في غُرفةٍ عاديّةٍ.

وثبَتَ أنَّ المشيَ لمدَّةِ خمسَ عشْرةَ دقيقةً في الغابةِ يُنتِجُ تَغيّراتٍ لَدى الأشخاصِ تكونُ قابلةً للقياسِ مِنَ النّاحيةِ الفسيولوجيّةِ، فلقَدْ قامَ باحثونَ يابانيّونَ برئاسَةِ (يوشيفومي ميازاكي) في جامعةِ (تشيبا) بإرسالِ أربعةٍ وثمانينَ شخصًا مُتطوِّعًا إلى سبعِ غاباتٍ مختلِفةٍ ليَتمشّوا فيها، على حينِ جعلوا عددًا مُماثِلًا مِنَ المُتطوِّعينَ يَتمشَّونَ في مراكزِ المُدنِ، وقدْ كانَ مَكسَبُ الّذينَ استَرخَوا نتيجةَ المَشيِ في الغابَةِ هائلًا؛ إذْ حدَثَ عندَهُمْ هبوطٌ إجماليٌّ في مُستوى هِرمونُ الإجهادِ (الكورتيسول) بواقع 16٪، وهبوطٌ بواقعِ 2٪ في ضغْطِ الدَّمِ، وهبوطٌ بواقعِ 4٪ في نبْضِ القلبِ، ويَعتقِدُ ميازاكي أنَّ أجسامَنا تَسترخي في الأجواءِ الطَّبيعيَّةِ اللَّطيفةِ؛ لأنَّنا كُنّا قدْ نشَأْنا فيها في الأصلِ بصفَتِنا بشَرًا؛ ولذا فإنَّ حواسَّنا مهيّأةٌ لتَفسيرِ المَعلوماتِ ذاتِ الصِّلةِ بالنّباتاتِ والجداولِ المائيّةِ، لا الحركةِ المروريّةِ وناطحاتِ السَّحابِ على حدِّ قولِهِ.

وقدْ أظهرَ استِطلاعٌ للرَّأيِ خاصٌّ بالمَحميّاتِ الطَّبيعيّةِ أُجريَ مؤخَّرًا أنَّ نسبةَ المراهقينَ الأمريكيّينَ الّذينَ يُمضونَ بعْضَ وقتِهِمْ في الهواءِ الطَّلْقِ كُلَّ يومٍ لا تَتجاوزُ 10٪ تقريبًا، كما أنَّ الأمريكيّينَ البالغينَ يُمضون وقتًا أقلَّ خارجَ بيوتِهِمْ والمباني عمومًا ممّا يُمضونَهُ داخلَ سيّاراتِهِمْ أيْ أقلَّ مِنْ 5٪ مِنْ يومِهِمْ. إنَّ النّاسَ لا يُقدِّرونَ مدى تأثيرِ وجودِهِمْ في الخارجِ

في مستوى سعادتِهِمْ، فنحنُ إجمالًا نُفكِّرُ أنَّ السَّعادةَ تَتَأتّى مِنْ أشياءَ أُخرى مِثْلِ التَّسوُّقِ أو مُشاهدةِ التِّلفازِ.

وفي بعضِ الدُّولِ، تُشجِّعُ الجهاتُ الحكوميّةُ على الارتماءِ في أحضانِ الطَّبيعةِ، بوصفِها سياسةً للصِّحَّةِ العامَّةِ، ففي فنلندا مثلًا- وهيَ بلادٌ تعاني معدَّلاتٍ مرتفِعةً للاكتِئابِ- طلَبَ باحثونَ تُموِّلهمُ الحكومةُ إلى آلافِ الأشخاصِ تقييمَ مشاعرِهِمْ ومستوياتِ الإجهادِ لدَيهِمْ بعْدَ زيارةِ مناطقَ طبيعيّةٍ وأُخرى حضَريّةٍ، وبناءً على نتائجِ تلكَ الزّيارةِ، فإنَّ فريقَ مَعهَدِ فنلَندا للمَصادِرِ الطَّبيعيّةِ يوصي بقضاءِ وقتٍ في الطَّبيعةِ لا يقِلُّ عن خمسِ ساعاتٍ في الشَّهرِ، كما يَرى بروفيسورُ عِلْمِ النَّفْسِ (كاليفي كوربيلا) أنَّ المشيَ مدَّةً تَتراوحُ بينَ أربعينَ وخمسينَ دقيقةً يبدو كافيًا لإحداثِ تغييراتٍ نفْسيّةٍ و تغييراتٍ في المِزاجِ، وعلى الأرجَحِ تغييراتٍ في التَّركيزِ أيضًا، وقدْ ساعدَ هذا البروفيسورُ في تَصميمِ نحْوِ ستّةِ دُروبٍ للطَّبيعةِ يُسمّيها «دروبَ التَّقويةِ» تُشجِّعُ على المَشيِ والانتباهِ والتَّفَكُّرِ، وتوجَدُ على هذهِ الدُّروبِ لافتاتٌ تَحمِلُ رسائلَ مِثلَ «اجلسِ القُرفُصاءَ والمسْ نباتًا».

وربّما لا يوجدُ أَحَدٌ أكثرُ شغَفًا بالتَّطبيبِ بالطَّبيعةِ مِنَ الكوريّينَ الجَنوبيّينَ، فكثيرٌ منهمْ يُعاني إجهادَ العملِ، وإدمانَ الأجهزةِ الرَّقْميَّةِ، والضُّغوطاتِ الدِّراسيّةَ الشّديدةَ، ووَفْقَ استطلاعٍ أجرَتْهُ شَركةُ (سامسونج) فإنَّ أكثرَ مِنْ 70٪ مِنْ هؤلاءِ يقولونَ إنَّ وَظائفَهمْ تُصيبُهمْ بالاكتئابِ؛ إذْ تَشتهِرُ بكَونِها تتطلَّبُ ساعاتٍ طويلةً مِنَ العَملِ.

وإلى غابةِ سانيوم للاستشفاءِ الواقِعةِ شَرقَ العاصمةِ سيؤول يَفِدُ الزّائرونَ الحَضَريّونَ الّذينَ اجتذبَتْهمُ الأشجارُ المُكتسيةُ برداءٍ زاهٍ مِنَ الأوراقِ مُتغيِّرةِ الألوانِ، وكذلكَ الهَواءُ المُنعِشُ، ويَتراصُّ بعضُهمْ فوقَ مِنَصّاتٍ خَشبيَّةٍ في فُسحَةٍ وسْطَ الأحراجِ. كما نَجِدُ مَجموعةً مِنَ الرِّجالِ يُمضونَ الصَّباحَ في المَشيِ الاستجماميِّ، ثمَّ يُمارِسونَ (اليوغا)، ويَدهَنونَ سواعِدَهمْ ويُدَلِّكونها بزيتِ الخُزامى، ويَصنَعونَ لوحاتٍ مِنَ الأزهارِ الجافَّةِ.

وتُعَدُّ غابةُ سانيوم واحدةً مِنْ ثلاثِ غاباتٍ مخصصَّةٍ رسميًّا للاستشفاءِ في كوريا الجنوبيّةِ، ومِنَ المُزمَعِ تخصيصُ أربعٍ وثلاثينَ غابةً أُخرى للغَرَضِ نفْسِهِ في أفقِ عامِ 2017، ممّا يعني أنَّ جُلَّ المُدنِ الكبرى ستكونُ على مَقرُبةٍ مِنْ إحداها. وتُقدِّمُ جامعةُ (تشونغبوك) بَرنامَجًا دراسيًّا يَنالُ فيهِ الطَّلبةُ شهادةَ «علاجٍ بالغاباتِ» إذْ تتوقَّعُ دائرةُ الغاباتِ الكوريّةِ أنْ

تُوظِّفَ خَمسَمئةِ حارسِ غابةٍ صِحّيٍّ في السَّنتَينِ المُقبلتَينِ.

فيما مضى كانَ عُلماءُ (دائرةِ الغاباتِ الكوريّةِ) يُجرونَ بُحوثًا على مَحصولِ غاباتِهِمْ مِنَ الخَشبِ؛ أمّا اليومَ فهُمْ أيضًا يُقَطِّرونَ الزُّيوتَ العِطْريّةَ مِنْ بعضِ أشجارِها ويَدرُسونَها ليكتشِفوا قُدرتَها على خَفْضِ مُعدَّلاتِ هِرموناتِ الإجهادِ، وأعراضِ الرَّبْوِ. وبفَضْلِ السّياساتِ الجديدةِ فقَدْ ازدادَ عَدَدُ زُوّارِ غاباتِ كوريا مِنْ 9.4 مليونِ زائرٍ عامَ 2010 إلى 12.8 مليونِ زائرٍ عامَ 2013.

إنَّ التَّفاعُلَ معَ الطَّبيعةِ هوَ عِلاجٌ لا يَحمِلُ أيَّ آثارٍ جانبيّةٍ، ويُمكنُهُ تحسينُ وظائِفِكَ الإدراكيّةِ بِلا أيِّ تكاليفَ ماديّةٍ على الإطلاقِ، وفي المُحصِّلةِ إنّنا نَخرُجُ إلى الطَّبيعةِ لا لأنَّ العِلْمَ يُخبِرُنا بأنَّ لها تأثيرًا مُعيَّنًا فينا، بلْ بسببِ ما تُثيرهُ فينا مِنْ أحاسيسَ ومشاعرَ.

كيفَ نحيا بِلا بلاستيكَ؟ *

عِندما أشرَقَ عصْرُ البلاستيكِ في عام 1907 انفتحَ عالَمٌ جديدٌ في حياتِنا؛ فقَدْ أتاحَ البلاستيكُ صُنْعَ أشياءَ كثيرةٍ، مِنْ أكوابِ الأطفالِ المُقاوِمَةِ للكَسْرِ إلى قِطَعِ الآليّاتِ الحربيّةِ. فأقبلَ العالَمُ على البلاستيكِ بِشَراهَةٍ لِتَعدُّدِ استعمالاتِهِ ومَتانَتِهِ، وهُما الصِّفَتانِ اللَّتانِ أَدخلَتانا في الأزمةِ الّتي نُعاني منها حاليًّا. قيلَ في حسَناتِهِ إنَّهُ «يدومُ إلى الأبَدِ» فليسَتْ هناكَ كائناتٌ حيَّةٌ قادرةٌ على هضْمِ هذهِ الموادِّ الاصطناعيّةِ المُعقَّدةِ الّتي تُشكِّلُها سلاسلُ طويلةٌ مِنْ حَلَقاتِ الكربونِ لا تستطيعُ الطَّبيعةُ تفكيكَها، لكنَّ هذهِ الميزةَ هيَ أيضًا مُشكِلةٌ كُبرى؛ فقَدْ يَبقى البلاستيكُ في مَطْمَرٍ أو في الطَّبيعةِ آلافَ السِّنينَ مِنْ دونِ أنْ يَتحلَّلَ. «الوَحْشُ» ماثِلٌ بينَنا. لدينا مادّةٌ عجائبيّةٌ، لكنّها ذاتُ جانبٍ قاتمٍ، وما زِلْنا نستخدِمُها على نطاقٍ واسعٍ مُغيِّرينَ البَرَّ والبحْرَ تغييرًا دائمًا.

ولعلَّ حقائقَ كثيرةً أصبحَتْ معروفةً على نِطاقٍ واسعٍ الآنَ تُؤكِّدُ الجانبَ المُظلِمَ مِنْ هذهِ المادَّةِ العجائبيّةِ؛ فعَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ البلاستيكَ أدّى دَورًا كبيرًا في الحربِ العالميّةِ الثّانيةِ؛ إذْ تَمَّ استعمالُهُ في كُلِّ شيءٍ مِنَ المَرْكَباتِ العسكريّةِ إلى المَوادِّ العازِلةِ للرّاداراتِ، إلّا أنَّ الأمْرَ اختَلَفَ بعْدَ أنْ وَضَعَتِ الحرْبُ أَوزارَها؛ ففي تلكَ الفترةِ بَنَتْ شركاتُ البِترولِ مَصانعَ لتحويلِ النِّفْطِ الخامِ إلى (بلاستيكٍ) استجابةً لِمُتطلَّباتِ الحرْبِ، ولكنْ، بعْدَ انتهاءِ الحرْبِ، واجهَتْ صناعةُ البلاستيكِ مُشكِلةً تَمَّ تَجاوزُها بابتكارِ أنواعٍ لا تُحصى مِنَ الاستعمالاتِ الجديدةِ لهذهِ المادَّةِ.

كما أنَّ إنتاجَ البلاستيكِ يَستهلِكُ نحْوَ 8٪ مِنْ إنتاجِ النِّفْطِ العالَميِّ، وأنَّ حَوالَيْ ثلاثِمئةِ مِليونِ طُنٍّ مِنَ البلاستيكِ تُصنَّعُ سنويًّا ينتهي ثمانيةُ مِليونِ طُنٍّ مِنها تقريبًا في المُحيطاتِ حيثُ يُتوقَّعُ أنْ يَبقى لآلافِ السِّنينَ، وهوَ موجودٌ في كُلِّ مكانٍ مِنْ أعماقِ المُحيطاتِ إلى جليدِ القُطْبِ الشَّماليِّ. بالإضافةِ إلى ذلكَ فإنَّ البلاستيكَ الّذي يُدفَنُ في مَطامِرَ يُمكِنُ أنْ تَرْشَحَ منهُ مَوادُّ كيميائيّةٌ ضارَّةٌ تَتسرَّبُ إلى المياهِ الجَوفيّةِ.

وثَمَّةَ بياناتٌ عنْ أكثرَ مِنْ سبْعِمئةِ نَوعٍ مِنَ الأحياءِ البحريّةِ ابتَلعَتْ قِطَعًا بلاستيكيّةً، ويَتوقَّعُ

*) مجلَّةُ البيئةِ والتَّنميةِ، مارس–إبريل 2016 (بِتَصَرُّفٍ)

العلماءُ أنْ يُعثَرَ على البلاستيكِ في أجسامِ 99٪ مِنَ الطُّيورِ البحريّةِ بِحُلولِ سَنةِ 2050. وتُشكِّلُ النُّفاياتُ البلاستيكيّةُ العائمةُ وسائلَ نقلٍ لأنواعٍ غازيَةٍ مِنَ الأسماكِ والدّيدانِ والطَّحالبِ ممّا يَتسبَّبُ في فوضى بيئيّةٍ؛ فقَدْ عُثِرَ في جزيرةٍ غرْبِ القارّةِ القُطبيّةِ الجَنوبيّةِ على عَشَرةِ أنواعٍ مِنَ اللّافَقاريّاتِ الدَّخيلةِ مُلتصِقةً بنُفاياتٍ بلاستيكيّةٍ على الجليدِ.

وتُقدِّرُ الإحصائيّاتُ أنَّ نحْوَ خمسِمِئةِ بليونٍ مِنَ الأكياسِ البلاستيكيّةِ تُستعمَلُ كُلَّ سنَةٍ حوْلَ العالَمِ، أيْ أكثرَ مِنْ مليونِ كيسٍ في الدَّقيقةِ الواحدةِ. وأنَّهُ تَمَّ تصنيعُ كميّةٍ مِنَ البلاستيكِ في السّنواتِ العَشرِ الأولى مِنْ هذا القرْنِ تَزيدُ على ما تمَّتْ صِناعتُهُ في كُلِّ القرْنِ الماضي. وأنَّ 50٪ مِنَ البلاستيكِ الّذي يَتمُّ إنتاجهُ يُستعمَلُ مرَّةً واحدةً فقَطْ، ثُمَّ يُرمى ليُشكِّلَ عِبئًا على الأرضِ لا يمكنُ التَّخلُّصُ منهُ لآلافِ السِّنينَ.

ورَغْمَ أنَّ تَصوُّرَ حياتِنا مِنْ دونِ بلاستيكٍ يبدو أمرًا مُستحيلًا إلّا أنّه يَبقى هَدفًا نبيلًا يَسعى إليهِ الكثيرُ مِنَ النّاسِ حوْلَ العالَمِ؛ فيُحاوِلونَ استخدامَ بدائلَ صديقةٍ للبيئةِ، أو أخَفَّ ضررًا مِنَ البلاستيكِ، ليُخفِّفوا مِنَ النُّفاياتِ البلاستيكيّةِ الّتي تَملأُ المَطامِرَ. وهذهِ بعضُ الأفكارِ الّتي تَستطيعُ بتطبيقِها أنْ تَنضَمَ إلى آلافِ النُّبَلاءِ حوْلَ العالَمِ مِمَّنْ يُحاوِلونَ باستمرارٍ حمايةَ كوكبِ الأرضِ، والعودةَ بالحياةِ إلى صورتِها الطَّبيعيّةِ بعيدًا عنِ الآثارِ السّامَّةِ للتَّصنيعِ واستخدامِ الموادِّ غَيرِ الطَّبيعيّةِ:

تَجنَّبِ الأنواعَ السَّيِّئةَ مِنَ البلاستيكِ: إذا تفحَّصْتَ الجانبَ السُّفليَّ لوعاءٍ بلاستيكيٍّ فستَرى رقْمًا مِنْ 1 إلى 7 داخلَ مُثلَّثٍ؛ وأسوأُ أنواعِ البلاستيكِ هيَ:

الرَّقْمُ 3: هوَ بلاستيكٌ سامٌّ جِدًّا، يحتوي على إضافاتٍ مِثْلِ الرَّصاصِ والفثالاتِ، ويُستعمَلُ في الأغلفةِ البلاستيكيّةِ الرَّقيقةِ وبعضِ القواريرِ وأَوعيةِ زُبدةِ الفولِ السّودانيِّ ولُعَبِ الأطفالِ.

الرَّقْمُ6: يحتوي على السّترينِ وهيَ مادَّةٌ سامَّةٌ للدِّماغِ والجهازِ العصَبيِّ. ويوجدُ في الأطْباقِ وأدواتِ الطَّعامِ البلاستيكيّةِ الّتي تُرمى بعْدَ الاستعمالِ، وأَوعيةِ الطَّعامِ الجاهزِ.

الرَّقْمُ7: يحتوي على ثُنائي الفينولِ ويوجدُ في مُعظَمِ بِطاناتِ عُلَبِ الطَّعامِ المعدِنيّةِ وقواريرِ المشروباتِ الرّياضيّةِ، وأَوعيةِ العصائرِ والكاتشابِ.

استعمِلِ الأَوعيةَ غيرَ البلاستيكيّةِ.

استخدِمْ كوبًا بلاستيكيًّا أو زُجاجيًّا، وحاوِلْ ألّا تَستعمِلَ الأكوابَ البلاستيكيّةَ الّتي تُرمى بعْدَ الاستعمالِ، ضَعْ وجبةَ غذائكَ في وعاءٍ زُجاجيٍّ. وخُذْ معكَ أكياسًا يُعادُ استخدامُها إلى البقّالةِ أو سوقِ الخُضارِ.

لا تشرَبْ مياهًا مُعبَّأةً: احمِلْ قارورةَ مياهٍ زُجاجيّةً يمكنُ إعادةُ تعبئتِها، بدَلًا مِنَ القواريرِ الجاهزةِ المُعبَّأةِ الّتي تُسفِرُ عنْ نُفاياتٍ بلاستيكيّةٍ لا يُعادُ تدويرُ إلّا القليلَ منها.

تسوَّقْ بكميّةٍ أكبرَ: شراءُ كميّةٍ كبيرةٍ مِنْ سِلعةٍ أو مادَّةٍ تحتاجُ إليها يوفِّرُ كميةً أكبرَ مِنَ التَّغليفِ، كما يوفِّرُ الوَقودَ الّذي تَحرِقُهُ سيّارتُكَ في رحلاتٍ إضافيّةٍ إلى المَتجرِ.

توقَّفْ عنْ شِراءِ العصائرِ والمرطِّباتِ المعبَّأةِ في قواريرَ بلاستيكيّةٍ.

يمكنُ شِراءُ مشروباتٍ غازيّةٍ في قواريرَ زُجاجيّةٍ. ومِنَ الأفضلِ أنْ تأكُلَ فواكهَ وتَشرَبَ عصائرَ طازَجةً، وتَستغنيَ عنِ المشروباتِ الغازيّةِ المليئةِ بالسُّكَّرِ الإضافيِّ المُضِرِّ بالصِّحَّةِ.

توقَّفْ عنْ مضْغِ العِلكةِ: مضْغُ العِلكةِ هوَ بمثابةِ مضْغِ البلاستيكِ؛ فمُنذُ الحرْبِ العالميّةِ الثّانيةِ توقَّفَ استعمالُ المطّاطِ الطَّبيعيِّ في صُنعِ العِلكةِ واستُبدِلَ بهِ المَّطاطُ الصِّناعيُّ الّذي يحتوي على موادَّ بيَّنتِ التَّجارِبُ أنَّها تُسبِّبُ نُموًّا وَرَميًّا لدى جُرذانِ المُختبَرِ، لكنْ لَمْ يَتِمَّ حظْرُها نتيجةَ ضغْطٍ مِنَ الصِّناعةِ، وفكِّرْ أيضًا أينَ ستنتهي العِلكةُ بعْدَ مضْغِها، فهيَ غيرُ قابلةٍ للتَّحلُّلِ البَيولوجيِّ.

تناوَلِ (الآيس كريم) في مخروطٍ: تجنَّبِ استعمالَ الأكوابِ والملاعقِ البلاستيكيّةِ عندِ شِراءِ الآيس كريم، واختَرْ- بدَلًا مِنْ ذلكَ- تعبئتَها في مخروطٍ مِنَ البسكويتِ.

وبعْدُ، فإنَّ ما يمكنُ لكُلِّ واحدٍ منّا أنْ يفعلَهُ مِنْ أجْلِ أنْ نُسهِمَ جميعًا في حمايةِ أنفُسِنا وكوكبِنا قدْ يكونُ أكثرَ بكثيرٍ مِنْ كُلِّ هذا. ولعَلَّ أهَمَّ ما يمكنُ أنْ نقومَ بهِ، نَشْرُ الوَعْيِ بينَ مَنْ نَعرِفُ مِنْ أفرادِ أُسرَتِنا وأصدقائِنا وزُملائِنا، وأنْ نَتَّخِذَ خطوةً واحدةً أو خطواتٍ صغيرةً بسيطةً لتغييرِ حياتِنا نحْوَ التَّقليلِ مِنِ استخدامِ هذهِ المادَّةِ العَجائبيّةِ الّتي «تدومُ إلى الأبَدِ».

المشيُ .. آثارٌ إيجابيَّةٌ على الحالةِ الصِّحيَّةِ *

الدُّكتور أكمل عبد الحكيم

يتعـرَّضُ أفـرادُ الجنسِ البشـريِّ حاليًّا لوبـاءٍ مـنَ الأمـراضِ غيـرِ المُعديـةِ، يعتبـرُ مسـؤولًا عـنْ أكثـرَ مـنْ نِصفِ الوَفيّـاتِ بيـنَ البَشرِ، فمِـنْ بيـنِ سبعةٍ وخمسـينَ مليـونَ وفـاةٍ بشـريّةٍ سـنويًّا، يعـودُ السَّـببُ فـي سـتٍّ وثلاثيـنَ مليـونَ منهـا إلـى مـرضٍ أوْ آخـرَ مـنَ الأمـراضِ غيـرِ المُعديـةِ، وهـوَ مايعـادلُ 63٪ مـن مُجمَـلِ الوفيّـاتِ، ومـنْ بيـنِ هـذهِ الوفيّـاتِ يكـونُ النِّصـفُ تقريبًـا بيـنَ أشـخاصٍ لـمْ يبلُغـوا بعـدُ سِـنَّ السَّـبعينَ، وهـوَ مُتوسِّـطُ العُمُـرِ المتوقَّـعِ حاليًّـا للإنسـانِ، ممّـا يَجعـلُ هـذا النِّصـفَ مـنَ الوفيّـاتِ يتَّصِـفُ بكونـهِ وفيّـاتٍ مبكِّـرةً.

والأمـراضُ غيـرُ المُعديـةِ ببسـاطةٍ، هـيَ: الأمـراضُ الّتـي لا تَتسـبَّبُ فيهـا عوامـلُ مُعديـةٌ، مِثـلُ الجراثيـمِ، والبكتيريـا، والفيروسـاتِ، والفِطْريّـاتِ، أو غيرِهـا مـنَ الكائنـاتِ الحيّـةِ، كمـا أنّهـا لا يُمكِـنُ أنْ تَنتقِـلَ مـنْ شـخصٍ إلـى آخـرَ، وتتضمَّـنُ هـذهِ الطّائفـةُ مـنَ الأمـراضِ- علـى سـبيلِ المثـالِ لا الحَصْـرِ- أمـراضَ القَلْـبِ والشَّـرايينِ، وأمـراضَ المَناعـةِ الذّاتيّـةِ، والسَّـكْتةَ الدِّماغيّـةَ، والعديـدَ مِـنْ أنـواعِ الأمـراضِ السَّـرَطانيّةِ، والأزمـةَ الشُّـعَبيّةَ، وداءَ السُّـكَّريِّ، وأمـراضَ الكُلـى المُزمِنَـةَ، وهشاشـةَ العظـامِ، والزّهايمـرَ، وقَتامـةَ عَدَسـةِ العَيـنِ، وغيرَهـا.

ورغـمَ أنَّ هـذهِ الطّائفـةَ مـنَ الأمـراضِ يُطلَـقُ عليهـا أحيانًـا -خطـأً- لَقـبُ الأمـراضِ المُزمِنَـةِ، إلّا أنَّ طـولَ فترتِهـا ليـسَ الصّفـةَ المحـدِّدَةَ لهـا، وإنّمـا كَونُهـا ناتجـةً عـنْ عوامـلَ غيـرِ مُعديـةٍ، فبعـضُ الأمـراضِ المُزمِنَـةِ، مثـلُ نَقْـصِ المناعـةِ المُكتسَـبةِ أوِ الإيـدزِ، والّـذي يَسـتغرِقُ أحيانًـا سـنواتٍ وسـنواتٍ حتّـى تظهـرَ أعراضُـهُ وعلاماتُـهُ، هـوَ مـرضٌ مُعْـدٍ.

ورغـمَ أنَّ الأسـبابَ والاضطرابـاتِ الفسـيولوجيّةَ، تتنـوّعُ وتتعـدّدُ بيـنَ الأنـواعِ المختلفـةِ للأمـراضِ غيـرِ المُعديـةِ، فإنّهـا تشـتَركُ غالبًـا فـي وجـودِ عوامـلَ خطِـرةٍ، مُؤهِّلَـةٍ أو مُسـاعِدةٍ علـى الإصابـةِ، عوامـلُ الخطـرِ هـذهِ قـدْ تشـملُ العُمُـرَ، والجنـسَ، أوِ النَّـوعَ، والتَّركيبـةَ الوراثيّـةَ، والتّعـرُّضَ للملوِّثـاتِ البيئيّـةِ، بالإضافـةِ إلـى بعـضِ السُّـلوكاتِ غيـرِ الصِّحيّـةِ، مِثْـلِ التَّدخيـنِ والغِـذاءِ غيـرِ الصِّحّـيِّ، وقلَّـةِ النَّشـاطِ البدَنـيِّ أوِ الحَرَكـيِّ.

---

*) جريدةُ الاتّحادِ الإماراتيَّةِ، عددُ 17 أكتوبر 2013.

وفي ظِلِّ حقيقةِ أنَّ العديدَ منْ عواملِ الخَطَرِ، وخُصوصًا المُتعلِّقةَ بالسُّلوكاتِ غيرِ الصِّحيَّةِ، مِنَ المُمكِنِ دَرْءُ خَطَرِها، أوْ على الأقلِّ التَّقليلُ منْ وَقْعِها، يَنظُرُ كثيرونَ لِغالبيّةِ الأمراضِ غيرِ المُعديةِ، وما يَنتُجُ عنْها منْ وفيّاتٍ، على أنّها أمراضٌ يُمكنُ الوقايةُ مِنها، وللوفيّاتِ النّاتجةِ عَنها على أنّها وفيّاتٌ كانَ منَ المُمكنِ تجنُّبُها إلى حدٍّ كبيرٍ، والمؤسِفُ أنَّ تحقيقَ هذهِ الوقايةِ لا يتطلَّبُ استثماراتٍ ضخمةً في الأجهزةِ الحديثةِ، ولايحتاجُ إلى تَطبيقِ أساليبَ طبيّةٍ معقَّدَةٍ، مِثْلِ الهندسةِ الوراثيّةِ أو زراعةِ الخلايا الجِذعيّةِ، بلْ إلى بعضِ الإجراءاتِ والتَّدابيرِ السَّهلةِ، والبسيطةِ، وزهيدةِ الثَّمنِ، وتَتَّضِحُ هذهِ الحقيقةُ اتِّضاحًا جليًّا منْ خلالِ إجراءٍ بسيطٍ، وسهلٍ، وغيرِ مُكْلِفٍ، مِثْلِ مُمارَسةِ المَشْيِ مُمارَسةً مُنتظَمَةً على التّقليلِ بشكلٍ ملحوظٍ منْ عاملِ الخَطَرِ المرتبطِ بقلّةِ النّشاطِ البدنيِّ، وما ينتجُ عنهُ منْ أمراضٍ وعِلَلٍ، وهوَ ما عادَ ليؤكِّدَهُ تقريرٌ صدرَ حديثًا عنْ جمعيّتَيْنِ خيريّتَيْنِ بريطانيّتَيْنِ، الأولى تعمَلُ في تشجيعِ المُجتمَعِ على مُمارَسةِ المَشيِ، والثّانيةُ توفِّرُ الدَّعْمَ والمُساندَةَ لمرضى السّرطانِ.

هذا التّقريرُ الّذي يحملُ عنوانَ «المشيُ يؤدّي الغرضَ» (Walking Works) أظهرَ أنَّ ممارسةَ رياضةِ المشيِ يمكنُهُ أنْ ينقذَ حياةَ الآلافِ منَ البريطانيّينَ، أوِ الملايينِ حَوْلَ العالَمِ، ويُمْكنُهُ أنْ يُحْدِثَ تغييرًا جذريًّا وجوهريًّا في حياةِ الكثيرِ منَ النّاسِ.

فالمشيُ، وما يَنتُجُ عنهُ منْ زيادةٍ في حجمِ النّشاطِ البدنيِّ اليوميِّ، لا يقي فقط منْ أمراضِ القلبِ والشَّرايينِ، كالذَّبْحةِ الصَّدريَّةِ، والسَّكتَةِ الدِّماغيَّةِ، بلْ يُمْكنُهُ أنْ يُحقِّقَ فارقًا ملحوظًا في الوقايةِ منَ الإصابةِ بداءِ السُّكَّريِّ، وعَتَهِ الشَّيخوخةِ منْ نوعِ الزَّهايمرِ، وكثيرٍ منَ الأمراضِ السّرطانيّةِ.

هذهِ الفائدةُ الأخيرةُ -أوِ الوقايةُ منَ الأمراضِ السّرطانيّةِ- كانتْ قدْ أكَّدَتْها مؤخَّرًا دراسةٌ أجراها علماءُ الجمعيّةِ الأمريكيّةِ للسّرطانِ، حينَ أظهَرتْ نتائجُها أنَّ المشيَ لمدّةِ ساعةٍ يوميًّا، يُمكنُهُ أنْ يُحقِّقَ قدْرًا ملحوظًا منَ الوِقايةِ ضِدَّ سَرطانِ الثَّديِ للنِّساءِ اللَّواتي تجاوَزْنَ الخمسينَ منْ أعمارهِنَّ، فمنْ خلالِ مسْحٍ شَمَلَ أكثرَ منْ ثلاثٍ وسبعينَ ألفَ امرأةٍ، تَبيّنَ أنَّ منْ كُنَّ يمارِسْنَ المشيَ لمُدّةِ سبعِ ساعاتٍ أسبوعيًّا، كانتْ معدّلاتُ الإصابةِ بسرطانِ الثَّديِ بينهنَّ أقلَّ بنسبةِ 14٪، مقارنةً بالنِّساءِ اللّاتي كنَّ يمارسْنَ المشيَ لمدّةِ ساعتينِ أوْ ثلاثِ ساعاتٍ أسبوعيًّا فقط.

وعلى المِنوالِ نفسِهِ، أظهرتْ دراسةٌ أُخرى مُهمّةٌ ومُثيرةٌ، أنَّ ممارسةَ رياضةِ المَشيِ، تعادلُ في الكفاءةِ والفعاليّةِ، فعاليّةَ الأدويةِ والعَقاقيرِ الطِّبيَّةِ المُستخدَمةِ للوقايةِ مِنَ الوفيّاتِ النّاتجةِ عنْ أمراضِ القَلبِ، بلْ أيضًا تزيدُ في فعاليّتِها وكفاءتِهاعنْ فعاليّةِ وكفاءةِ الأدويةِ والعَقاقيرِ المُستخدَمةِ في الوقايةِ منَ السَّكتَةِ الدِّماغيّةِ، وبِخلافِ الفارقِ في الفعاليّةِ والكفاءةِ، تتمتّعُ رياضةُ المَشيِ بانعدامِ المضاعَفاتِ والأعراضِ الجانبيّةِ، مقارنةً بالأدويةِ والعقاقيرِ الطِّبيّةِ الّتي لاتخلو منْ مضاعَفاتٍ وأعراضٍ جانبيّةٍ، هذا بالإضافةِ إلى أنَّ تلكَ الأدويةَ والعقاقيرَ تَستهدفُ غالبًا مرضًا أو آخرَ، بمعنى أنَّ الوقايةَ منْ عددٍ منَ الأمراضِ، قد يَتطلّبُ تناولَ عددٍ منَ العقاقيرِ، وهوَ مايزيدُ منَ احتمالاتِ المضاعَفاتِ، ويُرهقُ ميزانيّةَ المريضِ، ونظامَ الرِّعايةِ الصِّحيَّةِ برُمَّتِهِ، مقارنةً بالمَشيِ، والَّذي دائمًا ماتكونُ تَكلِفتُهُ صِفريّةً مجّانيّةً.

وأخيرًا، يَترُكُ المَشيُ، أوِ التَّمشّي أثرًا إيجابيًّا على الحالةِ النَّفسيَّةِ والذِّهنيَّةِ، لايمكنُ لأيٍّ منَ العقاقيرِ أنْ تَبْلُغَهُ، ممّا يجعلُ المَشيَ ضِمنَ أفضلِ سُبُلِ الوقايةِ منَ الأمراضِ غيرِ المُعديةِ.

أتريدون تحسين مزاجكم؟ البستنة قد تكون الحل الأنسب والأوفر

باميلا كسرواني

في عالم متسارع الوتيرة وكثير الضغوط، غالبًا ما نبحث عن طرق جديدة للاسترخاء والهرب حتى لو لبضع دقائق من ضجيج الخارج. كثيرة هي الوسائل التي باتت متوفرة لنا، كالعلاجات البديلة والتأمل و(اليوغا) وغيرها... ولكن، هل فكرتم يومًا بأن مجرد الاهتمام بنباتاتكم المنزلية أو العناية بالحديقة، أو الانخراط بمجموعة «البستنة» له فوائد على صحتكم العقلية والنفسية والجسدية؟

بالفعل ما بات يُعرف بـ«علاج البستنة» أو (Horticulture therapy) باللغة الإنجليزية تحّول إلى نزعة «علاجية» إذا صح التعبير في مختلف أنحاء العالم. وعلى الرغم من وجود متخصصين في هذا العلاج، وجمعيات ومؤسسات تقدّم هذه الخدمات، فقد تكون «البستنة» في متناول الجميع. بضع نباتات ومرشة ورفش وأسمدة طبيعية و«يد خضراء» لتنمو وتُزّهر وتتألق حديقتك... ونفسيتك!

ما هو «علاج البستنة»؟

أثبتت السنوات أن علاج البستنة فعّال على صحة الإنسان العقلية والنفسية، ولا سيما أنّ هذه المنافع تم توثيقها منذ العصور القديمة. ففي القرن التاسع عشر، كان (د. بنجامين راش)، المعروف بـ«أبي الطب النفسي الأمريكي»، أول من تحدث عن تأثير الاهتمام بالحديقة على الأفراد الذين يعانون من أمراض نفسية. وفي الأربعينيات والخمسينيات، لاقت هذه الممارسة قبولًا كبيرًا في الرعاية التأهيلية لقدامى الحرب في المستشفيات. واكتسب علاج البستنة المزيد من المصداقية، ودمج لاحقًا في مجموعة أوسع من التشخيصات والعلاجات.

أقوال جاهزة:

بضع نباتات ومرشة ورفش وأسمدة طبيعية و«يد خضراء» لتنمو وتُزهر وتتألق حديقتك... ونفسيتك!

اليوم، يتمّ اللجوء إلى هذا العلاج إلى جانب علاجات أخرى لمساعدة الخاضعين له في تعلم مهارات جديدة أو استعادة مهارات فقدوها.

وقامت مؤسسات خاصة عديدة بهذه الممارسات، مثل «مؤسسة علاج البستنة الأمريكية»، في تحديد أنواع مختلفة من هذه العلاجات، التي تضم جميعها مشاركة «مريض» في نشاطات البستنة، التي يوفّرها معالج متدرّب.

وهناك «البستنة الاجتماعية» التي تشكّل نشاطًا ترفيهيًّا متعلقًا بالنباتات والبستنة، من دون تحديد أهداف علاجية، بل التركيز على التفاعل الاجتماعي.

أما «البستنة المهنية»، فهي عنصر أساسي من برنامج «البستنة العلاجية»، إذ تركّز على توفير التدريب الذي يسمح للأفراد بالعمل في هذا المجال، بشكل فردي أو ضمن مؤسسة معينة.

ونجد أنواعًا مختلفة من الحدائق التي تشكّل ساحة ملائمة لعلاجات البستنة. ويقدّم كلّ منها منافع محددة. وتغص «حدائق الشفاء» (Healing gardens) بالنباتات الخضراء والأزهار والماء وأشكال طبيعية أخرى، تكون - غالبًا - في المستشفيات أو مراكز الرعاية الصحية الأخرى، لتتحوّل إلى مكانٍ للخلوة والراحة. وتأتي «حدائق الشفاء» بثلاثة أنواع، الحدائق العلاجية، وحدائق علاج البستنة، والحدائق الإصلاحية، التي تتداخل جميعها بعضها ببعض.

التأثيرات الإيجابية...

يرى عالم النفس المتخصص في علم الأعصاب، (د. ألبير مخيبر)، أن «علاج البستنة» شبيه بأيّة هواية تساعدنا على «الانفصال» عن واقعنا اليومي، ولا تحمل معها ضغوط «الأداء» الجيد. وبالتالي، تمنح منافع إيجابية. ويقول: «عدا ابتعاد أو انقطاع عن الواقع، يوفر علاج البستنة فرصة الحركة والتمارين التي قد تُحفز الأفراد الذين لا يملكون الدوافع لممارسة الرياضة مثلًا، أو معظم الأفراد الذين يمضون ساعات طويلة جالسين إلى مقاعد مكاتبهم».

يساعد علاج البستنة أيضًا في تحسين الذاكرة والقدرات الإدراكية ومهارات اللغة، والتفاعل مع الآخرين، إضافة إلى تقوية العضلات وتحسين التنسيق والتوازن، والقدرة على التحمل.

وبما أن البستنة تحملكم على التعامل مع النباتات التي تنمو وتنضج ثمارها وتتساقط أوراقها وتذبل، فهي قد تساعد كل من يعاني من صدمة خسارة شخص عزيز على التعامل مع الوضع، وتقبّل مجرى الحياة. إضافة إلى أن رعاية النباتات، تساعد الأفراد – خصوصًا الأطفال – في تعلّم أهمية رعاية الآخرين، والاهتمام بالتفاصيل وحسّ المسؤولية.

كما أنها تحفّز الحواس الخمس، خلافًا لمعظم النشاطات الترفيهية الأخرى. فقد أثبتت الدراسات أنها ترفع معدلات «هرمونات السعادة». كيف ذلك؟ التعرض لمساحات خضراء يساعد في تقليص معدلات (الكورتيزول)، أي هورمون الضغوط، الذي يتحكّم بالمزاج والذاكرة والمناعة.

العودة إلى الطبيعة

«الطبيعة هي أفضل إطار لعلاج الصدمات»، أو المشاكل النفسية وضغوط الحياة اليومية المتسارعة، خصوصًا أن معظمنا يمضي ساعات طويلة محتجزًا داخل جدران المكتب، ومن دون أي حركة تُذكر.

ظهر «العلاج البيئي» (Ecotherapy) الذي يُعرفه (د. مخيبر) بأنه «مجموعة واسعة من البرامج العلاجية التي تهدف إلى تحسين الرفاهية العقلية والجسدية من خلال ممارسة النشاطات الخارجية في الطبيعة».

ولا يقتصر العلاج البيئي على علاج البستنة، بل يتضمن باقة واسعة من الممارسات، كالعلاج بمساعدة الحيوانات أو النشاطات في البرية، أو العمل على التوعية حول أهمية الطبيعة، أو حتى كيفية التعامل مع «أسفنا وقلقنا» حيال ما قام به الإنسان لكوكبنا، وكل التأثيرات على البيئة والمناخ.

إلا أن «علاج البستنة» قد لا يكون الحل الأنسب لكل المشاكل. يقول (د. مخيبر): «لا يسعنا أن نضع كل العلاجات البديلة في سلة واحدة، ولا بد أن نتجنب الحكم على فعالية وسيلة محددة على مجموعة واسعة من المشاكل النفسية. فهي قد تساعد في بعض الحالات

وتفشل في حالات أخرى». ويعطي مثالًا على الاضطرابات الجسدية، ويوضح: «مضادات (الهيستامين) تساعد الذين يعانون من الحساسية لكنها لن تفيد إذا كنت تعاني من كسر في القدم، الأمر نفسه ينطبق على علم النفس. فالبستنة قد تساعد في تخفيف القلق، ولكنها قد تكون غير فعالة في اضطرابات أخرى».

ويضيف: «بشكل عام، هذه الأنواع من الممارسات، إلا في حال كانت مجرد هواية للاسترخاء، لا بد أن تُستكمل بالعلاجات. فهذا النوع من الممارسات الذي يركّز على الاهتمام سيساعد على تخفيف أعراض القلق أو الاكتئاب، لكن هناك حاجة إلى العلاج النفسي لتغيير الأنماط المعرفية والسلوكية التي قد تكون السبب وراء الاضطرابات الظاهرة».

الروبوتات.. هل تجعل الحياة أسهل

مدى خالد

تمّ ترشيح هذا النص من الطالبتين عائشة راشد أحمد الظنحاني من مدرسة مربح للتعليم الثانوي، وحفصة راشد أحمد الظنحاني من مدرسة الابتهاج للتعليم الأساسي

قد يصبح الإنسان الآلي الذي يشبه البشر في مظهره وسلوكه مشهدًا معتادًا في المستقبل القريب، ما يثير تساؤلات مهمة حول وضع تلك الآلات وحقوقها ودورها في المجتمع.

حتى نفهم الأمور في سياقها الطبيعي، سأبدأ بالحديث عن زمن أجدادنا، هم كانوا في عالم ليس فيه حواسيب ولا هواتف ولا كهرباء ولا سيارات، أي باختصار، ليست فيه أي من وسائل الراحة التي نعدّها اليوم من المسلمات. ولطالما سمعنا قصصًا حول وصول أول سيارة إلى المدينة، وكيف أن واحدًا في المنطقة أصبح يمتلك مصباحًا كهربائيًا في غرفة المعيشة، وكان الأطفال الذين يسكنون في المنطقة يتجمعون عنده لمشاهدة هذه الأعجوبة الحديثة.

لا يستطيع شباب الجيل المعاصر تخيّل هذا النوع من المعيشة، لكن الحقيقة أن هذا كان واقع الحياة في البلدان الإسكندنافية قبل بضعة أجيال فقط، ولا أستطيع أن أتخيّل كيف كانت جدتي ستتصور حياتي الآن. وما يبدو عصيًّا عليّ الآن هو تصور حياة أحفادي، أي بعد جيلين فقط في المستقبل. لكن بناءً على ما أعرفه اليوم، فإنني على يقين من شيء واحد، وهو أنهم سيعيشون مع (الروبوتات) أو البشر الآليين.

نحن نقترب كل يوم من «عصر الإنسان الآلي»، وهو واقع اجتماعي ستلعب فيه أنواع مختلفة من (الروبوتات)، وخاصة الإنسان الآلي الشبيه بالبشر في المظهر والتصرفات، دورًا مهمًا في سلوكنا وتفاعلنا مع الآخرين ومع التقنيات المحيطة بنا، وهناك العديد من الأسباب لهذا الأمر.

في الأيام الأولى (للروبوتات)، كان الناس جميعهم إليها كأدوات تُستخدم بصورة أساسية في خطوط الإنتاج ومستودعات التخزين، لكن تلك النظرة تغيرت في السنوات الأخيرة. فأصبح

مـن السـهل الآن أن نعتبـر (الروبوتـات(«وسـائط»، ويتوقـع العديـد مـن العلمـاء والمفكريـن أن تصـل الإمكانيـات المحتملـة لتقنيـات (الروبوتـات) إلـى كل نواحـي الحيـاة البشـرية. فـي «عصـر الإنسـان الآلـي الشـبيه بالبشـر» سـتبقى بعـض (الروبوتـات) مجـرد أدوات، فيمـا سـيصبح بعضهـا الآخـر شـركاء وربمـا أصدقـاء.

مـاذا عـن الرجـل الآلـي فـي السياسـة والمجتمـع؟ هـل نتوقـع بحلـول عـام 2045 أن نـرى دولًا تحكمهـا وتديـر مؤسسـاتها (الروبوتـات)..؟

توقـع تقريـر متخصـص أن تتحـول نبـوءات «الخيـال العلمـي» عـن عالـم يحـل فيـه الإنسـان الآلـي للسياسـة وصناعـة القـرار محـل الإنسـان العـادي بحلـول عـام 2045.

هـل يبـدو ذلـك قصـة مـن الخيـال العلمـي؟ ربمـا، لكـن الحقيقـة أننـا نملـك اليـوم تقريبًـا التقنيـات اللازمـة جميعهـا لتحويـل هـذه السـيناريوهات إلـى واقـع، ومـا علينـا إلا جمعهـا معًـا.

لابـد أن نعـرف، أنـه تـم ابتـكار (روبوتـات) تسـتطيع تتبـع تضاريـس الأرض، واختيـار طـرق بديلـة؛ بـل إن منهـا مـا يسـتطيع حمـل الإمـدادات مـن الأسـلحة والذخيـرة وتطهيـر الأرض مـن الألغـام، والاضطـلاع بأعمـال الحراسـة؛ ومـا زال العمـل جاريًـا علـى تطويرهـا، لتصبـح قـادرة علـى اللمس والشـم والسـمع والتـذوق، وكل مـا يحسّـن أداءهـا، ويزيدهـا سـرعة ومقـدرة فـي إنجـاز مهمّاتهـا. كمـا تطمـح الولايـات المتحـدة الأميركيـة إلـى تطويـر (روبـوت) يحـارب فـي الخطـوط الأماميـة، ويسـتطيع تسـلق الحواجـز، ويسـبح تحـت المـاء، ويراقـب (الروبوتـات) العسـكرية الأخـرى.

كمـا جنـدت (روبوتًـا) كـروي الشـكل يتدحـرج علـى الأرض، ويسـتقر علـى ثـلاث قوائـم (تليسـكوبية)، ويخـرج رأسـه مـن فتحـة فيـه، مسـتطلعًا المـكان المحيـط لاكتشـاف قـوات العـدوّ، فتبـادر مستشـعرات الحـرارة والحركـة المـزود بهـا إلـى تجهيـز أسـلحة فـي داخلـه، وتصويبهـا مـن خـلال فتحـة أخـرى نحـو الأعـداء.

وكذلـك طُـورت (روبوتـات) لتلائـم الطبيعـة، وتغـوص فـي المحيطـات، لتدميـر الألغـام البحريـة. كمـا أن بعـض العلمـاء يحـاول تطويـر جنـدي علـى هيئـة (روبـوت) صغيـر جـدًّا، يسـتطيع الزحـف والوثـب والطيـران فـوق حقـول الألغـام وفـي الصحـراء وعلـى الشـواطئ، ليتجسـس علـى العـدو،

ويزيل الألغام، ويكتشف الأسلحة الكيماوية.

وقد أُنتج (روبوت) ميكروهوائي بحجم ذبابة، خصص (البنتاغون) لتطويره مبلغ 60 مليون دولار. وتستطيع هذه الذبابة حمل مصوِّرات لمراقبة جنود الأعداء أو اصطيادهم وقتلهم، بواسطة دس السم في أعناقهم.

يمكن (للروبوت) التحدث بعدة لغات، وأن يؤدي دورًا في مجال الحركة والقيادة، وهو لا يحتاج إلى توصيل مباشر بمصدر تغذية خارجي، وإنما يعمل ببطارية قابلة للشحن، ويكتشف ذاتيًا ضعفها فيطلب إعادة شحنها، أو يتجه (الروبوت) نفسه إلى أقرب مقبس كهربائي، حيث يتولى شحنها بنفسه. كما أمكن إنتاج روبوت مزود بخلايا كهروضوئية تتغذى بالطاقة الكهربائية المستمدة من الشمس.

رغم كل هذا الاهتمام والتوجهات العالمية المتزايدة بتكنولوجيا (الروبوت)، إلا أننا لا نجد لها صدى في عالمنا العربي، فما زالت تكنولوجيا (الروبوت) وتطوراتها وآفاقها الواعدة غير مألوفة في عالمنا العربي، وما زلنا نعاني من القصور الشديد في الأخذ بمقومات تطبيق تكنولوجيا (الروبوت)، كما أن الثقافة (الروبوتية) في عالمنا العربي تكاد تكون معدومة، ورغم أن (الروبوتات) لم تعد تدخل ضمن باب الخيال العلمي، إلا أن أفكار بعضنا في عالمنا العربي عنها لا تزال أقرب لأفلام وتصورات الخيال العلمي.

قبل أن تغزو الروبوتات منازلنا، هناك ضرورة عاجلة لإعداد أبنائنا للثورة (الروبوتية) الواعدة، من خلال التوسع في نشر ثقافة (الروبوت) من خلال إدخال علوم (الروبوت) والذكاء الصناعي في مدارسنا وجامعاتنا، وكذلك التوسع في نشر المراكز والنوادي العلمية، وذلك لتأهيل أبنائنا للتعامل مع الروبوتات ومتابعة التطورات السريعة المتقدمة في هذا المجال.

ولكن ربما في العصر الذي سيعيش فيه أطفالنا وأحفادنا سيكون البشر الآليون أكثر من مجرد آلات. وسنتعلم كيفية إدماجهم في حياتنا اليومية بالسهولة ذاتها التي أصبحت فيها الهواتف الذكية والحواسيب جزءًا من حياتنا العادية اليوم.

صناعة المستقبل

حازم البيلاوي

تمّ ترشيح هذا النص من الطالبتين عائشة راشد أحمد الظنحاني من مدرسة مربح للتعليم الثانوي، وحفصة راشد أحمد الظنحاني من مدرسة الابتهاج للتعليم الأساسي

اختلاف النظرة للمستقبل:

كان موقف الإنسان من المستقبل دائما بالغ الغموض والحيرة إذ تراوح بين التفاؤل والتشاؤم من ناحية وبين العجز والقدرة من ناحية أخرى ومع ذلك فإنه يبدو أن أحد مكتسبات العصر الحديث هو ثقة الإنسان في نفسه وفي مستقبله وأنه بدأ يعمل من أجل المستقبل ويخطط له وهكذا فالمستقبل لم يعد قدرًا محتومًا أو كتابًا مغلقًا بقدر ما هو نتيجة للإعداد والترتيب.

سبب اهتمام الإنسان بالمستقبل:

و اهتمام الإنسان بالمستقبل راجع في جزء منه إلى زيادة قدرات الإنسان وبالتالي تأثيره على بيئته ففي الماضي البعيد وقف الإنسان عاجزًا أمام قوى الطبيعة التي شكلت حياته وظروفه ومن هنا فقد كان التغيير محدودًا فهو يخضع لناموس طبيعي قل أن يتغير وبالتالي فقد تغير نمط حياته على الظروف الجوية واختلاف الفصول وطبيعة البيئة المحيطة به والتي قل أن تتغير ألّا عندما تقع الكوارث الطبيعية من فيضانات أو زلازل أو أعاصير أو امراض وهكذا.

النظرة القديمة للمستقبل:

فقد كانت نظرة الإنسان إلى المستقبل هي نظرة الخوف والترقب من أهوال ومصائب الطبيعة أما ما عدا ذلك فإن العادة والتقاليد كفيلة بترتيب أمور الحياة من الرعي أو الصيد أو في الزراعة فمع ركود المجتمعات وبطء التغيير لم تقم الحاجة إلى الإعداد للمستقبل الذي لم يخرج عن استمرار وتكرار للحاضر والماضي فالوقت يمضي والزمن لا يتغير.

الثورة الصناعية تغير النظرة للمستقبل:

و مع زيادة قدرة الإنسان على التأثير في البيئة خاصة مع الثورة الصناعية لم يعد المستقبل مجرد تكرار للماضي فتعدد وتنوع وسائل الإنتاج واكتشاف الجديد من المناجم أو المعادن

والتعرف على بلاد جديدة واتساع قاعدة التجارة والمواصلات كل ذلك فتح باب التغيير فاختلف اليوم عن الأمس ولم يعد الغد مجرد صورة لليوم.

ضرورة الاهتمام بالمستقبل والتخطيط له:

و الاهتمام بالمستقبل هو تعبير عن إدراك قوى التغيير والتجديد فما حاجتنا إلى الإعداد للمستقبل إذا لم تكن هناك احتمالات للتغيير وهكذا بدا النظر إلى المستقبل نظرة جديدة مع التغيير المستمر في ظروف الحياة وقواعد الإنتاج وحاجات الأفراد والجماعات.

التغيير سر الاهتمام بالمستقبل:

فالوعي بالمستقبل والاهتمام به هو وليد التغير المستمر الناشئ عن الزيادة المطردة في سيطرة الإنسان على بيئته وهكذا أدى تحرر الإنسان من ربقة وعبودية الطبيعة كما ساعدت سيطرته عليها وتسخيرها له إلى فتح آفاق متعددة للمستقبل مما أوجب الاهتمام به والإعداد له.

الوعي بالمستقبل كحقيقة مستقلة إنما هو نتيجة للاعتراف بإمكانات التغيير فبدون تغيير لا معنى للمستقبل ولا قيمة للتاريخ وكل ما هناك هو صور متكررة ومعادة للقصّة نفسها لا فرق بين ماضي وحاضر ومستقبل سوى مرور الوقت.

الإنسان كائن ذو حضارة وتاريخ:

و من هنا كان الإنسان ذا حضارة وتاريخ لأنه استخدم الوقت المتاح في إجراء الغييرات والتجديدات في ظروف حياته ونشاطه وللسبب نفسه لم تعرف مملكة النحل أو النمل مثلًا تاريخًا أو حضارة لأنها رغم تنظيمها الاجتماعي المتقدم فإنها لم تعرف تغيرًا أو تطوّرًا ولنفس السبب فإنها ليست في حاجة إلى الإعداد للمستقبل أو صناعة الحضارة وهذا شأن الجماعات.

وتثير قضية صناعة المستقبل مشكلة التخطيط والإعداد للمستقبل فإذا كان من الصحيح -وهو صحيح- أننا نختار المستقبل بأفعالنا فإننا في حاجة دائمة ومستمرة للتخطيط والإعداد للمستقبل.

مركز اتصال وزارة التربية والتعليم
اقتراح - استفسار - شكوى

80051115 04-2176855 ccc.moe@moe.gov.ae www.moe.gov.ae